



ميشال أونفراي

غلاة الأنوار

مكتبة



ترجمة: أبو بكر العيادي

LES ULTRAS DES LUMIÈRES

by MICHEL ONFRAY

مكتبة

t.me/soramnqraa

تاريخ مضاد للفلسفة

غُلاة الأنوار

ميشيل أونفري

ترجمة: أبو بكر العيادي





الطبعة الأولى: 2024
التّرقيم الدّوليّ
978-603-8387-73-3
رقم الإيداع
1445/8394

كتاب
غلاة الأنوار
المؤلف
ميشيل أونفري

©Éditions Grasset & Fasquelle, 2007.



حقوق التّرجمة العربيّة محفوظة
© صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع
E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربيّة السّعودية

مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع آراء المؤلّف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤوليّة دار النّشر
أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافيّة التنظيميّة أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

الفهرس

7.....	مقدّمة (غُلاة الأنوار)
35	الزّمن الأول (المادّيون الرّاديكاليّون)
37	(I) جان ميليه و«الميل اللّطيف إلى الطّبيعة»
97	(II) لا ميتري و«الهناء الدّنيويّ»
135.....	الزّمن الثّاني (المنفعيّون الفرنسيّون)
137	(I) موبرتوي و«رغبة السّعادة»
167	(II) هلفيتيوس و«رغبة المتعة»
225	(III) دولباك و«فنّ الانتشاء»
275.....	الزّمن الثّالث (الخلاعة الإقطاعيّة)
277	(I) ساد و«متع القسوة»
309.....	خاتمة (الثّورتان الفرنسيّتان)

«كُلُّ فلسفةٍ حديثةٍ سياسيَّةٌ أو بولييسيَّةٌ»

نيتشه – اعتبارات في غير أوانها.

مقدمة

غُلاة الأنوار

مكتبة

t.me/soramnqraa

1

ضوء الشموع الواهي. يعرف علماء الطيور المتخصصون في كتب الحيوان الفلسفية أن منيرفا طارت عند هبوط الليل. في مجال التاريخ الرسمي، ينبغي استحضار وإيجاد حيوان أكثر بطئًا، متخصص في الآماد الطويلة، حيوان أحفوري، نوع من السلاحف... لأن المؤرخ الرسمي يستيقظ بعد وقت مديد من تجلي الواقع. يصل ساعة الرماد البارد ويحرك الأشياء وفي ذهنه ذكرى ما انقضى بين الحدث وروايته.

صحيح أن من الصعب أن نتصور تاريخًا عن الحاضر وبصورة أقل تاريخًا عن المستقبل. ولكن بأي ماضي يمكن أن نصنع التاريخ؟ وخصوصًا في أي وقت؟ وبعد أي مهلة معقولة لفتور للعالم؟ ما يحدث هنا والآن يحمل إمكانيات رائعة لما سوف يكون. ولكن لا أحد يعرفها قبل السريان الذي يسمح بالمرور من الافتراضي إلى الواقعي. أن يحمل النصف الأول من القرن الثامن عشر في طياته الثورة الفرنسية هو أمر لم يعد مثار شك. ولكن بعد الوقائع. وغالبًا ما نعيد التفكير فيه استدلالياً في ضوء ما تلاه. إن كتابة التاريخ هي

هكذا إذن، قيل عن ذلك القرن قرن الأنوار. ممّن؟ متى؟ وليقول ماذا تحديداً؟ وكما هو الشأن مع الاسم الذي أُطلق على القرن السابع عشر - القرن الأكبر -، لا نجد إجابة واضحة وجليّة تسمح بعرض اسم علم أو كتاب أو مقالة أو تاريخ نشرٍ يمكن أن يكون مصدر تلك التسمية. تقديرات وفرضيات، أي نعم، ولكن لا وجود لمبتكرٍ بالاسم. يبدو أنّ التاريخ الرسميّ يفلت من المؤرّخ. صحيح أنّ ديكارت يتحدّث عن «النور الطّبيعيّ» للعقل، وفولتير يتحدّث عن «أنوار القرن المستنير»، والألمان لهم أنوارهم Aufklärung والإنجليز لهم أنوارهم Enlightenment، ونعرف أيضاً أنّ «تلقيّ النور» في الماسونية يعني تلقّن المبادئ، ولكنّ «قرن الأنوار» عبارة ليس لها والدٌ معروف.

منذ أفلاطون، ثمّ مع المسيحيّة لاحقاً، ارتبط النور بسمااء الأفكار البينة أو بالرّب. حسب ما ورد في الجمهوريّة، ينبثق الإحساس ممّا يُدرّك بالعقل مثل كلّ ضياء أرضيّ لنار سماويّة نزيهة، خالدة، أبدية، غير مخلوقة. النور يقترح صورة، استعارة، مجازاً عمّا يعجز اللسان عن قوله أو وصفه. من نار استعارة الكهف إلى الإشراق الرّبانيّ، يسمّ النورُ بأس الآخرة، وقوّة التّسامي، وحقيقة ما وراء الواقع. النور المثاليّ، نور الرّب، يغمر العالم في شتّى تفاصيله. بيد أنّ هذا النّمودج ينهار مع القرن الأكبر: في الفلسفة، بطبيعة الحال، مع ديكارت، ولكن في الفيزياء أيضاً معه هو نفسه، فقد اشتغل كذلك على

البصريّات وانعكاس الضّوء. ينضاف إليهم روبرت بويل وكريستيان هاينخس وإسحاق نيوتن الذين كانوا ينشطون في نفس الحقل.

واضح أنّ القرن الثامن عشر، بما هو وليد القرن الأكبر مبتكر العقل الحديث الذي أعطى دفعًا لتحرّر الفلسفة، يمكن أن يقال عنه قرن الأنوار: ضدّ الظلمات الدنيّة والظلاميّة اللاهوتيّة والليل الكاثوليكيّ البابويّ الرّومانيّ الذي هبط على أوروبا منذ انقلاب قسطنطين عام 321، عكس الفكر السّحريّ والصّوفيّ، وعلى نقض المرويّات المتخيّلة والخرافات وما إلى ذلك من مدد ميثولوجيّ، جاء نفرّ من المفكرين - ليس أولئك الذين نظنّ - بمشاعل ومصابيح، وفوانيس وقناديل، تفوّقت على ضوء الشّمع الصّغير الواهي.

2

المحتالون الفلسفيّون. بدا هذا النّور ضروريًّا إذا نظرنا إلى تاريخ ذلك القرن في شموله. ليس فقط ما حفظناه وبدا أنّه يهيئ للثّورة الفرنسيّة، ويؤكّد تبعًا لذلك اندلاعها، وإنّما ما يعجّ ويفيض في الميادين الأكثر شططًا: لأنّ عصر الأنوار الأثير هو أيضًا عصر يوهان كاسبر لافاتير، الفيلسوف والتّيولوجيّ البروتستانتيّ السّويسريّ، الشّاعر في أوقات فراغه والمتصوّف على الدّوام، وهو الذي عارض الموسوعيّين وتحمّس لانفعالات الوجه، ثمّ ابتدع علمًا زائفًا، وبهتانًا حقيقيًّا هو علم الفراسة. والقرن الثامن عشر هو أيضًا عصر الطّبيب

الألمانيّ فرانز جوزيف غال الذي يقيس الجماجم - وهي ممارسة مشؤومة الطّالِع ذات امتدادات نحسة...- ليعمّم الحكم عليها انطلاقًا من تجاوبيفها وحَدباتها - ومنها حُدبة الرّياضيّات الشّهيرة...-، نظريّة أخرى عجيبة، تدّعي العلم زورًا، ولكنها ذات دلالة في الواقع هي فِراسة الدّماغ. وقد صَفّى هيغل حسابه معها ببضع كلمات صائبة في فينومينولوجيا الرّوح...

في نفس الفترة، يتسابق النّاس إلى بيت فرانز أنطون ميسمر، وهو طبيب ألمانيّ يعمّم انطلاقًا من المغناطيس علمَ خصائص مغناطيسيّة يزعم أنّه علاج لكلّ الأمراض. في مستشفى باريسيّ، عمد هذا الطّبيب منذ 1778 إلى إغراق نساء من عليّة القوم واثنتين أو ثلاثًا ممّن كنّ برفقتهنّ في جردله العجيب المملوء ماء وبُرادة حديد ومسحوق زجاج، حيث يعالج ذلك الماكرُ الأمراضُ بممارسة الملاسة والمضاجعة. وقد أكّدت إصابة المريضات بهستيريا ملحوظة في شكل هذيان فوريّ تلك المخادعة التي سرعان ما انكشفت. الميسمريّة، هي أيضًا نتاج القرن الذي يقال عنه قرن الأنوار!

وما قولك في إسراف إيّمانويل سفيدنبورغ، ذلك السّويديّ المتصوّف الهاذي، الذي يعرض، حسب شطحاته، في أعماله الفلسفيّة المزعومة - مثل كتاب الحكمة الأزليّة - كيف تقود الملائكة والشّياطين الخافية باستمرار وبالتّفصيل مسار العالم الواقعيّ؟ والطّائفة التي تستلهم منه أفكاره - مثل «عُصبات الهارمونيا» التي تنشط حول ميسمر -، و«كنيسة أورشليم الجديدة» حصلت على

عدد كبير من الأتباع وكان لها لمدة طويلة تأثيرها في أوروبا... يا
للأنوار!

إلى ذلك ينبغي أن نضيف غنوصي الثورة: لويس كلود دو سان
مارتن وفابر ديغلانتين، المعروف بأغنيته «تمطر، تمطر يا راعية» أكثر
مما هو معروف بـ صوت الاكتمالية أو نظرات حول الجنس البشري،
وكلها مقترحات صوفية هذيانة، إخفائية تدرج في مصطلح
تيوصوفية. ومع الشهير كاليوسترو⁽¹⁾، المدرّس في مجمع ماسوني
مصري، مبتدع ماء الفتوة، توصل أولئك المحتالون الفلاسفيون من
ذوي الطبقة الرفيعة إلى بيع دخان فكري، وأغواوا الناس
باللامعقول، وحازوا القبول بفضل قوة البلاغة الطائفية المقنعة.
فالعقل لا ينتصر في كل مكان في عصر قتل أيضًا إنه عصر فولتير!

3

زعيق «مناهضي الفلاسفة». الويل للمهزومين! عندما يكتب
التاريخ بقلم المنتصرين، ينبغي توقع تواصل الحرب في ميدان الورق
والأفكار: كانت الإبادة الأيديولوجية، والإلغاء من المشهد
التاريخي، وإبعاد كل ما كان، هي المسيطرة حين تولّى النساخون
تدوين الحوليات والوقائع عن ماضي ناقلي الأخبار الذي يدفعون
لهم أجورهم. كذلك أمر «مناهضي الفلاسفة» الذي لا نعرفهم تمامًا
ولكنهم مع ذلك يحدثون ضجة عالية بهدف محاربة الخط الموسوعي

(1) أليساندرو دي كاليوسترو (1743-1795): مغامر صقلي جاب عدة بلدان أوروبية
وعربية قبل أن يعتنق الماسونية عام 1777 (كل الهوامش من وضع المترجم).

للأنوار الكلاسيكيين والتصدي له. أنوار تيولوجية قادمة من السماء، سلمها الرب، وسلمتها خاصة ديانة أرضية جداً، ضد الأنوار الفلسفية التي أنتجها العقل بالبنط العريض.

ينبغي ألا ننسى أن معظم مناهضي الفلاسفة يشتركون مع علماء فراسة الوجه وفراسة الدماغ والميسمرين والغوصيين والتبوصوفيين والإخفائيين في نفس الميل إلى الانتحاء الطائفي ونفس الكره للقدرات المنهجية والحجاجية للعقل الفلسفي الحديث الذي ابتكره ديكارت. فلا نتعجب إذن أن يتحد أعداء الفلاسفة في اعتناقهم الكاثوليكية البابوية والرومانية الأكثر أصولية.

من هم؟ أرخبيل هنا أيضاً: يسوعيون، متشيعون، جنسينيون⁽²⁾، منافحون، أكاديميون، تراجيديون، أصحاب مصنفات في مواضيع شتى، كهنوتيون، وكانوا كلهم يدافعون بالملخب والتاب عن الديانة المسيحية، ولكنهم يدافعون أيضاً عن شرعية حليفهم الدائمة، الملكية... يلجؤون إلى الرواية والمسرح والمعجم وكتب الأطفال والحوار، مثلما يلجؤون إلى الوعظ وكتاب إثبات عقائد النصرانية الكلاسيكي؛ يختارون نبرة النقد الهجائي والحرب ويقودون صراعاً لمنع الفلاسفة من احتكار الخطاب المسموع آنذاك في الصالونات والنشر. ابتدعوا ألفاظاً مولدة من نوع تسامحوية وفلسفوية ولنا أن نقيس، من لواحقها الباخسة، مدى الاعتبار الذي يقابلون به

(2) Jansénistes: أتباع الهولندي كورنيليوس جنسينيوس (1585-1638) مبتدع الجنسينية، وهي مذهب أخلاقي مسيحي متشدد.

لقد نسي التاريخ، طبعاً، اسم عالم الميتافيزيقا لولارج دو لينياك، وتقريع الأب بيرجيه⁽³⁾ لأعداء الربّ والتعاليم المقدّسة، أو اسم جاكوب نيكولا مورو صاحب الكتاب الأكثر مبيعاً في عصره (هكذا هو مجد العالم!) - **أول بحث في الكاكواك**⁽⁴⁾... - الشيء نفسه بالنسبة إلى الأب أودي جيري دو سان سير، مربّ مساعد لأطفال فرنسا⁽⁵⁾ ونجّي الدوفان⁽⁶⁾، وغيرهم من المتزلفين للملكيّة الكاثوليكيّة الفرنسيّة التي تمقت فلاسفتها بالرّغم من كونهم الأكثر اعتدالاً.

4

الأنوار الباهتة. ذلك إذن قليل من القرن الثامن عشر، بعيداً عن البطاقة البريدية الأيديولوجيّة المعتادة. دلاء للهستيريات، فراجير لقيس الجماجم، عبدة الشيطان متخصصون في مباحث الملائكة، غرف داخلية سرّية، مفكّرون يرفضون ممارسة العقل الخالص، متصوّفون إخفائيّون، مشعوذون من كلّ نوع، كلّهم يحاذون صواريخ فولتير ضدّ رجال الدين ولكن ليس ضدّ الربّ، وكرهه للملحدين ولكن ليس ضدّ الديانات المفيدة في انصياح الشعب. هذا

(3) Nicolas-Sylvestre Bergier (1718-1790): عالم لاهوتيّ فرنسيّ، وكان منذ ستينات القرن الثامن عشر ناطقاً باسم الأسقيّة الفرنسيّة في صراعها ضدّ الأنوار، وخاصّة روسو وكتابه «إيميل».

(4) Cacouac: لفظة مولّدة من kakos (رديء) و couac (خبث) ابتدعها أعداء الأنوار عام 1757 للسخرية خاصّة من كتاب الموسوعة.

(5) الاسم الذي يطلق سابقاً على أبناء الملوك من زواج شرعيّ.

(6) Dauphin: وليّ العهد في فرنسا قبل الثّورة.

القرن المظلم يتزامن مع وجود ديدرو، البصير جدًا بشعوب أقاصي الأرض في ملحق رحلة بوغانفيل ولكنه أقل فصاحة حين يقبض أرباح رأس ماله المرصود في تجارة الرقيق... نفس الملاحظة بالنسبة إلى كوندورسيه الذي يدين العبودية في تأملات في استعباد الزوج، ولكنه يطلب قرار تأجيل إلزامي بثمانين سنة (!) كي لا يُغبن مالكو العبيد... أنوار، أنوار!

كذلك الشأن بالنسبة إلى كانط قدوة الأنوار - ومحنة تلاميذ المرحلة الثانوية مع كتابه الذي صار شهيرًا إجابة عن السؤال: ما الأنوار؟ - الذي يدعو إلى الجرأة الفلسفية بطبيعة الحال، والشجاعة الفكرية الرامية إلى تفكير المرء بنفسه، ويصف تقدّم العقل عبر التاريخ تقدّمًا لا يُقاوم، ويدعو إلى مزيد من تفتح الإنسانية، ويُسرّ بعود الثورة الفرنسية سرورًا أنساه جولته المعتادة قرب أسوار كوينغسبرغ، ويتمنى استعمال العقل الخالص، فيما هو يُحلّ المرأة في مربع القاصرين بالفعل، على نحو جوهريّ، أساسي. ماذا نقول عن كانط الذي يتوقّف مليًا في تعريف مفهوم الجنس البشريّ أو في مختلف الأعراق الإنسانية عند روائح الزّوج الكريهة؟ - الذين يزفرون رائحة الكراث، كما يؤكّد بوفون⁽⁷⁾، كاتب آخر من مشاهير الأنوار في كتابه عن الإنسان. نفس كانط المستنير يعتبر فكرة الاقتراع العامّ جيّدة، ولكن للمواطنين الإيجابيين فقط - أمّا المواطنون السلبيّون،

(7) Georges-Louis Leclerc de Buffon (1707-1788): عالم طبيعة ورياضيات وأحياء وعالم كونيّات وفيلسوف وكاتب فرنسيّ. عضو في الوقت نفسه بأكاديمية العلوم والأكاديمية الفرنسية.

كالمستخدمين والعمّال والأجراء وكذلك الزوج والنساء فلا حقّ لهم أن يكونوا في العالم على نفس طريقة رجل أبيض مالك مغتسل جيّدًا... كم نستمسك بك يا أنوار!

وما رأيك في جان جاك روسو الذي يدافع في خطاب في العلوم والفنون عن عدّة مواقف قليلة التّنوير؟ كتقليله من قيمة اختراع المطبعة، بدعوى أنّها سمحت بنشر عدد من الكتب الخطيرة؛ وكرهه للمسرح لكونه يلبّين الضّمائر والأجساد؛ جينياولوجيا منحرفة للعلوم والفنون؛ مديح الجهل؛ حرص على إبقاء الشّعب تحت الطّاعة؛ تحذير من كلّ رغبة ثوريّة؛ ثناء على إسبرطة؛ دفاع عن الحكم بالإعدام؛ احتفاء بالخشونة والعمل اليدويّ والجهل والإيمان والدين والانضباط العسكريّ؛ كلّ ذلك مشفوعًا بنقد الأعمال الفكرية والفلسفة والميتافيزيقا. كتاب صلوات حقيقيّ للظلاميّة...

تلك إذن بعض النماذج الرّمزيّة للأنوار، وهي من هي، تقف إلى جانب المدافعين عن العبوديّة وتجارة الرّق، وتشيع أفكارًا عرقية ومتحيّزة جنسانيًا، رجعيّة أو محافظة - عدد هامّ من أولئك الفلاسفة يدافعون عن الحكم بالإعدام: كانط، روسو، مونتسكيو، ديدرو، فولتير؛ ومعظمهم، أخيرًا، يقاومون بنشاط الإلحاد ويدافعون عن التّأليهيّة⁽⁸⁾، وهو ما يسمح لهم بالتّعامل مع السّلطة الرّسميّة، السّعيدة بأن يُترك لها استعمال ذلك السّند الميتافيزيقيّ الدّائم في أعمالها التّعسّفيّة...

(8) Déisme: مذهب يقرّ بوجود الرّب وينكر الوحي والأخرة.

عن وجود الأنوار الراديكالية. بين ظلامية مناهضي الفلاسفة والأنوار الباهتة التي يحتفي بها التاريخ الرسمي المهيمن، توجد أنوار راديكالية تهاجم أس المجتمع: المسيحية، وذلك من أرض الكنيسة الريفية إلى سقف السماء، بيت رب واحد، غيور، معاقب، ومنتقم. أولئك الأنوار الراديكاليون لا يعترفون برب ولا سيد ولا بابا ولا ملك. الكنيسة الكاثوليكية والملكية لا تمثلان لديهم تابو مجال محجوز. إن استعانوا بالعقل الحديث لديكارت، فإنهم لا يحدّدون أبداً قوّته.

ضدّ غلاة الأنوار أولئك، يمكن لمناهضي الفلاسفة والأنوار الرسميين أن يلتقوا في معركة مشتركة. صحيح أنّ مناهضي الفلاسفة يعيبون على فلاسفة الأنوار التقليديين هجومهم على الديانة الكاثوليكية وعدم الإيمان بنفس الربّ الذي يؤمنون به، وعدم استخلاص نفس النتائج النظرية والأخلاقية والسياسية. ولكن أولئك الأعداء الشّاحبين يشتركون في نفس الإيمان بوجود تسامٍ منظمٍ لمثولية⁽⁹⁾ وامتياز نسخته على الأرض: الملكية.

جهر القسّ السّافوائي بعقيدته يقترح، حسب عبارات روسو، «الألوهية أو الديانة الطبيعية». في الواقع، إنكار التجسيمية⁽¹⁰⁾، والخطاب المأخوذ من علم اللاهوت السلبي لتأكيد السّمة التي لا

(9) Immanence: حالة كائن مائل في كائن آخر.

(10) Anthropomorphisme: خلع الصفات البشرية على الذات الإلهية وتشبيهها بالإنسان.

توصف لتلك القوة المنظّمة للعالم، ونقد عدد من ملامح التّوحيد المسيحيّ - الخلط بين الدّنيويّ والروحيّ، بطلان المعجزات، حماقة التّعليم المسيحيّ الرّسميّ، التّناقضات بين روح الأناجيل والخطاب الرّسميّ للكنيسة، إلخ. كلّ ذلك يحدّد التّأليهيّة جيّدًا، وهو ما تشهد به صيغة «الكائن الأسمى» الواردة في الكتاب. يبدو أنّ روسو لدى بيرجيه حاضر بشكل أقلّ من حضور مواطن جنيف لدى لا ميتري أو دولباك أو ساد... فبالرّغم من اختلافاتهم الظّاهرة، هم يشتركون في الرّبّ في واقع الأمر.

لهذا السّبب، كلّ التّأليهيّين ونعني بهم فولتير وروسو وديدرو - الذي كان يسبح في المياه العكرة بخصوص هذا الموضوع... - ودالمبير، لا يعتدلون في نقد الفكر المادّيّ: وكان لا ميتري يتلقّى قذائف ذلك الجمع الذي لا يتوانى أيضًا عن مهاجمة ميليه وهلفيتوس ودولباك وساد. لأيّ علّة؟ الإلحاد، المادّيّة، نقد الكنيسة، رفض الأديان، وكلّها إدانات راديكاليّة يأبأها مفكّرو الأنوار الباهتة.

ذلك أنّ أغلب هؤلاء المفكّرين يؤثّبون نوعًا ما رجال الدّين، ويحتجّون على مغالاة الكنيسة الكاثوليكيّة، ويزعقون ويدعون إلى «سحق السّافل»، ويسخرون من الخرافات الكاثوليكيّة، وهذا صحيح، ولكن باعتدال، واحتشام، لأنّهم يرون في الدّيانة دورًا مفيدًا في قيادة الشّعب - خلق رابط اجتماعيّ كما نقول اليوم... - وإبقائه في العبوديّة التي يفرضها النّظام الملكيّ. حرّيّة الفكر،

والتعبير، الحرّية إزاء العقائد الدنيّة؟ نعم، بالتأكيد، ولكن لطبقة مغلقة صغيرة من الفلاسفة، وصالونات البورجوازيين وعلية القوم. وجان ميليه تشتمّ منه رائحة ريف قويّة في نظر أولئك المفكرين ذوي الصّدرة والدنتيلا.

6

تضخيم الأنوار. لماذا لم تكن كلّ الأنوار راديكاليّة في هذا القرن الثامن عشر؟ الجواب موجود صدفة عند إيّمانويل كانط في الكتاب الآنف ذكره: **إجابة عن السّؤال: ما الأنوار؟** (1784). ففيه يشرح الفيلسوف معنى ذلك المصطلح، ثمّ شروط إمكانيّة، وأخيرًا حدود تطبيقها - التّصوّرات القسريّة الكانطيّة... - في مبدأ وضع حدود فاصلة للعقل يتسّرّ الجواب عن هذا السّؤال.

لنفصّح. نعرف التّعريف الذي وضعه كانط: الأنوار هم خروج الإنسان من أقلّيته، أقلّيّة هو مسؤول عنها. لنفصّح مرّة أخرى، حين يتعلّق الأمر بالإنسان، فجنس الذّكور هو وحده المعنيّ، لأنّ المرأة تعتبر (وهذا تقصير من كانط، إلّا أنّ مفكّر العقل الخالص يرتاح في الغالب إلى تلك المسلّمة، التي هي مسعى فلسفيّ متوسّط...) من حيث الأصل قاصرةً مبدئيًّا: نجد تحت قلمه العبارة المزرية «الجنس الضّعيف». «القاصر» هو من لا يفكّر وله رؤية للعالم بالوكالة. عجزه عن استخدام فهمه بحرّية دون تدخّل طرف آخر، تلك هي المشكلة. ولم يتحمّل الإنسان مسؤوليّة ذلك؟ لأنّه يكفي أن يرغب في تشغيل عقله كي يضع حدًّا للخضوع. "sapere aude"، تلك

صِيغَةُ الْأَنْوَارِ: «تَجَرَّأَ عَلَى اسْتِعْمَالِ فَهْمِكَ الْخَاصِّ». وَالصَّيْغَةُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ هُورَاسِيُوسَ، وَاتَّخَذَهَا غَاسَّندِي⁽¹¹⁾ حِكْمَةً، وَلَكِنْ تِلْكَ هِيَ الضَّرُورَةُ الْحَتْمِيَّةُ لِلْأَنْوَارِ.

يَهْدُبُ كَانِطُ أَقْوَالِهِ: يَتَوَجَّهْ، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، إِلَى الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ التَّفَكِيرَ، أَيْ غَيْرَ النَّسَاءِ، كَمَا أَسْلَفْنَا، وَلَا الزَّنَجِيَّ وَلَا السَّامُويِدِيَّ⁽¹²⁾ بِالتَّأَكِيدِ، لَنْكَنَ جَدَّيْنِ، وَلَا الْمَزَارِعَ وَالْخَادِمَ وَالْعَامِلَ عَلَى الْأَرْجَحِ، وَلَا كُلَّ الْمَوَاطِنِ السَّلْبِيِّينَ. لَا نَخْلُطُ بَيْنَ الْخِرْقِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمُنَادِيلِ الْفَلَسَفِيَّةِ. الْأَنْوَارُ هِيَ رِيْعُ كَهَنُوتِيٍّ لِمَنْ يَسْتَحَقُّ. لَيْسَ الشَّعْبُ الْبَسِيطَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ وَإِنَّمَا النُّخْبَةُ الْمُسْتَنِيرَةُ، الْقَادِرَةُ عَلَى نَشْرِ خَبَرِ سَعِيدٍ مُنِيرٍ.

إِذَنْ، لَيْسَ الْجَمِيعُ، وَلَكِنْ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ أَيْضًا. فَالْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْاسْتِعْمَالِ الْعَامِّ لِلْعَقْلِ وَالْاسْتِعْمَالِ الْخَاصِّ. صَحِيحٌ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْخَوْضُ فِي كُلِّ الْمَجَالَاتِ وَلَكِنْ لَيْسَ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ. بِكُلِّ مَا فِي الْكَلِمَةِ مِنْ مَعْنَى، يَنْبَغِي التَّصَرُّفُ بِنِظَامٍ. مَا هُوَ الْاسْتِعْمَالُ الْعَامُّ؟ هُوَ اسْتِعْمَالُ مَوْجَّهٍ إِلَى الْقُرَّاءِ أَوْ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ الْإِطْلَاعَ عَلَى الْقَوْلِ. وَمَا دَامَ الْفِيلَسُوفُ يَكْتُبُ لِنَظَرَائِهِ أَوْ يَدْرُسُ لِأَشْبَاهِهِ، يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَحْدَّ مِنْ عَقْلِهِ وَيُسْتَخْدِمَهُ اسْتِخْدَامًا حَرًّا.

وَمَا هُوَ الْاسْتِعْمَالُ الْخَاصُّ؟ هُوَ لَيْسَ اسْتِعْمَالًا خَاصًّا بِالْبَيْتِ، وَالْفَضَاءِ الْمَنْزِلِيِّ. الْمَفَارِقَةُ أَنَّهُ كَمَا لَا يَعْنِي الْاسْتِعْمَالُ الْعَامُّ اسْتِعْمَالًا مُفْتَوِّحًا مَوْجَّهًا إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْاسْتِعْمَالَ الْخَاصَّ لَا يَخْصُّ

(11) Pierre Gassendi (1592-1655): فيلسوف وعالم دين ورياضيات وفلك فرنسي.

يُلَقَّبُ بِكَاهِنِ دِيْنِيّ Digne القانوني.

(12) Samoyède : جنس كلاب من روسيا الأوروبية وسيبيريا الغربية.

الطَّوْيَّة. إذا شغل المرء منصبًا مدنيًا، فإنَّه لا يستطيع أن يستعمل فهمه بحريَّة، اعتبارًا لمصلحة المجموعة... مثلاً: ينبغي لضابط الشرطة أن يطيع لا أن يُعمل عقله؛ وللمواطن أن يدفع ضرائبه لا أن يرفض؛ وللكاهن أن يدافع عن عقائد كنيسته لا عن فكره الخاص. حتَّى وإن اعتبر الضَّابط الأمر غير عادل، ودافعُ الضرائب ورقته جائزة، والكاهنُ خرافات مشغَّله الفاتيكانِ حمقاء، فعلى جميعهم الخضوع. نحفظ إذن بحريَّة التعبير عما نريد (وهل يكون الأمر خلاف ذلك؟) ولكن ينبغي لنا أن نخضع للدولة والأمة والمجموعة والقوانين والنظام بلا اعتراض. بوسعنا أن نتمرد كما نشاء نظريًا، ولكن في الواقع ينبغي الامتثال لقانون العالم. تلك أنوار شديدة الارتجاف...

كانط، المؤمن بتقدّم البشريَّة وزيادة تسجيل العقل في التاريخ، يثق في المستقبل. فالدَّعوة إلى فصل الفكر عن الوصاية السياسيَّة والدينيَّة هي خطوة إلى الأمام. وباقي الطريق سيتمَّ على نحو طبيعيٍّ... مع كانط والكانطيِّين، صارت فكرة الثورة الفرنسيَّة ممكنة، ولكن معهم هم، هم وحدهم، واقع 1789 لن يحدث! فالأنوار، في الحالة الكانطيَّة، تظلّ مسألة صالونات عليّة القوم أو دروسًا جامعيَّة. ماذا يهمنّا أن يمارس صالون مدام دو ديفان أو طلبة أستاذ كونيغسبرغ فكرهم بحريَّة في نادٍ خاصّ، فيما يجد الشارع نفسه معزولاً عن الأفكار الجديدة؟

أمّا غلاة الأنوار فهم لا يعترفون بتلك القطيعة بين استعمال عامّ واستعمال خاصّ للفهم. وهم لا يراعون دين حاضتهم ولا ملكهم

ويطلقون كلابهم الفلسفية بلا تحفظ على الربّ وأتباعه، والنّباء والإكليروس والدين والملكية وأصحاب النّفوذ. + أولئك الراديكاليّون لا يهدفون إلى عتق الطبقة الفلسفية وحدها مثل طليعة إنسانية مستنيرة، بالوثوق في حركة التّاريخ: إنهم يذهبون أسرع وأبعد، ويمتّنون وضع حدّ للديانة المسيحية ومدينة البشر التي يستلهمونها.

7

التّفكير خفية. أحياناً يستعير فكرُ مرحلةٍ ما مداراتٍ غير مسبوقة أهملها التّاريخ الرّسمي المهيمن. لدينا قرن ثامن عشر فلسفيّ في شكل بطاقة بريدية بشخصيات ذوي برّوكات، من عليّة القوم، معتكفين في صالونات، يتناقشون في فضاء داخليّ على طراز لويس الخامس عشر عن سيرورة العالم، وتقدّم الإنسانيّة، ومملك الخير والسياسة المثاليّة والمتوحّشين الطّيّبين أو عن تطوّرات التّقنية.

روسو في نقاش كبير مع فولتير، كوندورسيه يثرثر مع تورغو، ومدام دو ديفان تشاكس هوراس والبؤل، وغريم يمازح ديدرو، ومونتسكيو يتحدّث عن صنع النّبذ وتجويده مع دالمبير. والأفكار تدور حول نفسها. يخافون، يعيدون خلق كوكب الأرض، ولكن بحيلة، دونما غضب أو تسرّع، في إهاب بنات وبنين حذرين للملكيّة الكاثوليكيّة الفرنسيّة. صالونات ونوادٍ ومقاهٍ يصدر عنها حفيف أفكار جديدة.

والشارع أيضاً. ما الشارع في الفلسفة؟ أفكار السّاعة، وهي أكثر

فظاظة وعنفًا وراديكاليّة، وأقلّ حرصًا على الأناقة والتّحفظ. المخطوطات السّريّة، على طريقتها، تنبئ عن تلك التّيّارات الثّقيلة التي تحرّك القرن. سطح المجتمع الرّاقى التّأليهيّ، الرّوحانيّ، والملكيّ في النّهاية، يتعايش مع القاع الملحد، المادّي، المُتعيّ والثّوريّ بالقوّة.

يبلغ عدد المخطوطات السّريّة نحو مائة مخطوط. طولها يختلف بطبيعة الحال، وكذلك كثافتها وحتّى محتواها. ولكنّا نجد فيها ثيمات متواترة: فكر سبينوزا، مسألة لامادّيّة الرّوح، طبيعة الفرق بين الرّجل والحيوان، أزليّة العالم، وكذلك طبعًا، وبأعداد أوفر، المشاكل المتعلّقة بالمسيحيّة: المعجزات، وسطاء الوحي، سرّ القربان المقدّس، صحّة نصوص الوصايا، معنى رسالة يسوع، أسماء الرّبّ وتعريفه ووجوده وانبعاث الجسد، إلخ. بعض النّصوص التي تتناول الدّين بعامة، أو صيغتها المحمّديّة، تشكّل عددًا من طرق بلوغ إشكاليّة المسيحيّة تلك بصورة غير مباشرة.

تلك النّصوص، التي تُطبع سرًّا، في مطابع مخالفة للقانون، وتوزّع بلا اسم مؤلّف، أو تحتوي على هويّات مزوّرة للتّضليل، ودون ناشر معروف، أو بملاحظات نزويّة، كانت تتنقل تحت المعطف، يبيعها باعة جوالّة سرعان ما يتوارون عن الأنظار فور انتهاء جولتهم. أغلبهم حوكموا وانتهى بهم أمرهم مشروطين بالسيّاط أو محروقين بيد الجلّاد.

لا نكتب إذن بحريّة عن الدّين المسيحيّ ولو بدراسته ومناقشته

وشرحه. التّأليهيّون أنفسهم كانوا موضعاً لذلك القمع، يشهدون إدانة نصوصهم لكونها ليست منبطرة بما يكفي للكاثوليكيّة البابويّة الرومانيّة. وهكذا أدرجت محكمة التّفّيش في الفهرس⁽¹³⁾ كوندياك⁽¹⁴⁾، فولتير، ديدرو، دالمبير، روسو، الموسوعة وكتباً عن التّوراة لا تُحصى عدداً. لا يحتاج المرء إلى الإلحاد كي تنصبّ عليه صواعق عبّاد المسيح! ومن ثمّ لا نتعجّب أن نجد من بينهم كوندورسيه ودولباك، المنكرين صراحةً للرّب.

المخطوط الذي يوزّع سرّاً، والرّسالة المتبادلة في مراسلة وتقرأ خفية أمام جمع ضيق، النّشر المخالف للقانون، النقاش بين أناس يثق بعضهم في بعض، كلّ ذلك يضمن نقص حرّيّة التعبير عن طريق تمرير فكريّ وأيديولوجيّ جذموريّ. الفكر الحرّ يُمارس في الكواليس.

من بين المخطوطات السّريّة، لا نعثر على نصوص تعلن الإلحاد بوضوح. نفس الشّيء في المجال السّياسيّ: لا أحد يعترض حقّاً على الملكيّة، فالجميع يحاولون مراعاتها وإعطاءها شكلاً آخر، ولكنّ مبدأ القوّة الأرضيّة التي يحوزها شخص واحد، كشأن الرّب في ملكوت السّماء، ما يزال يسدّ الأفكار. صحيح أنّ العقد الاجتماعيّ يؤكّد أنّ الجمهوريّة هي خير نظام، ولكنّ لأنّها تحدّد أوّلاً سيادة القانون، بهذا المعنى «الملكيّة أيضاً جمهوريّة» (الكتاب الثّاني، الفصل 6). مع هذا

(13) Index: ثبتّ وضعه الكرسيّ الرّسوليّ أو البابويّ بكتب حرّم مطالعتها.

(14) Étienne Bonnot de Condillac (1714-1780): كاتب وموسوعيّ وفيلسوف وعالم اقتصاد فرنسيّ.

النوع من المواطنين، يمكن للأسرة الملكية أن تنام مرتاحة الخلقاء الباروكيون في القرن السابق: فكر خاص حرّ، ثوريّ عند الاقتضاء، جموح، معاد للأيقونات، في الوجه، أمّا في القفا: فكر عام حذر، محتشم، ملفوف بالاحتراز. من ذلك أيضًا، في نطاق إعادة تدوير الاستقلال الفكريّ، أنّ معظم الفلاسفة المعروفين يعتقدون أنّ الدين يؤدّي دورًا أساسيًا في فرض الإرادة على الدّهماء - التي تُراح عند التفكير في عالم مثاليّ.

النّخبة الفلسفيّة، المحافظة، تستبقي لنفسها حرّيّة التفكير والتّعبير حتّى في المسائل الدّينيّة، ولكنّها لا تنوي إعطاء الشّعب البائس والتّعيس وسائل اعتاقه. لقد شهد 1789 أيضًا ذلك الصّراع الطبقيّ الذي أحدث شرخًا في قلب العالم الفلسفيّ، فقد كان للثّورة الفرنسيّة مكوّنات من البورجوازيّة ومتظاهرون راديكاليّون من الطبقة الشّعبيّة، ومدافعون عن الملكية الخاصّة ومسعودون شيوعيّون، ومزوّقون بالمساحيق حذرون ومتطرّفون محدّدون.

8

جينياولوجيات موت الرّب. عند قراءة المنشورات السّريّة نحسّ بهدوءٍ بقدوم موت الرّب. في تلك الأدبيّات يقع دومًا تناول نفس الأسئلة: هل تقيم أدلّة وجود الرّب الدّليل فعلاً؟ هل تبقى الرّوح بعد الموت، إن كان الجواب بنعم، فبأيّ كيفيّة؟ هل تثبت الرواقيّة⁽¹⁵⁾ أو حرّيّة الاختيار، وهي مسلّمة مسيحيّة، في ضوء التّجربة؟ ألا تقدّم

(15) نسبة إلى الرواق الذي كان يجتمع فيه أتباع زينون (334 ق م - 262 ق م)، والرواقيّة فلسفة تقول إنّ السّعادة في الفضيلة وفي قوّة إرادة الرّوح.

الحتميّة الإوالية والمادّيّة فرضيات ممكنة الحدوث؟ كيف التّعامل مع اختبارات القانون الطّبيعيّ؟ هل صدق بيير بايل⁽¹⁶⁾ حين أكّد وجود ملحد فاضل؟ هل يشترط حكم الشّعب اللّجوء إلى الدّين؟ هل يسمح العلم بالوصول إلى يقينيّات يتعذّر نقضها؟ هل أنّ ديكارت محقّ في تأكيد وجود مادّتين يتعذّر اختزالهما؟ هل تختلف الحيوانات عن البشر إلى هذا الحدّ؟ إن كان الجواب بنعم، فحسب أيّ معيار؟ هل تُحرّر تربية البشر من الحتميّات التّيولوجيّة؟ كان القرن الثّامن عشر غارقاً في تلك التّساؤلات. كلّ الفلاسفة يقدّمون أجوبتهم.

في الرّبع الأوّل من القرن، ساهم أشخاص أهملهم التّقليد الفلسفيّ في ذلك الجدل. سيزار دومارسيه في الفيلسوف، هنري دولانفيليه وكتابه أصل الكائنات والأنواع، نيكولا فريري مؤلّف رسالة من تراسيبول إلى لوكيوس، أندري روبر بيرويل صاحب في أدلّة وجود الرّب، أو المجهول الذي ترك إعادة تأهيل يوردانوس برونوس⁽¹⁷⁾. كانت تلك النّصوص تتنقل وتُخبر وتنشر أفكاراً جديدة: عدم فاعليّة أدلّة تثبت وجود الرّب؛ عدم وجود حرّيّة الاختيار؛ حقيقة الضّرورة؛ جدوى تعديل اتّجاه ديكارت نحو واحديّة إوالية؛ الطّبيعة توفّر للعقل أمثلة؛ إمكانيّة وجود ملحد فاضل، طبعاً؛ الاختلاف في الدّرجة لا في النّوع بين البشر والحيوانات؛ الثّقة في قابليّة البشر للتّعلّم. بتلك التّرسانة المفهوميّة

(16) Pierre Bayle (1706-1647): كاتب وفيلسوف ومعجميّ فرنسيّ.

(17) Jordanus Brunus (1600-1548): فيلسوف من مملكة نابولي، سبق غاسندي وبيكون ولايبنتس وديكارت وهوبز، وكان ثائراً على الكنيسة والملكيّة، يدعو النّاس إلى استعمال العقل والتّفكير بأنفسهم. سجنه محكمة التّفتيش وأعدم في محرقة.

الموروثة في جانب منها عن الخلعاء الباروكيين يلوح موت الربّ في الأفق الفلسفيّ.

إذا استثنينا جان ميليه - وهو راديكاليّ مجدّد في كلّ الميادين، وحامل لكامل إمكانيّات الغلوّ في القرن -، فإنّ أوّل ظهور مكتوب ومنشور لإلحاد جدير بهذا الاسم يرجع عهده إلى 1743. وهو موجود في تأملات في وجود الرّوح ووجود الربّ، نحو عشر صفحات كتبت على الأرجح قبل 1734، ولكنّها نشرت دون ذكر كاتبها في حرّيات جديدة في التفكير بعد ذلك بعشر سنوات. يمكن أن نقرأ فيها، في ما يتعلّق بالأفكار المسبّقة، أنّ «وجود الربّ هو أقدم وأعرق تلك الأفكار المسبّقة». وهي عبارة تجانسيّة إذا قارناها بـ وصيّة (1719-1729) ميليه...

9

فولتير المتعصّب! نلاحظ تقدّم الإلحاد، ولكنّه لم يصبح بعد موضة. والمخطوطات السريّة تثبت ذلك: مخاطر الاضطهاد والأحكام مقلّصة إلى أقصاها بفضل التستر، ومع ذلك لا يُفيض في نكران الربّ نكراناً صريحاً أحد، بل يرسو على سواحل الإلحاد بلطف، يقترب منها، يقصدها، ولكنّ ساعة القتل لم تحن بعد.

لم يكن القرن الثامن عشر ملحدًا بل كان تأليهيًا. وقد بقيت الثورة الفرنسيّة على عتبة ممكناتها لأنّها لم تهاجم صراحة المسيحيّة من جذورها. كانت الدّعوة إلى الخروج من النصرانيّة حلقة سرعان ما أقصاها أنصار العقل وعبادتهم للكائن الأسمى، العزيز على روسو

وغيره كثير - بدءاً بروبسبير. في حقيقة الأمر، هم ما زالوا يؤمنون بالملك وبدين حاضنته، ولم يغيّروا سوى الشكل. ديكارت، لم يمت...

قد نبحت عبثاً، في البطاقة البريدية الفلسفية للقرن الثامن عشر، عن ملحدين جهروا بإلحادهم: روسو جَهْرُ القسّ السافوائي بعقيدته، وفولتير المعجم الفلسفي، ومونتسكيو في كلّ الأوقات، وخاصة في أفكار، وكانط مسلّمات العقل الخالص العمليّ - راجع نقد العقل الخالص، نقد العقل العمليّ -، ديدرو الأفكار الفلسفية، وحتى الموسوعة، مع الأب كلود إيفون ومقالته عن «الإلحاد»، كلّهم يؤكّدون وجود الرّبّ...

فولتير أعلن الحرب. في مقالته «الإلحاد» في المعجم، ردّ الاعتبار إلى عدد من الفلاسفة ممّن اتّهموا زوراً بنشر ذلك «المذهب الكريه والمثير». ألوهيّون⁽¹⁸⁾ مسيحيّون وفلاسفة تأليهيّون كانوا يسиров يداً بيد، وفي طليعة الموكب الأب فرنسوا ماري أرويه! ما كان الإغريق والرّومان ولا ميشيل دو لوسيتال أو فانييني أو جوردانو برونو بملحدين - غير أنّ فولتير أخطأ حين تحامل على سينيوزا، وتلك علامة...

الأعمال الكاملة لعجوز فيرني الجليل يعجّ بالجهر بالتأليهية. والمعجم الفلسفيّ يؤكّد: فولتير يؤمن بكائن أسمى، حاكم، منتقم، مُثيب. كلّ شيء واضح. بالمناسبة، من الصّعب أن نفهم كيف عدّ

(18) الألوهي Théiste هو من يؤمن بوجود الرّبّ.

هذا الرَّجل منذ قرون رمزًا لعداوة الكنيسة الكاثوليكية التي تدافع عن نفس المواقف بالضبط.

خلافًا لبابل الذي يؤكّد، كما نعلم، أن بإمكان رجل ينكر الرَّب أن يكون على خلق ممتاز، يرى فولتير أن الإلحاد يحظر كلَّ خُلق. من دون الرَّب، لا يعرف النَّاس أيَّ كابح في علاقاتهم مع الآخرين، فالقوانين المدنية لا تكفي لمنع الجرائم أو المرور إلى الفعل الجنائي. الخوف من العقاب بعد الموت هو وحده الذي يتوصّل إلى كبح المنحرفين المحتملين. الأمراء والشعوب في حاجة إلى الرَّب: الأوائِل للحكم، والآخرين للخضوع لذلك الحكم دون تدمر...

10

حرق الموسوعة؟ نجهل في الغالب أن الموسوعة تدافع عن نفس المواقف... هذا الصّرح الكبير في مجال النّشر اعتُبر قدوة الحداثة ورأس حربة ذكاء القرن. بطاقة بريدية أخرى ينبغي تمزيقها هي أيضًا، لأنّ الصّفحات التي خصّصها الأب إيفون للإلحاد تحتوي على سطور عجيبة، وهو دليل على أنّه لم يكن ثمة صواعق ذكاء وعقل رائع في تلك المهمّة.

الأب الموسوعي يمنح الشّريعة لكلّ قاض كي يعاقب المخالف الملحد: نكران العناية الإلهية، التّبشير ضد العقيدة، تدنيس المقدّسات، الحنث باليمين، التّجديف، وحتى إطلاق أحكام خفيفة على أركان العقيدة وأسرارها، كلّ ذلك يستحقّ، حسب مبادئ «قانون الطّبيعية» - الذي يحتمل لدى المسيحيين أشياء لا حصر

لها...-، تأديباً حقيقياً. ويكمل حاكم التفتيش: بإمكاننا، بل يجب علينا، معاقبة الملحدّين، ولنقرأ بعناية، نستطيع حتى «إهلاكهم». هذا إذن واضح وجليّ: الحكم بالإعدام على الملحدّين الذين يعرّضون المجتمع للخطر! ينبغي اتّقاء أولئك الرّعاع والتخلّص منهم. لأجل ذلك، للسياسة الحقّ في اعتبار كلّ من يريد تحطيم البناء الدّينيّ عدوّاً.

نفس الكاهن المبيد حرّر مقالة «روح». بطبيعة الحال هو يدافع عن وجوده اللّامادّي والأزليّ، حسب المبادئ الأكثر أرثودوكسيّة للدّيانة التي تدفع أجره. لماذا إذن تعهد هيئة تحرير الموسوعة، ولنسمّها كذلك، أي ديدرو ودالمبير في المقام الأول، تحرير مقالة «ربّ» أيضاً لذلك المتدثّر بالثوب الكهنوتيّ؟ في حين أنّ دولباك، البارون الملحد، المساهم هو أيضاً في المجلّدات السّبعة عشر، أسندت إليه أكثر من أربعمئة مذكرة لا محالة، ولكنها تتعلّق كلّها بالكيمياء والعلوم الطّبيعيّة والجيولوجيا وعلم المعادن! فلم لم تترك «جبال» و«طبقات» و«حقول جليد» و«أحافير» للأب إيفون، و«ربّ» و«الحاد» لصاحب النّصرانية مكشوفة!

11

ما معنى فكر راديكاليّ؟ لم يكن ذلك القرن الثّامن عشر إذن سوى تأليه، معادٍ للملحدّين، محافظ، بورجوازيّ، ملكيّ؟ أم أنّه يحتوي أيضاً على نفر من الفلاسفة سيّئ السّمعة نوعاً ما؟ فعلاً، فعلى قفا البطاقة البريديّة للتّأريخ الرّسميّ المهيمن، نجد لحسن الحظّ مفكّرين

معرّضين للشّق، يحتفون بلا نظام بشهوة حسيّة غير محرّمة، ويعلنون موت الرّب، ويمارسون شياع الأراضى، ويدعون إلى خنق البورجوازيين بأمعاء الكهنة، ويحتفلون بالمجون الفلسفيّ الجماعيّ والفسق، ويحثّون على التّفلسف لأجل الفقراء والشّعـب، ويؤمنون بإمكانية تغيير العالم، ويعلمون أخلاق فلسفة السّعادة⁽¹⁹⁾ أو مذهب المتعة، ويعولون على عدالة البشر.

أولئك أسميهم غلاة الأنوار، لأنّهم يجسّدون فكرًا راديكاليًا. ولكن ما معنى فكر راديكاليّ؟ لنأخذ ببساطة التعريف الذي وضعه ماركس في مساهمة في نقد فلسفة القانون عند هيغل: أن يكون المرء راديكاليًا هو أن يأخذ الأشياء من جذورها. أين توجد الجذور؟ هي كثيرة في القرن الذي يُنسب إلى فولتير، ولكنّ المسيحيّة والملكيّة تبدوان أهمّها.

الغلاة في واقع الأمر يشكّلون مشهدًا فكريًا وفلسفيًا جديدًا. صحيح أن كلّ واحد يمثل جزءًا ضئيلاً من ذلك العالم الجديد، أو جزأين أو ثلاثة وأكثر مع جان ميليه الذي يحتويها كلّها. أربع قارّات جديدة راديكاليًا برزت في تلك الفترة التي شهدت هزّات أرضيّة قويّة تميّزت بحركات هائلة للصّفائح التكتونيّة: الإلحاد، الماديّة، المتعيّة والثّورة. وجدت طبعًا في تاريخ الأفكار عمليّات مماثلة، فتلك القوة المثاليّة لا تنشأ من فراغ، ولكنّ حداثتها تجد هنا صيغتها لأوّل مرّة.

(19) Eudémonisme: مذهب فلسفيّ يقول إنّ السّعادة هي غاية الإنسان في الحياة.

أولاً: الإلحاد. لا يقترح الغلاة تهذيب أسماء الرّب؛ والمجادلة حول إله الفلاسفة واختلافاته مع إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ هم لا يتحذلقون لمقارنة مزايا التّأليهيّة والألوهيّة؛ ولا يُلبسون الشّيخ الملتحي في الوصايا العشر إهاب كائن أسمى؛ ولا يجمّلون، كما فعل كانط في الدّين في حدود مجرّد العقل، التّبشير المسيحيّ، الاستعلائيّ بغير وضوح، والذي أعيد تأهيله بمفردات أهل الصّناعة الفلسفيّة؛ ولا ينادون أيضًا بديانة طبيعيّة.

الغلاة يعبّرون بوضوح: الدّين؟ معتقد باطل. الرّب؟ خيال. المسيحيّة؟ خرافة. الاستعمال الصّحيح للعقل يسمح بتفكيك المسيحيّة وتوابعها الأيديولوجيّة: الخطأ، الذّنْب، كره النّساء، والجسد، والشّهوات، والمتع، والجنس، وازدراء الدّنيا، والاحتفاء بالآخرة وغريزة الموت. ظهور المثوليّة الرّاديكاليّة. العالم لا يرجع بالنّظر إلى عناية إلهيّة وإنّما إلى تنظيم أسباب يمكن إرجاعها إلى سياقات مادّيّة. ومن ثمّ:

ثانيًا: المادّيّة. كلّ شيء في الواقع يُردّ إلى ميكانيكا الذّرات. ابتكرت المرحلة مادّيّة فرنسيّة غير مسبوقة ومستقلّة عن الفيزياء الدّيموقريطوسيّة أو الأبيقوريّة. لا تهتمّ كثيرًا بلوكريشيوس وكتابه في طبيعة الأشياء بل تجرّب علميًا ملاحظة العالم. الموسوعة ترقّم وتفصّل المعارف - الكيمياء، الجيولوجيا، علم النّبات، الطّب، علم وصف الكون وتكوينه، علم المعادن، علم الحيوان، علم وصف المياه، علم البصريّات، إلخ. - التي ترجع بالنّظر إلى علوم الطّبيعة،

ورشة تلك المنهجية الجديدة التي تدير ظهرها راديكاليًا للميتافيزيقا في نوع من الفلسفة الوضعية قبل الأوان.

والنتيجة أن حرية الاختيار صارت لدى الغلاة كما هي في الواقع: شيئًا متخيلاً. وليس غريباً أن يجعل كانط، المسيحي القدوة المسترّ بإهاب الفلسفة، من الحرية - مع الربّ وخلود الروح! - إحدى مسلّماته الثلاث عن العقل الخالص العمليّ. المسيحية تحتاج إلى أن تضع الإنسان الحرّ لتبرير ميثولوجياها عن الخطيئة الأصلية التي نجم عنها علمها عن الآخرة ونظريّتها عن الخطأ والعقاب، والإثم والتكفير. المسؤولية؟ هي أيضاً شيء متخيّل =. كيف يمكن أن نكون مسؤولين عمّا لا نستطيع أن نكون، ما دامت الضرورة المادية تتحكّم في كلّ شيء، كوناً وفرداً؟ ظهور عالم في ما وراء الأخلاق - ضدّ أخلاق في ما وراء العالم. ينبغي على الطبيعة أن توفر النموذج الواجب اتّباعه. ومن ثمّ:

ثالثاً: المتعة. ما دام الربّ لا يحكم، وكلّ شيء يطيع الطبيعة، فلنحاول أن نتلقّى منها دروساً، ولننظر إليها، ولنتفحصها، ولنرّ ماذا تقول لنا كي نعلم. الحيوانات تُظهر ذلك، والأطفال أيضاً: المتعة والألم هما الحركتان الطبيعيتان اللتان تقودان فعلنا. لذلك، لنعدّل أنفسنا على تلك البوصلة ولنحاول أن نرغب في ما يريدنا: لنحبّ المتعة التي نذهب إليها، ولنبغض الألم الذي نتجنّب بطبعنا.

المثل الأعلى المتزهد المسيحيّ جنون. كيف يمكن أن نرغب في ما يدمّرنا ونرفض ما يفرحنا؟ الغلاة يحتفون بالجسد الحقيقيّ،

الشّهوانيّ، ضدّ الجسد الشّيزوفرينيّ لدى أفلاطون. هم يردّون الاعتبار للرّغبات والشّغف والمتع والغرائز والشّبق والفرح والسّعادة. الجسد وقد أضحى آلة - ولم يعد هاوية - يتغذّى بالطّاقة المبتهجة: فلنُعطِه دون عُقد. من متعة ميليه المعتدلة إلى الفجور المطلق لدى ساد، مرورًا باستعمال راقٍ للشّهوة الحسيّة لدى هلفتيوس، يبدو سلّم المتع واسعًا. ظهور أخلاق سعادة هنا والآن. ومن ثمّ:

رابعًا: الثّورة. كانت الثّورة موجودة في ما سبق: نكران الرّبّ والعالم المائل في طبيعة أخرى؛ نفي الأفكار المحضة لصالح عالم مادّيّ؛ نفي المثل الأعلى الزّهديّ لصالح عالم متعيّ، تلك مادّة لثورات حقيقيّة متساوقة، ثورات ميتافيزيقيّة وأونطولوجيّة وفكريّة وأيديولوجيّة وفلسفيّة. ولكن يبقى عالم آخر لا بدّ من تثوريه: إنّه عالم السّياسة - لأجل عالم عادل.

المرحلة إقطاعيّة، ملكيّة، كاثوليكيّة. عدّة فلاسفة دعوا إلى التّسامح والليبراليّة والحرّيّة، لا محالة، ولكن كم عدد من اصطفّ خلف راية الملوك، والأقوياء، والأرستقراطيّين - حماهم في أغلب الأوقات -، سوى هذا المستبدّ أو ذلك من المستنيرين المزعومين؟ هذا الجمع الصّغير الباحث عن ريع كنسيّ ومعاشات ملكيّة يدافع عن الملكيّة الخاصّة، وحرّيّة التّجارة، ونفوذ أناس من السّلالة الملكيّة. قلة تهتمّ بالبؤس، المنتشر في تلك الفترة.

باستثناء بعضهم. ميليه، هو مرّة أخرى، ابتكر الملكيّة المشتركة

للأمتعة والأراضي - كان يأمل في التّاركيّة⁽²⁰⁾ ويتمنّى تدويلها. آخرون اقترحوا الشّيوعيّة، وتوزيعًا آخر للثروة. إتيان غابريال موريلّي⁽²¹⁾ في قانون الطّبيعة (1755) مثلاً. كذلك ساد، الذي يُعرف بأدبه الفاجر أكثر ممّا يُعرف بمواقفه السّياسيّة الطّوباويّة بمملكة بوتّا وجزيرة تاموي في رواية ألين وفالكور، فهو أيضًا يقدّم مجموعة بشريّة بديلة.

المثوليّة، الأرض، الحياة الدّنيا - الإلحاد؛ المادّة، العلم، العالم الحسّي، الكون المرئيّ - المادّيّة؛ السّعادة، السّبق، المتعة، الشّهوة الجنسيّة - المتعيّة؛ الصّالح العامّ، التّشاركيّة، الشّيوعيّة، الاشتراكيّة - الثّورة؛ تلك هي الموادّ التي أنشأ بها غلاة الأنوار بنيانهم.

أسماء أولئك المساهمين؟ جان ميليه، راهب ملحد وأناركيّ؛ لا ميتري، طبيب فيلسوف، نصير تراجيديّ لفنّ الانتشاء الجنسيّ؛ هلفتيوس، جابي ضرائب مولع بالعدالة الاجتماعيّة؛ دولباك، بارون مادّي مدافع عن الإيتوقراطيّة⁽²²⁾؛ ساد، ماركيز هائج. خماسيّ جهنميّ يلتقي حول أفكار تزفر بعنف رائحة الكبريت.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(20) Communautarisme: تشاركيّة محلّيّة.

(21) Étienne-Gabriel Morelly (1717-1782) فيلسوف فرنسيّ.

(22) Ethocratie: الحكومة الفاضلة.

الزّمن الأول

المادّيّون الرّاديكاليّون

(I)

جان ميلييه

و«الميل اللطيف إلى الطبيعة»

1

عن رجل يدعى جان ميلييه. كيف نستغرب ألا يعطي التاريخ الرسمي أي مكانة لكاهن ملحد في عهد لويس الرابع عشر، كان فوق ذلك ثوريًا شيوعيًا ودولانيًا⁽²³⁾، مادّيًا صرفًا، متعيا متأصلاً، غضوبًا مشهو

دًا له، انتقاميًا، لاعنًا مناهضًا للتصراية، ولكنه بالخصوص فيلسوف بأتم ما في الكلمة من نبل ومعنى، يقترح رؤية شاملة للعالم، منسجمة، مبنية، أحسن الدفاع عنها خطوة بخطوة أمام محكمة العقل الغربي التي لا تعرف المجاملة؟

كان جان ميلييه يختزل تحت ثوب خورني كل الديناميت الذي يلغم القرن الثامن عشر. هذا الكاهن الذي لا وجه له ولا شاهدة قبر قدم الترسانة المفهومية للأنوار في جانبها الراديكالي، جانب الغلاة الذي كرعوا كلهم من منهل، وتظاهروا، براءة، جهل حتى اسمه، بالرغم

(23) Internationaliste: نصير الدولانية، وهو مذهب يدعو إلى تجاوز حدود الدول وإقامة اتحاد بين الشعوب والأمم.

من أن عددًا من أطروحاته حاز عنها منتحلوها شهرة مجددین
مغتصبة. فالمراجع المسكوت عنها تمنع المراجع الواجبة.

آثاره؟ كتاب واحد، ولكن أيّ كتاب! مصنف ضخم من أكثر من
ألف صفحة مخطوطة نسخت بريشة إوزة في ضوء نيران موقد
وشموع بيت كاهن في مقاطعة الأردن، بين القرن الكبير المزعوم
والقرن الموالي الموسوم بقرن الأنوار، الذي دعم، من خلال
الاستعمال المتواتر للكلمة، المصير المحدد للقرن الثامن عشر. كتاب
أصيل، لم ينشر قطّ في حياة مؤلفه، وأغلب الظنّ ألا أحد غيره قرأه.
كتاب تمّ تشويبه ونهبه وتحريفه وبتره بعد موت صاحبه. كتاب
ملعون لمؤلف ملعون؛ كتاب عبقری لمفكر عبقری...

ولد جان ميليه في 15 يناير 1664 بهازرني، في مقاطعة الأردن.
كان أبوه ميسورًا نوعًا ما: تربية المواشي في بعض الأراضي وصناعة
النسيج في مقرّ إقامته. في العام نفسه، أقام لويس الرابع عشر أفراحًا
في قصر فرساي وحدائقه. أفراح مدهشة فخيمة، إنفاق باذخ، تعاظم
ملكی، استعراض أوروبی للقوة والغرور. هناك عرض مولير
الفصول الثلاثة الأولى من مسرحية مدّعي الورع.

في سنة 1678، علّمه أحدُ كهنة الجوار اللاتينية، وباتفاق مع
والديه، عقد العزم على نقل الطفل إلى مدرسة إكليريكية كي يرتدي
الثوب الخوريّ في يوم ما. زاول ميليه التعليم المناسب، دون شغف
كبير، ودون أن يرتبط بزملائه، إذ وجد ميلاً حقيقياً إلى قراءة
ديكارت. بلا مفاجأة، ترقّى درجات السلم الكهنوتيّ: شماس

رسائليّ في 29 مارس 1687، شماس إنجيليّ في 10 أبريل 1688،
قسّ في الأرياف، ثمّ خوريّ يوم 7 يناير 1689 في إترينيبي
بالأردن، حيث قضى أربعين سنة من وظيفته الخورنيّة في تلك القرية
التي تعدّ مائة وخمسة وستين ساكنًا.

كان رؤساؤه يسندون إليه درجات جيّدة..، إذ كان يؤدّي مهامّه كما
ينبغي، دون إفراط، ودون أن يتميّز عن هذا أو ذاك بسلوك غير
متوقّع: غالبًا ما لا يشترط مقابلًا عن حفل زفاف أم مآتم؛ في نهاية
السّنة، وبعد أن يدقّق حساباته، يوزّع فائض دخله على فقراء القرية.
كان يعيش في ما يبدو عيشة كفاية من مداخيل كنيستين خورنيتين،
وإيجار قطعة أرض.

انخرط في الحياة المحليّة، ولكن دون شطط: كان يحبّ رعيّته، أبناء
الشعب، والمزارعين البسطاء والعمّال الذين يشقيهم العمل، ولكن
دون استعراض مفرط. وكان إلى جانب مهامّه الخورنيّة، يتأمّل
ويفكّر ويكتب ويشغل على مصنّفه الكبير ويقضي معظم أوقاته في
معاشرة كبار قدماء مكتبته: مونتاني، الذي يستشهد به في الغالب
بإسهاب، فانيني، لا برويير، لا بويسي وسواهم ممّن لهم تأثير كبير،
ولكنّه يخالط أيضًا مفكّرين آخرين محدّثين كان يناوشهم في المقام
الأوّل: فينيلون، باسكال، مالبران. بطبيعة الحال، كان يستند أيضًا
إلى رصيد قديم كلاسيكيّ: سينيكا، تاسيتوس، تيتوس ليفوس،
فلافيوس جوزيفوس. ثمّ الكتب الخاصّة بوظيفته: التّوراة،

الباترولوجيا اللاتينية لجاك بول ميني⁽²⁴⁾، وتقارير المجامع الدينية...

2

كاهن ملحد. لا تبدو سيرته لامعة: فلا هو راهب بلاط، ولا انتهازيّ مجالس راقية، ولا مطران صالونات، ولا غاوي ماركيزات، ولا حتّى خوريّ مزوّق يرقص الغافوة⁽²⁵⁾ مع وريثات ذات نسب، إذ لا نعرف عنه سوى رحلة أو اثنتين إلى باريس، قد يكون قابل أثناءهما فولتير أو اسمًا كبيرًا من عصره، ولكن من ذا الذي يعطي بعضًا من وقته لكاهن ملوّث بأحوال ريفه الأردنيّ دون رغبة راستينياك⁽²⁶⁾؟

حياته الزّاهدة في الظّاهر تخالف ضرام باطنه. بركان تحت طبقة سميكة من الجليد. ولكن لاح سعيه في مناسبة أو اثنتين من وجوده، والحدث العارض يقود إلى الجوهر، ففي الحياة الفلسفيّة، لكلّ شيء معنى. هذا الشّيء يبدو هنا وهناك غير منطقيّ؟ في الواقع، هو يعرض أكثر ما هو حميم للضوء، فذلك الكرم إزاء الرّعيّة من مرتادي الكنيسة يشهد بأنّ الرّجل خال من نيّة الكسب، منصرف بكليّته إلى مهمّته الرّوحانيّة، متوجّه نظريًّا إلى الكينونة لا إلى الملكية.

(24) Patrologie: مؤلّفات آباء الكنيسة خلال الألفيّة الأولى، وقد جمعها بين عامي 1844 و1855 التّيلوجيّ الفرنسي جاك بول مينيّ Jacques-Paul Migne (1800-1875).

(25) Gavotte: رقصة تقليديّة فرنسيّة.

(26) Eugène de Rastignac: بطل روايات بلزاك، ويُعدّ مثالًا للوصوليّة.

ثُمَّ أيضًا حكاية أخرى: الكاهن ميلبيه يعيش مع خادمة شابة. هو في الثانية والثلاثين وهي في الثالثة والعشرين. والمجامع الدينية تمنع وظيفة خادم كاهن على النساء اللاتي هنّ دون سن الأربعين، لأنّ الهرمونات تلعب لعبتها! أمره رؤسائه بالتخلّي عنها. فردّ أنّها ابنة أخته... ورفض. نجهل بقية الحكاية، ولكنه عاود الكرّة، على المنوال نفسه: كان في الخامسة والخمسين هذه المرّة، فيما كان عمر خليلته ثماني عشرة سنة. نفس الغضب الأسقيّ، نفس رفض الطّاعة. نزل العقاب: عزلة لمدة شهر في دير بمدينة رانس. كان الكاهن متكتمًا، واضطرّ إلى ممارسة سعادة العلاقة الحرة التعاقدية التي دعا إليها في مؤلّفه.

تلتها مغامرة أخرى، كدلالة على أنّ الكاهن المترفع، القريب من الشعب، والذي لا يرفض سعادة شبيبة في متناوله، يعرف أيضًا التعبير عن نفوره من أهل النبالة. صحيح أنّ مواعظه تتجنب الدفاع الحماسيّ عن الدين أو الهدي النصرانيّ طبقًا للأصول الواجبة... ولكنّ هذا الكاهن المرتاب من الرّبّ يقدّم خرافات طائفته كما يقدّم عالم بالسلالة عادات قبيلة لا ينتمي إليها: «المسيحيّون يقولون إنّ»، «الكاثوليك يعتقدون أنّ»، «أتباع المسيح يؤكّدون أنّ»، ولا يمزج صوته قطّ بجوقة المتزّمتين.

بيد أنّ الخطبة لها صداها - إلى اليوم... -، لأنّ جان ميلبيه خاصم سيّد القرية، أنطوان دو تولّي - لا نعرف اسمه إلّا بفضل هذه الحادثة... - وأساء معاملة المزارعين، فقد رفض أمام الرعايا

المجتمعين تزكية السيّد في صلواته، وأنكر عليه أيضًا البخور والماء المقدّس. أيّ أنّه أعلن الحرب على سيّد الجهة.

ومن الطّبيعيّ أن يشتكي النّيل إلى الأسقيّة التي وقفت كالعادة إلى جانب الدّم الأزرق. فتمّ توبيخ ميليه ووُجّه إليه تنبيه. ولكن لم يفتّ ذلك في عضده، ففي يوم الأحد الموالي، لبّى الأمر بطريقة مخصوصة وطلب من مرتادي الكنيسة أداء الصّلاة المفروضة لا محالة، ولكن لكي ينصّر الرّب السيّد أنطوان وينعم عليه بعدم الإساءة إلى الفقير ونهب اليتيم! لم يتحمّل النّيل الحاضر على مقعد الصّلاة تلك الشّتيمة الجديدة، فعاد إلى مكتب الأسقف. ومن ثمّ، صار ميليه يراكم الدّرجات السيّئة...

لم تُسوّ العلاقات في حياة تولّي، فلمّا توفيّ أوصى ميليه بصلاة المؤمنين على الرّاحل، ولكنه أكّد بمكر ضرورة التّعجيل بالصّلاة عليه حتى يغفر له الرّب ويسمح له بالتّكفير في الآخرة عن تجاوزاته العديدة في الدّنيا تجاه الفقراء واليتامى في قرية إترييني. لقد كان الكاهن عنيدًا...

تبدو النّيّة حسنة: فمناشدة حكم الرّب يمكن أن يجد مبرّرًا له، خاصّة من جانب كاهن، غير أنّ ميليه لم يكن يؤمن بالرّب ولا بالشّيطان، إذ كان يلوّث الدّيانة المسيحيّة، ويضحك كالمجنون من خرافات «أتباع المسيح» و«أتباع الرّب»⁽²⁷⁾، كما يقول، عن الحياة بعد

(27) déicoles و christicoles: عبارتان يستخدمهما استهجانًا مناهضو الدّيانة المسيحيّة أو من لا ينتمون إليها.

الموت، والجنة والنار، ومحاكمة الذنوب، ووزن الأرواح: لأنّ الكاهن ميليه كان ملحدًا، وهو أوّل من أكّد بوضوح وراديكاليّة وجلاء أنّ الرّب لا وجود له، وأنّ الدّين مكر وأنّه لا بدّ من فلسفة ما بعد مسيحيّة.

3

قنبلة فلسفيّة. عندما مات منكود الحظّ ميليه والتحق بنبيل إترينيني، ترك وراءه أثرًا فلسفيًّا يمكن مقارنته، دون مبالغة، بقنبلة. فالوصيّة هي في الواقع قنبلة موقوتة. تمّ ضبطها بدقّة كي تحدث أكثر قدر ممكن من الأضرار في أهداف محدّدة بوضوح: الرّب، الدّيانة الكاثوليكيّة، القساوسة، الرّهبان، المسيح، الأنبياء، الكنيسة، رجال السّلطة من ملوك وأمراء وأباطرة وباباوات وطغاة ونبلّاء، ومختلف الطفيليّات، وأهل المحاكم وسائر الأقوياء في هذا العالم.

ماذا ينقذ هذا الكاهنُ غيرُ الكاثوليكيّ؟ الفقراء والبؤساء والتّابعون والمزارعون والعمّال والمستغلّون والمهانون والمشتومون، وكذلك النّساء والأطفال، دون أن ننسى، وهذا له دلالة، الحيوانات التي تتكبّد قبل سواها شرور البشر. خندقه؟ هو إلى جانب كلّ مخلوق حيّ يُنكر عليه حقّ الوجود أو الحياة بشكل مطمئنّ هادئ.

هذه القنبلة غايتها التّفجير وإلغاء ما سبق. ولا يعني ذلك أنّ ميليه عديميّ. كان يدعو إلى التّدمير لا محالة ولكن بغرض البناء أو إعادة البناء. تلك الإرادة في التّخلّص من العالم القديم، على مسافة ستين عامًا من رجفات الثّورة الفرنسيّة تأتي في لحظة تمهّد لعالم جديد. فكره

الجلديّ - ولو أنّ الجدليّة تضيع غالباً في تعرّجات معرض شديد
البهرجة -، يُدشّن لأوّل مرّة في الغرب تطلّعاً إلى ما بعد المسيحيّة.
أن نفكر ضدّ المسيحيّة، ولكن بعدها خاصّة.

والإلحاد لا يمثّل غاية في حدّ ذاتها بل زمناً أوّل، قاعدة ضروريّة،
إيثيقاً تأسيس. ينطلق ميليه من إنكار الرّبّ لبلوغ أخلاق تهتمّ بذلك
الجسد الفرح، وحيوات مرحة، وعلاقات تتصالح فيها الكائنات
والأجناس. حرصه الإيثيقي ينطوي وينفتح ويتحدّد في سياسة
تشاركيّة، أي أنّ ذلك الكاهن غير النّمطي ابتكر أيضاً الشّيعيّة،
وحتّى الأناركيّة.

يظلّ الكاهن ميليه رجل كتاب واحد، كتاب الوصيّة الشّهير -
العنوان الذي نعرفه به في الواقع هو: مبحث في أفكار ومشاعر جان
ميليه، وإن شئنا الدقّة: مبحث في أفكار ومشاعر ج... م... كا...
إتريي... وبآل... حول جانب من الأخطاء والتّجاوزات في تسيير
البشر وحكمهم حيث نرى دلائل واضحة وقطعيّة على ابتذال
وأباطيل كلّ الآلهة وكلّ الديانات في العالم حتّى تُوجّه إلى مرتادي
كنيستهم بعد موته لتكون شهادة حقّ لهم ولكلّ أمثالهم. في شهادات
أولئك، والأمم. وصار مختزلاً في: الوصيّة...

ترك أيضاً هوامش بخطّ يده حول برهان وجود الرّبّ لفينيلون
(وتُعرف بعنوان ضدّ فينيلون) وحول تأملات في الإلحاد لليسوعيّ
تورنومير، ولكن لا شيء فوق ما يحويه الكتاب الحارق. بيد أنّه حرّر،
إلى جانب مخطوطه الضّخم، رسالة إلى كهنة الجوار. في عشرين

صفحة، يقترح حصيلة ممتازة، لا سيما أنّ صفحات الوصية الألف
تفعل أحياناً فعل خانقٍ مسيحيّ حقّ.

4

مقالات ملحد. ذلك المخطوط كتبه ميليه بيده، بريشة إوزة في
ضوء شمعة واهن، مساء، بعد التزاماته الخورنيّة. ومن باب
الاحتياط، أنجز أربع نسخ حتّى لا تنتهي ثمرة أربعين سنة من
القراءات والتأملات والتّحليل والتبصّر في الموقد حيث قد يلقي به
فيه أحد سكّان الكنيسة سيّئ النية، أو أحد عملاء التّراب الأسقفّي
قبل أن تبرد جثّته.

استلزم إنجاز هذا الكتاب عشر سنين من العمل السّريّ بين
1719 و1729. وكان عمر ميليه بين الخامسة والخمسين والخامسة
والستين، السنّ التي وضع فيها الموت حدّاً لمهمّته. صحيح أنّه وجد
الوقت لإنهائه، ولكنّه لاحظ في تلافيف سرده أنّ الوقت استحثّه،
ويعترف أنّه كتبه على عجل وتسرع. قد يكون مهووساً بالرّغبة
العنيفة في حلّ التناقض الذي يسكنه منذ مدّة: تدريس هراء لا يؤمن
به، الكذب على الناس وتضليلهم، تسويق عوالم أخرى رغم أنّه
يعرف أنّها غير موجودة... يعترف الكاهن بأنّ تلك المزاوجة كانت
تثير اشمئزازه إلى أقصى درجة. ذلك التوتّر الخطير يجد حلّه في الأثر
الذي يسمو به.

ما هي الأسباب التي جعلته لا يكفر في حياته؟ بطريقة عجيبة، كان
ذلك البروميثيوس الذي لا يتورّع، على الورق، عن قتل الرّب

وتدمير الأديان وإشعال النار في كل السّهول الفلسفيّة، ودكّ الحصون السّياسيّة، يذمّ كلّ شيء وكلّ شخص له صلة من قريب أو بعيد بصورة السّلطة، يكشف بفتور عن أسبابه: عد الإساءة إلى أبويه وأهله وأقربائه وأسرته...

ثمّ يضيف في حذر: وكذلك لتجنّب المتاعب التي ترافق استدراكًا علنيًا. فالاضطهاد لدى الكنيسة الكاثوليكيّة لازب والمحرقه سهله. والكاهن، كما كتب بنفسه، يريد «أن يعيش في أمان». ولو على حساب هذه الازدواجيّة التي تصوّر بجلاء منطق الانحلال الخارجيّ الخاضع لقوانين البلاد وعاداتها، والطويّة ذات الحرّيّة المطلقة، الحرّيّة الراديكاليّة، الحرّيّة الشاملة.

ولكنّ ذلك التوتّر لدى متفرّد ضائع في الأردن، دون مؤازرة المجموعة الفلسفيّة التي يمارسها الخلعاء الباروكيّون في الصّالونات الباريسيّة، أنتجت ربّما مشاكل ضمير لا تُطاق، وأوجاعاً نفسيّة لا اسم لها، وعذاباً ذهنيًا، لم تخفّف وطأتها قليلاً سوى كتابة الوصيّة، مثل مجنون يصرخ بالعنف الذي يسكنه ليُقصيه بشكل أفضل.

أن ينجم المخطوط عن رغبة في تجاوز تناقضات نفسانيّة خاصّة لا يقلّل شيئاً من الأطروحات المقترحة، بيد أنّ شكل الأثر يشي بالقوى التي تجمع بالمكتوب والكاتب. على طريقة مونتاني - المذكور في الغالب والمحبوب كثيرًا -، يوجد ميلييه بتمامه وكماله في كتابه: يصنعه، ثمّ يُصنع عن طريقه، فهو مادّة أثره، يسكب فيه اعترافاته، ويصوغه وهو يُنطقه في صمت. الوصيّة؟ هي مقالات ملحد.

مات الكاهن الذي لا ربّ له يوم 28 أو 29 يونيو 1729. وقد أزعجت الجثة بطبيعة الحال الهيئة الكاثوليكية مذفّضت الرّسائل واطّلت على محتوى تلك الحزم الضّخمة من الأوراق المسوّدة. وارته الكنيسة، وهي تتقن ذلك، ودفتته في حديقة الدّير. لا قبر، لا شاهدة، لا علامة مميّزة. لا حاجة لأن يوجد اسم المرتدّ في سجلّ الكاثوليكية – محبة القريب والصّفح عن الخطايا لهما حدود...

في مؤلّفه الأهمّ، يتصوّر ميليه مصيره بعد موته. بانسجام مع نفسه، يعرف أنّ الوعي في تلك الحال تصبح لاغية مع مادّة الدّماغ. ومن ثمّ يصبح كلّ ألم مستحيلًا. لا شيء ينتظر الميت سوى التّحلّل. على طريقة ديوجينيس، يؤكّد أنّه يمكن أن يفعلوا بحثه ما يشاؤون: أكلها، طبخها، قليها، سلقها، صليها، لا يهمّ. صحيح أنّه لم يكن يتخيّل أنّ حديقة الدّير سوف تُلحق ذات يوم بملكية الإقطاعي! ميليه يرقد اليوم، دون أن نعرف أين، في أرض ذريّة أنطوان! ولكن ما كان هذا ولا سواه ليُغضبه!

5

معمار روكوكو⁽²⁸⁾. يقترح كتاب الوصيّة ثمانية أدلّة يفصّل الكاتب القول فيها في سبعة وتسعين فصلاً مختلفة الطّول متباينة التّرتيب. التّركيب لا يبدو واضحًا تمامًا؛ البناء متعذّر؛ والمعمار الدّاخلي لا يظهر لأوّل وهلة – ولا لثاني وهلة؛ الأجزاء متراكبة، والمواضيع متداخلة. ولا يعني ذلك غياب الوضوح، فالنّصّ ليس معقّدًا حتّى

(28) Rococo: أسلوب معماريّ شاع في عهد لويس الخامس عشر، تميّز بالهرج والخطوط الملتوية.

في الفترات الأكثر عسراً، المخصصة للأونطولوجيا المادية، ولكن الجوهر يزول تحت الثانوي. فالفكر يتخفى خلف بسطها.

تنتمي الوصية إلى السّمعيّات الفلسفيّة، على غرار مقالات مونتاني: قد يكون المؤلّف أُملي على ناسخ واسع الصّدر شريك. فأن تقرأ ميليه معناه أن تسمع لعناته تنزل من كرسيّ دعا إليه بعد موته كلّ مرتادي كنيسته. الملفوظ يشبه خطبة لاهبة، فيليبيّة⁽²⁹⁾ متأجّجة، مونولوجاً بلا نهاية، خطبة مسهبة لا يوقفها شيء لشدة الغضب الذي يجمع بذلك المنطق الدّعائيّ التّقويّ.

وكما هو الشّأن في كلّ مناجاة ذاتيّة، يسيطر التّكرار، ويكثر الإطناب. كان ميليه يتحدّث وهو يكتب وينتشي، فيعيد استعمال كلمات، ولكنه يكرّر تعابير بحالها. ينسخ بعض الجمل أو بعض الدّلائل. ما لا ينقطع ذكره هو اللّعن، أمّا التّنويّعات فتتطابق أحياناً. والكلّ يتجلّى في شكل معلم محاريّ حيث يختلط الضّروريّ والعديم الجدوى في تشابكات غريبة.

صحيح أن وظيفة الكتاب المطهّرة تفسّر طبيعته القائمة على خلط الأفكار. ولكنّ الفوضى لا تخصّ سوى عرض الأفكار والبناء والهيكل - الشّكل. وليس المضمون. فلا وجود لغموض أو عبارات مولّدة، ولا ميل إلى الأفكار الضّبابيّة العزيزة على القطاع الفلسفيّ. فالريشة تذهب مباشرة إلى الهدف. فلا رصيد متبقّى من

(29) Philippiques: الفليبيّات هي مجموعة خطب ديموستينس (384 ق.م. - 322 ق.م.) ضدّ فيليب المقدوني.

السَّكُولائيَّة⁽³⁰⁾، ولا مجال للغة الطَّبقة الفلسفيَّة المنغلقة أو شريكها، الطَّائفة الدِّينيَّة. كان ميليه يندفع، يتعجَّل، يسرع، يتصرَّف في هيئة رجل مستعجل، وفيلسوف يعرف أنَّ الموت يمكن أن يمنعه من إتمام عمله الجليل.

غير أنَّ منطق الكتابة المطهَّر لا يفسِّر وحده نسق البناء. لنضع في الحسبان أيضًا روح العصر. صحيح أنَّ الوصيَّة تنتمي إلى الأسلوب المحاربي، ولكن بما تحويه العبارة من معنيين: المعنى المثقل، المزدحم، الكثيف، الغزير -، وكذلك أيضًا المعنى الجماليّ المتعلّق بالسَّنوات الأولى من القرن الثامن عشر الفرنسيّ. الفلسفة ليست بمنأى عن لون العصر، والكتاب، حتّى وإن كان جدليًّا، يخضع إلى نفس القوانين التي يخضع لها كلّ عمل فنيّ آخر.

ماذا يقول تاريخ الفنّ؟ الرّوكوكو يتميَّز بالّغزارة الزّخرفيّة، والخطوط المنكسرة والتموّجة، وتفاعل المنحنيات وأضدادها، والوفرة، وعدم التّناظر وغياب التّماثل، والمادّة الممطّطة، المليّنة، وحضور الحجر المستعمل مع المحار والصّدف، الذي يمنح الأسلوب اسمه، ولكن أيضًا ورق الھندباء والعارشات وشرائط الزّخرفة... كلّ ذلك يتطابق مع شكل الأثر. وعلى غرار مقالات مونتاني (الباروكيّة) التي تعتمد على «القفزات» و«النّطّات»، نجمت وصيَّة ميليه عن رقصة ديونيسيّة مماثلة. أبولوّ لا يظهر فيه - في

(30) Scolastique: نسبة إلى سكولا، المدارس الفلسفيّة في العصر الوسيط، حيث ساد تدريس فلسفة أرسطو.

الأسلوب على الأقل.

لِنَتَقَدَّم قَلِيلًا وَلِنَحَاوُلْ تَحْدِيدَ المَعْمَارِ الرُّوكُوكُو أَعْبَدَ مِنْ جَرْدِهِ البَسِيطِ. فِي الهندسة المعماريّة، تقع موتيفات الأسلوب المحاريّ في مواضع المرور: فتحات النوافذ، وصلات الأقواس، الانتقال بين الجدران وعقد القباب. أي أنّ العناصر المقصودة حسب مثال معيّن والالتواءات التي تتلاقى وتتصافر، تحو مفاصل المبنى. كذلك شأن الكتاب الضخم للكاهن: فالاستشهادات والمراجع والتكرار والموتيفات المتواترة تغطّي مراحل الاستدلال في جيشان يعطل تنامي الفكرة.

صحيح أنّ الأدلّة الثمانيّة يمكن تلخيص كلّ واحدة منها في جملة واضحة، ولكن غالبًا ما يترك الرأى القبليّ طعم الساق الأساسيّة جانبًا. لنحاول على أيّ حال. أوّل «دليل على ابتذال الأديان وأباطيلها»: تناقضها؛ الدليل الثّاني: الإيمان - «التّصديق الأعمى» يتناقض مع الأنوار الطّبيعيّة للعقل؛ الدليل الثّالث: رؤى الأنبياء مسألة مجانيّن؛ الدليل الرّابع: النبوءات لا تتحقّق أبدًا؛ الدليل الخامس: الأخلاق المسيحيّة تناقض كلّ ما تُعلّمه الطّبيعة؛ الدليل السّادس: الدّيانة المسيحيّة متواطئة مع الاستبداد السّياسيّ؛ الدليل السّابع: الإلحاد فكرة قديمة قدم العالم؛ والدليل الثّامن: الرّوح فانية، فكرة أقدم من الفكرة السّابقة.

ولكن، بطبيعة الحال، كلّ دليل يحتوي أحيانًا على خلاصة عن هذا الدليل أو ذاك، وحتى عن مقاطع يعاد استعمالها حرفيًا من دليل

سابق. حتّى أنّنا نعيد أحياناً قراءة صفحات كاملة. بطريقة تكاد تكون متقطّعة، كلّ شيء يحتوي على كلّ شيء وتحرير لحظة ما يستعيد تحرير المجموع الذي يحتوي عليه. كتاب الوصيّة هو أثر مغلق يشتغل حول نفسه، لأنّه يطرح وينظر رؤية للعالم منسجمة ونسقيّة – بالرّغم من فوضاء الشكليّة الظاهرة.

6

كروش كهنة، أمعاء نبلاء. هذا الشكل الروكوكو يحتوي على درر. الجوهر يفترض أن يكون للمرء قدر من الصبر للبحث عن تلك الدرر عبر القراءة المتأنية الصّارمة الحازمة. في هذا القصر ذي الغرف المتعدّدة التي غالباً ما نتيه فيها عند قراءة أولى، يوجد مشروع مقروء: إيثيقا السّعادة ووسائلها: سياسة المجموعة. يبتكر ميليه ويقترح متعيّة اجتماعيّة، ويعطي مشروع الابتهاج الذي ظلّ على الدوام فردياً – لتذكّر أبيقور أو مونتاني – بعداً مشتركاً، وهذا يحصل لأوّل مرّة في التّاريخ.

غالباً ما نجهل أنّ ثمة جملة كان لها ساعة مجدها على جدران الحيّ اللاتينيّ في مايو 68⁽³¹⁾، بالرّغم من تحويلها في روح العصر، مستوحاةً من الوصيّة. فعلى أحد جدران السّوربون، تعلن كتابة بالبّخاخة: عندما يُحنَق آخر عالم اجتماع بأمعاء آخر بيروقراطيّ، هل تبقى لنا مشاكل؟ ذلك الشابّ صاحب الكتابة الجداريّة كان يعرف

(31) مايو 1968 : مايو – يونيو 1968 هي الفترة التي شهدت مظاهرات عارمة في باريس ثمّ في المدن الفرنسيّة الأخرى، كما شهدت إضراباً عامّاً شلّ كلّ المؤسسات الحكوميّة والإداريّة، وكان منطلقاً لإصلاحات كبرى في شتى الميادين.

ميلييه، إذ نقلَ كلام رجل من الشعب كان يتمنى أن «يُخنق كلّ كبار الأرض وكلّ النبلاء بأمعاء الكهنة»... فاللّا عن يستشهد لا محالة ولكنه يعطي أيضًا موافقته.

الكاهن الأحمر يظلّ في هذا السّجلّ من الغضب المقدّس والاستنكار الدائم، ويتأسّف مثلاً على عدم امتلاك ذراعي هرقل ذواتي العضلات المقتولة - هرقل نموذج الكليّين الإغريق... -، وهراوته وقوّته وشجاعته كي يهوي بها على رؤوس الملوك والطّغاة والقساوسة - كهنة الأخطاء والجور - وكلّ مستغلي شعوب الأرض الذين ينتجون الحيف الاجتماعي. «تطهير العالم من الرّذائل» ذلك كان مشروعه. ثورة 1789 سوف تجسّد مقصده، بالمصير الذي نعرف...

إيثيقا السّعادة تفترض عملَ تدميرٍ مسبّقاً للمسيحيّة. قبل الثّورة الثّقافيّة للعام II⁽³²⁾ وهياج الهيبرتيّين⁽³³⁾ المقدّس جدّاً، كان ميلييه قد شرع في عمليّة الخروج من النّصرانيّة في مجال الأفكار، حيث بدأ يشنّ حرباً شاملة على علم اللاهوت المسيحيّ، والأخلاق الكاثوليكيّة، وكذلك ضدّ الفلسفة الديكارتية التي يرى جيّدًا تواطؤها مع أتباع المسيح...

وبعد أن أحرق السّفن المسيحيّة، أعاد بناء أسطول جديد: ومن ثمّ كانت الأونطولوجيا المادّيّة وأخلاق السّعادة، والفلسفة ما بعد

(32) العام II في تقويم الجمهوريّة، الموافق لعامي 1793 و1794 في التقويم الغريغوري.

(33) Hébertistes: نسبة إلى جاك رونييه هيبيرت (1757-1794) أحد أسياد كومونة باريس.

النَّصْرَانِيَّةُ، التي أعطَها كُلُّها بعدًا براغماتيًّا بوضع سياسة هي أيضًا افتتاحية: بعد الإلحاد، ابتكر الكاهن ميليه من جملة ألف ابتكار، الصِّراع الطبقيّ، والشُّيوعيَّة، والأناركيَّة، والثَّورة العالميَّة، والعصيان الجماعيّ، والمصلحة العامَّة. لن يبقى للمؤمنين بالثَّورة الفرنسيَّة إلَّا الانحناء لالتقاط أزهار الوصيَّة الحمراء والسَّوداء.

7

النَّار على أتباع المسيح وأتباع الرّب! الكاهن ميليه اقترح أوّل فكر إلحاديّ في التَّاريخ الغربيّ. غالبًا ما نعدّ إلحادًا ما ليس كذلك. بروتاغوراس استخلص أنّه لا يمكن أن نقول عن الآلهة أيّ شيء، لا هم موجودون، ولا غير موجودين؟ وهذا غنوصيّ وليس ملحدًا. أبيقور، لوكريسيوس والأبيقوريّون يقولون بآلهة متعدّدة، مشكّلين بكيفيّة دقيقة، موجودين فيما بين العوالم؟ هذا مذهب تعدّد الآلهة وليس إلحادًا. سبينوزا يؤكّد تطابق الرّب مع الطَّبيعة، وكذلك جوليو شيزاري فانيي وجوردانو برونو؟ تلك حلوليّة⁽³⁴⁾ وليست إلحادًا. بير شارّون، شارل دو سان إيفرومون وسواهما من الخلعاء الباروكيّين يعتقدون بأنّ من الضّروريّ الخضوع للديانة الكاثوليكيّة لأنّها ديانة بلدهم، ويتجنّبون التّوقّف عند طبيعة الرّب، ولكنهم يؤمنون به؟ هذه نصرايّة أبيقوريّة في الغالب، هرطقة في نظر الفاتيكان لا محالة، ولكنها ليست إلحادًا؛ فولتير يقول بالميزة المفيدة والمحتمة للسَّاعاتيّ الأكبر نظرًا لروعة إواليّة الطَّبيعة، وروسو يثمن

(34) Panthéisme: مذهب يقول إنّ الرّب والطَّبيعة شيء واحد، وإنّ الكون المادّي والإنسان ليسا سوى مظاهر للذَّات الإلهيّة.

ذلك؟ تلك تأليهة وليست إلحادًا. الملحد ينكر بوضوح وجود الرب، ولا يتحذلق في تعريفاته.

قد يكون الإلحاد حاضرًا قبل ذلك التاريخ لدى أشخاص من عامة الناس لا يحسنون التّنظير لرؤيتهم للعالم، ولكنّ الوصية، إن لم أكن مخطئًا، هي أوّل من عرض، ولأوّل مرّة في التاريخ، هذه الفكرة عن عالم متخلّص من الربّ، تستدلّ برؤية متناسقة للعالم - مثوليّة ومادّيّة. التاريخ الدّقيق غير معروف ولكنّه يقع بين 1719 و1729؛ حيث كتب جان ميليه: «لا وجود للربّ» (II، 150) هيّا. قيل القدّاس⁽³⁵⁾.

بل لا. القدّاس لم يُقل، لأنّه يُنتظر أن يقال. يعمل الكتاب على منوال خطبة كبيرة ملحدة، تتوجّه إلى مرتادي كنيسة الذين ضلّوا بسببه. وفي تعجّله الوصول إلى مراميه والتّخلّص من إثم تراكم منذ عدّة سنوات، راكم ميليه الاستظهار بالأدلة واحدًا واحدًا، مع احتمال ذكر الشّيء نفسه مرّتين وثلاثًا وعشرًا، فالكتاب يرتجل كما في الارتجال الشّفويّ؛ والنّص يخطب؛ ذلك أنّ ميليه لا يعبرّ كما يعبرّ كاتب في كتاب، ولكنّ الكتاب يتكلّم مثل الكاهن ميليه.

الشّرف لمن يستحقّ. النّار على الربّ. ينطلق ميليه ممّا يقال عن الربّ في العادة ويبيّن أنّ تلك التعريفات نسيج من المتناقضات. كلّ النصرانيّ يؤكّدون: الربّ كلّيّ الوجود، كلّيّ القدرة، كلّيّ العلم، خلق العالم والبشر، هو العناية الإلهيّة. بيد أنّ وضع تلك الخصال

(35) باللاتينية في الأصل *lte, missa est*. عبارة طقسيّة يُختم بها القدّاس.

على محكّ الواقع تبيّن ألا وجود لشيء من ذلك. فالعالم كما يمضي
يثبت بالأحرى عدم وجود الرّب. أمثلة:

طيبته؟ ما العمل وكلّ المواضع في الكتاب المقدّس تظهره غيورًا
غضوبًا منتقمًا عدوانيًا أشرًا مباحكًا ظالمًا نزويًا وما إلى ذلك من
الصّفات البشريّة، البشريّة جدًّا. هل هو طيّب هذا الرّب الذي يحاكم
البشر ويقضي على بعضهم باللّعنة الأزليّة، والخلود في نار جهنّم
بسبب إثم بلا أهميّة؟ هل هو طيّب هذا الرّب الذي يترك السّيل
للشّر بدل أن يمنعه ولا يترك تجليًّا لغير الخير؟...

كلّي القدرة؟ فمن أين يأتي إذن بؤس البؤساء على هذا الكون،
وفقر الفقراء؟ لماذا يوجد هذا القدر من الأشرار؟ كيف يمكن تفسير
ابتداع الشّرّ والحال أنّ الرّب يكفي ألا يرضاه حتّى تتحوّل الأرض
إلى جنة؟ واستغلال البشر، والحيف الاجتماعيّ، كلّ ذلك بتواطؤ من
عظماء الكنيسة، فأيّ تفسير؟

رحيم؟ نفس الملاحظات عن الطّيبة: هذا الرّب خلق جحيماً،
وأرسل أطفالاً ماتوا دون تعميد إلى اليمبوس ويحرمهم من الجنة،
ويسلّط المطهر في حالات الرّيبة، ويعرب عن غضبه بالعقاب دون
تبصّر، بمكافأة الرّذيلة في الغالب ومعاقبة الفضيلة، هذا الرّب هو
والرحمة في طرفي نقيض...

منيع، حصين؟ لماذا يغضب إذن إذا كذب المرء، أو رغب في زوجة
الجار، أو لم يحسن إلى أبيه أو أمّه، وسواها من الأشياء التّافهة التي
تؤخذ بالرّغم من ذلك بعين الاعتبار لتبرير غضبه. ما الفائدة عندئذ

من التضرّع إليه والدعاء له وطلب نعمه، وتشفع المرء لديه لشخصه أو لمسائله الصغرى إذا كان التواصل معه غير ممكن؟

هذا الربّ موجود، يريد أن نحبه، ولكنه لا يظهر أبدًا، رغم أن بوسعه أن يظهر ظهورًا واضحًا، صريحًا لا مرأى فيه. كيف نحبّ قوّة نخشاها، ونرهب جانبها، ونودّ في النهاية أن نكرها لكثرة تجلّي قسوتها على أكثر الناس براءة، أولئك الذين تؤلمهم مصائب القدر. يريد الطاعة ولكنه لا يسمح أبدًا بمعرفة ما يريد.

لا ينتج ميليه تحليلًا لصنع الربّ. ولا يظهر - كما هو شأن فويرباخ - أن تلك السردية من صنع البشر الذين يخافون الموت، ويخشون العدم ويتدعون أيّ شيء كي يعيشوا بالرغم من وجودهم الضيق، المحدود، الوجيز جدًّا في النهاية. لا يفسّر لماذا كان الربّ مروية أقنوم ابتدعتها قوى بشرية منقلبة مثل أصابع قفاز ومعبودة تحت سلطة وحيدة كقوى مرغوب فيها: البشر لا يستطيعون كلّ شيء، لا يعرفون كلّ شيء، يجهلون كلّية الحضور المادّي، يولدون، يعيشون، يهرمون، يموتون، ويتوارون في العدم، فليكنّ. للعيش مع هذا القدر من القوى، يعبد نفس البشر كلّية القدرة، كلّية الوجود، العالم بكلّ شيء، الخالد، الغير مخلوق، النزيه، الباقي وشتّى الخصال عن إلههم الواحد مثلما الإنسان واحد.

ولكنّ ميليه يستصلح قارة لم يقربها أحد من قبل ولم يستكشفها، ولا يمكن أن نطالبه بأن ينهي بكلّ القطع وفي الحال المَعْلَمَ الإلحاديّ... إنكاره، تفكيكه، اقتراحه قراءة الربّ كمروية متخيّلة،

ذلك هو الجوهر. عشرات من الفلاسفة يحومون حول تلك الفكرة، ويتجنبون طرحها مباشرة، يتوافقون مع السماء والعقل، الذكاء والتفكير السليم كي يواصلوا التعامل مع تلك البدعة. والإعلان لأول مرة عن موت الرب فلسفياً مردّه إلى ميليه.

8

أول تفكيرك للمسيحية. إن كان ميليه أول (فيلسوف) ملحد، فإنّه حاز أيضاً لقب مجدٍ آخر: فقد لمع أيضاً في سماء الأفكار بتحقيقه أول تفكيرك للمسيحية. فالربّ شيء والديانة شيء آخر، وصيغتها المسيحية شيء ثالث. هو ملحد، ولكنّه برع أيضاً في دراسة الإلحاد، كمفكك لدواليب الآلة المسيحية ليبين طابعها التخيلي.

صحيح أن ثمة سابقاً هو ريشار سيمون (1638-1712) - غير موجود في مكتبته -، كاهن نورمانديّ ابتكر تفسير الكتاب المقدّس وألّف عدّة كتب، بعضها في عدّة مجلّدات، من بينها ثلاثة كتب هامة عن التاريخ النّقدي للعهد الجديد وصيغها وأهمّ مفسّريه. وقد عمل جاك بينيني بوسويه واليسوعيون كلّ ما في وسعهم ليضيّقوا الخناق على ذلك الرّاهب المستقيم الذي كان يؤمن بإمكانية المزاوجة بين العقل والنصوص المسيحية. لسوء حظّه. فقد توفيّ ريشار سيمون من شدّة الحزن، حسباً قيل، وأحرقت مخطوطاته... في تلك الفترة، كان ميليه يشغل على أثره العظيم.

على غرار ريشار سيمون، كان جان ميليه يقرأ بإمعان النصوص التي وصفت بال مقدّسة، ولكن بنفس العناية التي يضعها في قراءة

نصوص وثنية. قراءة الأناجيل مثل **حوليات** تاسيتوس؟ وهو إثم قاتل في تلك الفترة. كان في مكتبة الراهب الأردنيّ الباترولوجيا باللاتينية والكتاب المقدّس، فأمكن له أن يقوم بقراءات دقيقة، لاحظ خلالها أنّ التناقض مهيمن على نصوص قيل إنّ الرّب أوحى بها وأملها، وأنّ التفسيرات الخاطئة وفيرة، والحماقات غزيرة، والاختلافات منتشرة!

في البداية، أكّد ميليه أمرًا نادرًا جدًّا في تلك المرحلة: تلوّث منبع كلّ الخرافة المسيحية. الكتب المقدّسة ليست جديدة بالثقة، فهي مزيفة ومحوّرة حسب المصالح السياسيّة، موضوعة في متن ذي انسجام مزعوم كي يوفر أسلحة أيديولوجيّة لسلطة دنيويّة مدعومة بالسلطة الروحانيّة، ولا يمكن أن نعطي أيّ ثقة لتلك الميثولوجيا.

سان جيروم يقول ذلك هو نفسه... لماذا توجد هنا أناجيل مزيفة، وهناك أناجيل متوافقة. من الذي يقرّر؟ بأيّ مقياس؟ لأيّ أسباب؟ وأيّ منافع؟ يجيب ميليه ويشير إلى الدّور الحاسم للمجامع الدينيّة - مجمع قرطاج ومجمع ترينتو، وكان له تقارير عن أشغالها في رفوفه - :أمراء متواطئون مع الأساقفة، أباطرة مدعومون من الإكليروس يتخذون تعسفياً تلك القرارات التي تصنع القانون.

تلك الكتب لا تحتوي على أيّ شيء مقدّس. بالعكس، العدد المذهل للمسائل التّقريريّة والمتناقضات والنقائص والشّوائب والأخطاء تنبئ عن عمل بشريّ، بشريّ جدًّا! ميليه يرى في تلك البدع الأدبيّة تجلّي نفس المبدأ الذي ينعش الفلكلور والسّردية

المتخيّلة: «حكايات السّاحرات ورواياتنا القديمة»، كما يقول،
وتصدر عن نفس العالم... وينصح بقراءة إيسوبي بدل لوقا أو
مرقص أو متى!

ولمن يتذرّعون بقوة الاستعارة ويرفضون النّقد التّفسيّريّ الملحد
باسم تبسيطيّة مزعومة، يجيب الكاهن بأنّ التّعللّ بالمعنى الخافي،
الثّانويّ، المجازيّ، وبعلماء الدّين الضّبابيّين الذين يقولون بالدرجة
الثالثة أو الرّابعة أو ما فوقهما يُعدّ خدعة كبيرة: سوء النّيّة تلك
تستدعي سوء نيّة القارئ بالتماس نزوته التّأويليّة المعنيّة. ذلك الخداع
«الباطنيّ والاستعاريّ» تلقى تبعاته على القديس بولس، أمير الدّين
الكبير، الحريص على ستر أخطائه وعدم دقّته بتلك الحيلة الفكرية.

9

برقوق الجنّة. الأناجيل التي تدّعي القداسة تُجمّع الحماقات. كذلك
الشّأن مع المعجزات والتّنبؤات. يخصّص ميليه وقتاً طويلاً لينسف
ذلك الهذيان الذي يناقض قوانين الطّبيعة، بوصفها القواعد الوحيدة
التي يعترف بها التّفكير السّليم المقود بأنوار العقل. ما هو موجود
يتبدّى بما لا شكّ فيه حسب النّظام الطّبيعيّ. لا يمكن أن نصدّق
إمكانية المشي على الماء، وشقّ البحر شطرين، وإحياء الموتى، وشفاء
المرضى الذين لا علاج لهم، ومضاعفة الأسماك، وتحويل الماء إلى
نبيذ، إلخ، دون إثارة السّخرية.

لو ادّعى اليوم أحدهم أنّه أتى ذلك النّوع من المعجزات أو شهد
إحداها فسوف يقاد إلى مصحّة المجانين، فلعلّه واحد منهم. تلك

المبالغات لا يمكن أن تُقرأ على المنوال الاستعاريّ لأنّها تطرح نفسها كدليل على القوى الخارقة للإله.

يضع ميليه بالتوازي النصوص الوثنيّة والنصوص المقدّسة ثمّ يبيّن أنّ المعجزات حاضرة بكثرة في هذه وتلك. فكتاب حياة أبولونيوس توانا لفيلوستراتوس لا يختلف في شيء عن المرويات الإنجيليّة أو الكتب المدافعة عن العقيدة النصرانيّة التي تروي سير القديسين الذين تُضرب أعناقهم ويواصلون الابتهاال والوعظ في اطمئنان، وتُفكّك أوصالهم أو تُشوى، وتُخرج أحشائهم حتّى آخر معي، ولا يتوقّفون بالرّغم من ذلك على إظهار الابتسامة السعيدة للممجّدين الواثقين من أمرهم.

تضاف إلى ذلك اعتبارات لاهوتيّة: لنفرض أنّ المعجزات موجودة، فما الذي نستخلصه من ذلك؟ أنّ ربّا يهب أفضاله كيفما اتّفق، فينقذ هذا ولكنه يمنعها عن سواه، يمنح عنايته للأوّل ولا يمنحها للثاني، هو ربّ بالغ القسوة! وهو ما يناقض، راجع أعلاه، مفهوم الرّب نفسه الذي يقع دائماً تأكيد عدله. لكي تكون المعجزة قابلة للتّصديق، لا بدّ أن تكون ممكنة للجميع، دائماً، وفي كلّ آن، وهو ما يمكن أن يحدّد الجنّة على وجه الأرض. غير أنّنا بعيدون عن هذا. وهو ما ينبغي إثباته، كتب سبينوزا.

ولا تختلف المبالغات المدوّنة في التّوراة عن المعجزات، فهي أيضاً غير جديرة بالتّصديق. حسبنا سفر التّكوين وحده، حيث جنة

الأصول، والأفعى المتكلّمة، وحكاية التفّاحة - أو حبة البرقوق كما كتب ميليه -، شجرة الحياة، شجرة المعرفة، أوّل رجل وأوّل امرأة، خطيئة أصليّة، نقلها إلى كافّة ذريّة آدم وحواء. خرافة، خرافة، خرافة...

10

مريض يدعى يسوع. لا يشكّ جان ميليه في الوجود التاريخيّ لیسوع. في هذه المهمّة، لا بدّ أن ننتظر برونو باور (1809-1882)، الهیغليّ اليساريّ، وكتابه نقد الأناجيل الأربعة المتوافقة (1841). غير أن يسوع يتدنّى إلى وضعه البشريّ، وهو من أسوأ ما هنالك: ذلك «المتعصّب المشطّ» كتب يقول، هو أيضًا «مجنون، أخرق، متزمت بائس، وغد تعيس، رجل عدم، دنيء ومقيت»، رجل ذو مغامرات أكثر شططًا من مغامرات دون كيخوته!

أفكاره مشوّشة. ذلك الرّجل يزعم أنّه جاء إلى الدّنيا ليشتري الموت بخطايا العالم، ولكنّه من ناحية، يعجز عن تخليص نفسه من عذاب الصّلب، ومن ناحية ثانية لم نر منذ موته تراجع الشّر في الأرض ولا السّليبيّة مثلما أعلن! ثمّ إنّ كلّ نبوءاته عديمة الجدوى ولم تتجسّد قطّ: بل تثبت فقط التّشوّش الذّهنيّ أكثر ممّا تثبت ابن الرّب!

ذلك الكلام المعلن يُحلّ يسوع إلى جانب الماكرين والأشرار، لأنّ تضليل النّاس بتلك الكيفيّة، وخداعهم قصدًا في أشياء شديدة الأهميّة مثل تسيير حياتهم ومصيرهم بعد الموت، وتلك أكاذيب

مذنبه وشنيعة. والطريقة المتبعة هي بمثابة احتيال ميتافيزيقي.

يشهد ضده أيضًا نمط حياته: ما الذي يجعل ذلك الشخص
الراغب في ارتياد كل الأماكن، يروح ويجيء في كل جهات الخليل
لتنصير أكبر قدر ممكن من الناس وإقناعهم بخرافاته؟ ثم يقول إن
الشيطان قاده إلى قمة جبل لإغوائه؟ هل هذا جدّي؟ هل هو كلام
شخص يتمتع بكل مداركه العقلية؟

نفس الملاحظة بخصوص المعجزات. كتب ميليه يقول، عندما
أتمّ عمليّاته المزعومة، كان ينبغي أن نرى أيّ هيئة شيخ روعيّ اتّخذ!
نفسية الرجل الهشة تجد صداها بطبيعة الحال لدى مريديه الذين
يملكون هم أيضًا نفس البنية الذهنية المعتوهة. فأنشودته الملحمية
تجمع نسيجًا من الكذب لا يمكن تصديقه.

لم يكن لتلك الشخصية قوام حقيقي. تركيبته هي تركيبة حلم.
حسبنا أن نقرأ الأناجيل بإمعان كي ندرك ذلك. فالتناقضات
تفيض. والحقيقة التاريخية غائبة. والشهادات تمضي في كل
الاتجاهات. أمثلة: جينالوجيا يسوع تختلف من إنجيل إلى آخر؛
حركات الطفل يسوع وسكناته وطرائفه غير متطابقة؛ رقم مدة
حياته العامة يختلف؛ نفس الفوارق في أفعاله بعد التعميد؛ أو في
جزئية عزلته الأولى؛ عدم انسجام أيضًا حول الزمن الذي تبعه فيه
الحواريون وكيف حصل ذلك؛ وحول ما حدث فعلا خلال العشاء
الأخير؛ حول النساء اللاتي تبعنه منذ الجليل؛ حول عدد ومكان
وظروف ظهوره بعد موته؛ نفس الشيء بالنسبة إلى صعوده إلى

السَّماء؛ وتلك من جملة أمثلة عديدة أخرى...

11

أوثان من عجين وطحين. منذ البداية، عُدَّت الكنيسة طائفة دنيئة ومؤذية. مؤرّخو تلك الفترة يؤكّدون ذلك. عقائدها تبلغ أرقامًا قياسية في الهراء المشطّ: الثالوث المقدّس مثلاً. كيف يمكن لثلاثة أشخاص أن يكونوا شخصًا واحدًا والحال أنّ الأب يلد الابن، أي أنّه ينبغي إذن أن يسبقه، دون الحديث عن الرّوح القدس... هذا الاعتقاد، يقول ميليه، ينمّ عن وثنيّة حقيقيّة!

نفس الملاحظة حول اللّغز المزعوم لسرّ القربان المقدّس. والقرن الوسيط يزخر بنصوص لفلاسفة ولاهوتيين طالما أسهبت بعسر في الحديث عن خبز القربان المقدّس. بالاستعانة بالذّمامة⁽³⁶⁾، نتساءل عن مصيره لو أنّ جرذاً مثلاً أكله صدفة، أو أنّه وقع بعد تقدّسه في حفرة - من راهب مترنّح ذهب لتقديم مسحة المرضى... -، سيظلّ رغم ذلك جسد المسيح.

لقد خاض علم اللاهوت بجدّية في هذا الموضوع الذي لخصّه الكاهن ميليه في جملة تعرّف خبز القربان بكونه أشبه بـ«وثن من عجين وطحين» تمامًا مثل أصنام وثنيّة من حديد وخشب وحجر وذهب أو فضّة تلك التي كانت تعبدها أكثر الشّعوب تحلّفًا في العصور القديمة. جنون! يسوع لم يطلب قطّ أن يُعبد في شكل

(36) Casuistique: الذّمامة أو مبحث الذّمة، وهو علم يختصّ بالقضايا الضميريّة وأحوال الضمير.

خبزيّ. لا يمكن أن نستنتج أو نستخلص ذلك المعتقد الغبيّ في أيّ من الأناجيل.

سرّ القربان المقدّس، اللّغز المسيحيّ، يحتاج إلى فكر أرسطو كي يرسى شرعيّته الفلسفيّة. فالسّكولائيّة، بأصنافها في الماهيّات، والحوادث، والأنواع، والشّكل الجوهريّ تسمح بلعبة بهلوانيّة أونطولوجيّة بالتّأكيد أنّ الخبز هو حقّاً وليس رمزاً - «في الحقيقة» وليس «في الشّكل» كما جاء على لسان توما الإقويني - جسدُ رجل مات منذ ألفي عام؛ نفس الشّيء مع الخمر المتأّتي من مزارع الكروم الفرنسيّة، فهو دم حقيقيّ لنفس الشّخص.

نفهم لماذا تدين الكنيسة بصرامة على مرّ الأزمان الفكر المادّيّ، الذي يعتبر تاريخ الماهية والحوادث لاغية لأنّ كلّ شيء في نظره، بما فيه الخبز المقدّس أو خمر الكأس، هو مجرد ترتيب ذريّ. لا يمكن لأحد مريدي أبيقور أن يؤمن باحترام بترّهاست تحالة القربان⁽³⁷⁾.

لا نستغرب أن يدافع ميليه من جهة أخرى، وبمنطق سليم، عن نظريّة بالغة الانسجام حول المادّيّة، التي تصوغ بمعزل عن أبيقور، ودون اللّجوء إلى الذّرات والهباءات والفراغ وانحراف الذّرات وكلّ التّرسانة الأبيقوريّة، تدشيناً مادّيّاً حديثاً ينهل منه بلا حياء لا ميتري وهلفيتيوس ودولباك وساد، إن اقتصارنا على القرن الثامن عشر وحده.

(37) Transsubstantiation : تحوّل خبز القربان ودمه إلى جسد المسيح ودمه.

لأجل أخلاق ما بعد المسيحية. ينقض ميليه إذن النصرانية في أسسها وأسبابها وذرائعها ومنطقها وبلاغتها ومعتقداتها وأساطيرها وخرافاتنا: الرب لا وجود له، والنصوص المقدسة، نتاج مزورين، تروي خرافات؛ النصرانية مصنع خرافات غبية، من بينها الجنة والجحيم، والخطيئة الأصلية، إلخ؛ يسوع ليس ابن الرب، بل مجنون بائس، آدمي، آدمي للغاية؛ والمعتقدات والألغاز من نوع الثالث المقدس أو السر المقدس مثل سر القربان المقدس تنشأ عن عقيدة الوثنيين؛ ولكن ميليه يهاجم أيضاً، فيما وراء النظرية، الأخلاق المسيحية التي يعتبرها خادعة، سيئة، مخالفة للطبيعة ولا أساس لها.

بعد تدمير المنطق الخرافي للسماء، ينتقد الممارسات المشؤومة للأرض الكاثوليكية. تفكيك علم اللاهوت يُشفع بتفكيك للأخلاق. فأخلاق المسيحيين مموتة لأنها تقرن نفسها بغريزة الموت، تحب وتعشق الألم، وتمجد العذاب حسب المنطق المعلن عن تقليد عذاب المسيح. كيف يمكن الدفاع عن مثل هذا الوضع؟

باسم ماذا تدان الرغبات؟ إن هي إلا مشاعر جسد طبيعية - «الميل اللطيف للطبيعة». لنبق في المنطق المسيحي: إن وجدت تلك الرغبات فلأن الرب وضعها في أجساد البشر. كيف يمكن أن يهب البشر رغبة ويطلبهم بكرهاها؟ لنخرج من هذا المنطق: الرب غير موجود، الطبيعة وحدها هي التي وضعت تلك المشاعر في أجساد البشر. ولها أسبابها الوجيهة: تناسل النوع، وتواصل البشرية.

الأخلاق الجنسية التي تدافع عنها الكنيسة تمنع الجنس خارج إطار الزواج، وتقننه بعسر لدى الزوجين. ميليه لا يجد ما يعيد قوله بشأن استعمال حرّ لجسده، حتّى مع خليات لا تربطه بهنّ روابط الزواج. فالعقد المتعيّ كافٍ لإضفاء الشرعيّة على الفعل الجنسيّ: رغبة متبادلة لزمن متّفق عليه بين طرفين. نساء كثيرات أسىء تزويجهنّ يعانين، وأطفال كثيرون يقاسون من القانون الصّارم لأزواج يكره بعضهم بعضاً ولكنهم يبقون معاً لأنّ الكنيسة ترغمهم على البقاء وتتوعّدهم بالجحيم إن طلقوا. ميليه يدافع عن المعاشرة دون زواج - حتّى بالنسبة إلى القساوسة والرّهبان والرّاهبات - والطلاق، وذلك بغرض التفتّح الشّهوانيّ والجنسيّ.

وليس معنى ذلك السّماح بتهتك الأجساد والاحتفاء بالفسق. فهو يرى اللذّة كشيء بسيط، طبيعيّ، غير معقّد. لا يتصنّع ميليه الحياء ولكن دون أن يدافع عن الخلاعة الإقطاعيّة لكبار تلك الفترة، بل يقترح جسداً متخلّصاً من الإحساس بالذّنب، يتمتّع على نحو طبيعيّ بإمكانات الفرح المسموح بها هنا والآن.

الطّبيعة تأمر: لا يمكن أن نطلب ما يخالفها أو يعاكسها. والألميّة⁽³⁸⁾ تعرّضها للخطر. إن صادف أن مارسنا التعقّف وكبح جماح الشّهوات، إن حرّمنا كلّ حياة جنسيّة فإنّ العالم يسير إلى هلاكه ونهايته. الوصايا المسيحيّة سخيفة ولا أساس لها. ونموذج الحياة

(38) Dolorisme: مذهب فلسفيّ أو روحيّ أو دينيّ يمجد الألم الجسديّ في حدّ ذاته، ويمنحه قيمة أخلاقية. ويحضر بقوة في الكاثوليكيّة والكاليفينية.

الجنسيّة ليس الحيوان بطبيعة الحال، كما هو الشأن لدى الكلبين⁽³⁹⁾. في رأي ميليه، ينبغي، كتحذير للخلعاء الباروكيين، الخضوع لقوانين البلاد وعاداتها: فلا يمكن القبول بزنى المحارم وزواج الأقارب. أمّا عن الشذوذ الجنسيّ فلم يقل شيئاً.

يواصل الكاهن الملحد نقده للأخلاق المسيحيّة: هي مخطئة في مجال الأليّة، مخطئة في مادّة الأخلاق الجنسيّة، وغير مبرّرة في مديحها لمحبة القريب. هذه الدّعوة الخطيرة تفترض أنّ على الرّجال والنّساء أن يحتملوا بلا اعتراض أو تدمّر شرور السّواد الأعظم. عدم الرّدّ على الضّرب، إدارة الخدّ الآخر، محبة الأعداء، كلّ ذلك يبرّر النّظام المنحرف للعالم. بمنطق كهذا، نطلق العنان للعنف الإقطاعيّ، واستغلال الضّعفاء، ونضمن الإفلات من العقاب للحيوانات الكاسرة المتمثّلة في الأسياد الغلاظ، وطفيليات المنظومة، وغيرهم من طغاة الملكيّة.

مباركة من يلعنونا، والصّفح عمّن يشتموننا يومياً بدعوى أنّهم سينالون جزاءهم في يوم حساب مفترض، ذلك ما يشرّع هنا والآن لقانون الغاب. كتاب العِظّات يؤدّي دوراً محافظاً، مناهضاً للثّورة، ويؤيّد الوضع القائم ويمنح تزكيتَه للظّلم الاجتماعيّ المعّم.

13

إيثيقا شفقة. يدافع ميليه عن الخاضعين، المهانين، البسطاء،

(39) أنصار المذهب الكليّ في الفلسفة، وهو مذهب يقوم على مجازاة الطبيعة وعدم المبالاة بالأعراف. وكانوا يدعون إلى نمط حياة لامادّي بسيط يهدف إلى الفضيلة.

المتواضعين، الضّحايا، وليس غريباً أن نقرأ له دفاعاً، غير مسبوق في تاريخ الأفكار قبله، عن النّساء والأطفال والحيوانات، ثلاثة أنواع من البشريّة المستغلّة التي تحتجن عنف وشرّ وغلظة الزّوج تجاه زوجته، والأبوين تجاه طفلها والسّيّد تجاه الحيوان.

قد نفاجأ بوضع ضحايا الاستعباد أولئك على قدم المساواة. يجب ألا ننسى أولاً أن تلك الصّفحات يرجع عهداها إلى الأعوام الأولى من القرن الثامن عشر، عهد انتصرت فيه الإنسانيّة في شكلها الأبيض، الأوروبيّ، الذّكوريّ، المسيحيّ، الكهل، فقط. إن لم يكتب ميليه شيئاً عن الشّعوب الملوّنة - بضعة أسطر عرضيّة في الفكر النّسبويّ والآفاقيّ لدى لاموت لو فاييه⁽⁴⁰⁾ - أو الشّعوب غير الأوروبيّة، فإنّه خصّص جملاً معبّرة عن الأطفال المعنّفين، والمهجورين، وعن النّساء المتزوّجات زيجة غير ملائمة، المهمّلات، التّعيسات، ثمّ صفحات طويلة مقنّعة في مقارعة النظريّة الديكارتيّة عن الحيوانات-الآلات، لأجل أنسنة الحيوانات. في تلك الفترة، لم يكن الصّراع موجوداً.

ونتيجةً لعدم قابليّة الزّواج الكاثوليكيّ للفسخ، سبّب الزّواج كوارث عائليّة: فاستحالة ترك الزّوج العدوانيّ العنيف الشّرير جعلت الحياة كابوساً. عندما ينفصل الآباء عن الأمّهات، فإنّ الأطفال الذين يتقبّلهم الأصهار أو الأجداد أو الجدّات، أو القيّمون على القاصرين أو أولياء أمورهم، لا ينتفعون بتربية أفضل، لأنّ

(40) François de La Mothe Le Vayer (1672-1588): فيلسوف وفيلولوجيّ ومؤرّخ

فرنسيّ.

تجربتهم والأمثلة السيئة تحوّل أولئك الأطفال إلى كهول لاجتماعيين. وميليه كان يتوق إلى تربية خاضعة للمجموعة، مدفوعة الأجر بالمال المشترك للمساهمة في تنشئة أطفال حريصين على الصالح العام. مكتبة سر من قرأ

كان الكاهن يقاوم العبودية في شتى أشكالها. ولكونه ماديًا عن قناعة، يطرح مشكلة الحيوانات بوصفه فيلسوفًا كي لا يكون ثمة سوى عالم واحد بتنوعات شتى. وحدة الكائن المادية تمنع التفكير بصيغ تراتبية، أي صيغ خضوع وعبودية. هذه القراءة المثولية لا تضع وجهًا لوجه، كما هو الشأن مع الفكر المسيحيّ الثنائيّ المتسامي، عالين متقابلين - رجال ونساء، بشر وحيوانات، كهول وأطفال، ذكور وإناث -، فتسبغ على أحدهما معنى إيجابيًا ولا تسبغه على الآخر.

وميليه لا يطيق وجوه الشر. هذا الموقف الميتافيزيقي لا يبدو ناشئًا عن دليل عقلائي معقول بقدر ما هو ناشئ عن راديكالية مثولية، إجابة غريزية عن مشهد الظلم والجور. على غرار مونتاني الذي ينطق بلسان المتكلم ويفكر في الكوني انطلاقًا من طرف سير ذاتية، يعترف ميليه أنه لا يحتمل الجزارين والمجازر. رؤية الدّم تضايقه. وعندما يضطرّ إلى أن يصرع بنفسه دجاجًا أو زغاليل يمام أو خنزيرًا للأكل أو يكلف من يتولّى ذلك، يعتريه تقزز واشمئزاز.

وإن تبني حياة نباتية، فلم يكن ذلك عن استنتاجات فكرية بل نظرًا إلى عجزه عن تحمّل مشهد ألم الحيوانات وعذابها - وبالتالي كلّ

كائن حيّ. بدا له أنّ الرّفص المطلق لاستهلاك اللحم اختيار تطيرّ شبيه بالتّرّمّت الدّينيّ. وجه ميداليّة نجد في قفاها ميل الدّيانات إلى إبادة الحيوانات لنيل رضا الآلهة.

كان ميليه يحارب أيضًا تلك العادة الهمجيّة المتمثّلة في حرق أبرياء. كيف يرضى الرّب، إن كان موجودًا، بذلك الكمّ من التّدمير المجانيّ لنماذج خلقها في أحسن تقويم؟ أيّ فكرة خرقاء أن نعتقد أنّ الرّب يحبّ مثل تلك الأعمال الجنونيّة؟ وأنّه يتأثّر بها؟ وأنّ ذلك القدر من الدّم المسفوح يدفعه إلى تلبية صلوات البشر؟

هذا الرّجل الذي يبتهج بنقل كلام مزارع راغب في خنق البورجوازيّ بأحشاء القساوسة، هذا الثّوري الشّيعيّ الذي يخصّص سطورًا في غاية الجمال لتبرير قتل الطّغاة في شكل صرع ملك دون قيد أو شرط إذا ما استعبد رعيّته، هذا الكاهن الملحد الذي يستشيط غيظًا ضدّ سيول الدّم المسفوحة خلال عدّة احتفالات دينيّة تُذبح فيها الحيوانات قربانًا، هذا المنظر للإلحاد الرّاديكاليّ الذي يأسف أيضًا للدّم الذي لوّث صليب الجلجلة، هذا الفيلسوف البركانيّ لا يطيق رؤية دم دجاجة! أخلاق شففته تولّد إثيقا لا تعرف الرّحمة: لا شفقة على الذين لا يعرفون الشّفقة. كيف نقول إنّه على خطأ؟

14

ركل عجيّزة مالبران⁽⁴¹⁾. يدافع ميليه عن الطّبيعة، كلّ الطّبيعة.

(41) Nicolas Malebranche (1638-1715): لاهوتيّ وكاهن خطيب وفيلسوف

يرفض الفكر التّراتبيّ، وسيكون اليوم شديد التّأثر بمبررات المناهضين للمفاضلة بين الأنواع⁽⁴²⁾، الذين يقاومون التّنظيم الهرميّ للطّبيعة بجعل الإنسان في قمّة الهرم والحيوانات في قاعدته، حيث يسمح الإنسان لنفسه باقتراف كلّ الأعمال اللّإنسانيّة ضدّ الحيوان: يستغلّ، يعذّب، ينكّل، يقتل، يستعبد، يقيّد، يضرب، يأكل.

هذا الموقف، السّائد في مجتمعنا منذ ألفي عام، ناشئ عن الدّعوة اليهوديّة المسيحيّة الموجودة في سفر التّكوين: تلك المخلوقات، الخالية من الرّوح، المعفيّة من الخطيئة الأصليّة، التي لا تملك إمكانيّة البقاء، تقع تحت سيادة الإنسان، بعده، وقبل النّبات ثمّ المعدنيّ، فهي موجودة لصالح البشر. يستخدمونها كما يشاؤون للحصول على قوّة عمل، لطف الرّفقة، لحم المأكّل، جلود الملبس، وسيلة قربان في المحارق. هنا أيضًا، يحتجّ ميلبيه على النّصرانيّة بصخب.

من بين أعدائه، الفلاسفة الديكارتّيون - الذين يرى جيّدًا طبيعتهم بوصفهم «أتباع الرّب». وكان قبله سهامه المفضّلة مالبرانّش، الذي خصّص صفحات طويلة في كتاب في البحث عن الحقيقة استحضر فيها وواصل وحلّل أطروحات ديكارت في رسالة في ماهيّة الإنسان. الحيوانات ليست سوى دواليب وبكرات ولوالب. تلك الأشياء لا تفكّر، ولا يعترها أيّ شعور، ولا تتواصل، ولا تحسّ بأيّ شيء، تجهل الكلام. ومن ثمّ كان الاختلاف

فرنسيّ.

(42) Spécisme: أيديولوجيا تفترض وجود تسلسل هرميّ بين الأنواع، وخاصة تفوّق البشر على الحيوانات.

الراديكاليّ في الطّبيعة بين البشر والبهائم.

قد تكون هذه الطّرفة غير صحيحة، ولكنها ذات دلالة: يقال إنّ من بين الأطروحات الشّهيرة للأب مالبرانش، الخطيب المؤلّف، عن الحيوانات الآلات، أنّه ركل مؤخّرة كلب كان يضرب الأرض بأرجله بحضور أحد زوّاره. هذه الحكاية، حتّى وإن كانت زائفة، تعني: إنّ مثل هذه النّظرية الفلسفيّة تبرّر سوء المعاملة المسلّطة على الحيوانات، وتشرّع بخاصّة غياب النّدم في حالات التعذيب أو القتل.

سعى ميليه، من جهته، إلى ركل عجيزة مالبرانش الفلسفيّة. بما أنّ الديكارتيين يتخيّلون أنّ التفكير هو قبل كلّ شيء أن نفكر أنّنا نفكر، ونعرف أنّنا نفكر، فإنّ أولئك المصايين برهاب الحيوان استخلصوا أنّ الحيوانات لا تفكر. غير أنّ التفكير يتحدّد بشكل مغاير، في رأي ميليه: أن نفكر معناه أن نعرف في تنسيق أجسادنا تحولات المادّة. والبشر والبهائم في هذا المجال سواء.

أعداء المادّيّة الذين هم مريدو ديكارت لا يستطيعون حلّ المشكل دون حيلة المغالطات الثّنائية للماهية المفكّرة التي تختلف عن الماهية المادّيّة. لذلك كان الديكارتيون أتباع الرّبّ وأتباع المسيح: نموذجاهما المتعارضان - أحدهما متخيّل -، يجعلان منهم متمسّكين بالديانة الكاثوليكيّة.

في نظر ميليه، الحيوانات آلات بالتّأكيد، ولكن مثل البشر! لا شيء يميّز الطّرفين غير طرق تنسيق مادّتيهما. لا وجود لماهية مفكّرة لدى

الإنسان، بل دماغ؛ نفس الشيء لدى العنديل أو الخنزير. ولئن اختلفت المواد الشخماء فإنّ الجوهر باق: الكائن محدّد بمادّية بنيته الفيزيولوجيّة، سواء أكان خنزيرة أم كاهناً خطيباً. الدّرس؟ بين البشر والحيوانات لا يوجد أيّ فارق في الطّبيعة، وإنّما فارق في الدّرجة فقط. هذه الخلاصة تحدّد أنطولوجيا مادّية افتتاحيّة في الفلسفة الفرنسيّة.

15

تقتيل القطط. يرثي ميليه حال الميتافيزيقا المسيحيّة والفلسفة الديكارتية - المتشابهتين في النّهاية - اللّتين فتحنا شارعاً عريضاً لنزعة الشرّ لدى البشر. يؤكّد الكاهن أنّ الحيوانات تفكّر، لا كالbشر، ولكنّها تفكّر حقّاً، وتنثني وتتألّم، وتتأثّر، وتتواصل، وتبادل، وتتمتّع بلغة، ليست مبنية مثل لغتنا، ولكن لا نجد فيها على الأقلّ كلّ الزّيف والكذب والخداع والاحتيال الذي تسمح به لغة البشر.

لا حاجة لخطب مسهبة، فعين المزارع الخبيرة كافية. يستحلي الفيلسوف أن يضع الدّلائل العاملة في خدمة فكرة مالبرانش الخاطئة والعقل الرّيفيّ السّليم. ما قول رجل الحقول، ورجل فناء الدّواجن، وعامل الأرض بخيوله أو ثيرانه، والفلاح بأبقاره وأغنامه، وراعي البقر، وراعي الخنازير، وراعي الغنم، لو قابلهم الفيلسوف بالخطاب الديكارتّي عن البهائم؟ سوف ينفجرون في ضحكة فلسفيّة رائعة!

يواصل كتاب الوصية: ما دامت ثمة أفكار خاطئة عن الموضوع، فإنّ البشر يطلقون العنان لنزعاتهم السيئة. من ذلك مثلاً تقتيل القطط، الذي يحوّل الرذيلة والشر والانحراف إلى فرجة شعبية يجبها الجميع في تلك الفترة. تلك الاحتفالات القروية الهستيرية التي تلقى خلالها القطط المقبوض عليها لذلك الغرض في أتانين لا تشرف البشر الذي يشاركون فيها. «متع كريهة»، فرح جنوبيّ مقيت، كتب يقول. لو عرف ميليه سبينوزا في بداياته لأمكن له فعلاً أن يشخص «نزعات حزينة».

16

ميليه، فيلسوف كامل الشروط. القطاع الفلسفي يمنح براءات الاختراع والشهادات المطابقة؛ يكرّم في المقام الأوّل المثاليين والمحافظين والمؤلفين ذوي الأسلوب الغامض وهواة اللّغة الملغزة والمفردات المولّدة المنضودة كالدرر. ولم يكن ميليه في وضع مريح، وهو الذي يعلن صراحة إلحاده ومادّيته وشيوعيته في لغة أقرب إلى الشّفوية لا نعثر فيها على أثر للغة القبيلة. وذلك أفضل... إلحاد، رأينا. والآن المادّية. مثلما جدّد ميليه في تأكيد عدم وجود الرّب، ابتكر أيضاً المادّية الفرنسيّة من لا شيء تقريباً. صحيح أنّ غاسندي وُجد قبله. نعرف الحدود المسيحيّة لذريّة⁽⁴³⁾ كاهن ديني القانوني: كلّ شيء مادّة، الكلّ على الإطلاق، باستثناء الرّوح... أبيقور محقّ تماماً إلّا حينما خطّأته النصرانيّة... وهو ما يخلّ بصدقّة

(43) Atomisme: مذهب فلسفيّ يعتقد أن العناصر الأساسية للحقيقة تتشكّل من الدّرة غير القابلة للانقسام والإتلاف، وهي مادّة سابحة في الفضاء.

لنذكر بأنّ الكاهن ميليه يعيش في دير قرية صغيرة بالأردن لم يغادرها قطّ؛ لنؤكد أنّه يشتغل بحفنة الكتب - دون الخمسين - التي يملكها في مكتبته الشخصيّة؛ لنُصف أنّه ينهض بنزاهة، على الأقلّ مع المحافظة على المظاهر، بمهامّه الخوريّة الشاغلة يوميّاً.

بكلام آخر: لم يكن ميليه يخالط أيّ صالون باريسيّ، كما فعل بعده بأعوام دولباك الذي كان يجمع حول نفس المائدة مفكرين كباراً مثل ديفيد هيوم وروسو وكوندورسيه وهلفتيوس وفولتير ودالمبير وديدرو... لم يكن لميليه شارع يقطعه ليغادر فندقاً خاصّاً ويجد نفسه في مكتبة رائعة عامّة أو خاصّة... ميليه لم يكن يعيش بما يعادل مداخيل جابي ضرائب أو ريع نبالة... وبالرغم من أنّه وحيد، بلا مراجع ولا وسائل ترفيه، فإنّ جسامته عمله الاستكشافيّ في حدّ ذاتها عمل باهر. ولنا أن نتخيّل إنتاج هذا المفكر في ظروف أفضل...

بذكائه وحده إذن، بريشته وشموعه استطاع، دون نصوص يعلّق عليها، أو مفكر آخر يستند إليه، أن يضع أسس مادّية دقيقة ومفصّلة لمقاومة ميتافيزيقا ديكارت. فقد دفع الكاهن الملحد، المسرّب بإهاب بشير منفرد، نيران غضبه الفلسفيّ واستوحى الخلاصة الأونطولوجيّة لموقفه الميتافيزيقيّ المتأصل: الرّب غير موجود، لا توجد سوى المادّة. لا توجد سوى ماهية واحدة، وهي تتطابق تماماً مع المادّة. ودون أن يقرأ سبينوزا، أمكن له أن يحوّل انكفاءه إلى ناحية الهدم حيث سينتج آثاراً معتبرة: الجينياولوجيا المادّية الفرنسيّة في

القرن الثامن عشر. ماهية واحدة، المادّة.

الإلحاد يوجب فكرياً هذا الموقف. الخيار الوحيد الممكن لأيّ فيلسوف ينكر التّسامي والثّنائيّة والرّوحانيّة والمثاليّة وكلّ أسقاط العوالم الخلفيّة التي تحدّد كلّ ديانة أيّاً ما تكن، فالمادّيّة تفتح للفلسفة شارحاً غير مسبوق: العالم هنا والآن، الدّنيا، الواقع، الملموس، الحياة المعيشة. لفهمه أولاً وتحويله لاحقاً.

17

أونطولوجيا مادّيّة. تمثّل أونطولوجيا ميليه المادّيّة نظير علم اللاهوت الرّوحانيّ المسيحيّ. الرّب غير موجود لأنّ الكينونة وحدها موجودة، والكينونة هي الطّبيعة. يقين الكينونة ذاك ننعم به لمجرّد أنّنا موجودون. ميليه يقترح نوعاً من الكوجيتو المنطقيّ: إن كنت موجوداً، فلا يمكن أن أشكّ في وجودي – إلّا إذا كان الأمر يتعلّق بتمرين ذهنيّ خالص ناجم عن بيرونيّة⁽⁴⁴⁾ مسليّة. لا حاجة لميتافيزيقا، التّفكير السّليم كافٍ.

لا يخوض الكاهن في الجزئيّة المكوّنة للمادّة التي تحدّد الكينونة. لا نجد عنده مطلقاً فيزياء ذرّات، ووصفاً للهباءات، وميكانيكا تنسيقات ذريّة، ونظريّة انحراف الذّرات⁽⁴⁵⁾: فاسم أبيقور لا يظهر في الوصيّة؛ كتاب في طبيعة الأشياء لا يوجد في مكتبته، ولا رسائل

(44) Pyrrhonisme: مذهب فلسفيّ يُنسب إلى بيرون الإغريقيّ (360 ق م – 270 ق م) يشكّ في كلّ شيء ويرى أنّ كلّ حقيقة احتماليّة.

(45) Clinamen: حسب أبيقور، وكذلك لوكريسيوس، يوجد انحراف في الذّرات يسمح بالتقائها لتشكيل الكون.

أبيقور، أو ديوجينيس اللايرتي الذي كان كتابه *حياة الفلاسفة* يسدّ ذلك النقص. كان ميليه يتصوّر العالم بمفرده، ومادّيته مدينة بإيجابياتها وسلبياتها لذلك الوضع - أي جذتها وحدودها النظريّة.

تلك المادّة تتحدّد سلبياً: هي ليست ماهية ديكارت الجسديّة. في مبادئ الفلسفة، يؤكّد أصيل بواتيبي⁽⁴⁶⁾ أنّها تفترض الطّول والعرض والعمق؛ وتقبل القسمة إلى أجزاء بشكل لا نهائيّ، ولكن ليس على المبدأ الذّريّ؛ فالأجزاء تختلف من حيث الكبر والأوجه والأمكنة والحركات. وميليه يرفض هذا التعريف. المادّة توفّر أولاً المبدأ التّفسيريّ لكامل الطّبيعة.

صحيح أنّنا يمكن أن نطالب ميليه بالتّدقيق. هو يؤكّد مبدأ واضحاً، ولكنّه غير قابل للتّحديد، فكما أنّ العين لا ترى نفسها، لا تستطيع المادّة المفكّرة أن تدرك إذن أو تحدّد أنّها تفكّر. وكما توجد علاقة سببيّة بين العين والرّؤية، بين الأعضاء والحركة، الدّماغ والتّفكير، توجد علاقة بين المادّة والطّبيعة، ولكن في حدود معرفتنا الحاليّة، حسب قوله، لا يمكن أن نقول ماذا ولا كيف.

ما زلنا هناك، والاعتراف الصّادق بحدود العقل خير هذيان صريح غير عقلائيّ. هو بالأحرى إقرار بالعجز يشرف العقل والفيلسوف الذي يعترف بحدوده، بدل عقل زائف يلجأ إلى السّفسطة وخطابة مموّهة فضلاً عن كوجيتو ديكارت. قبل ميليه،

(46) ديكارت ليس أصيل مدينة بواتيبي، فقد ولد ونشأ في تورين، ولعلّ الكاتب يقصد المدينة التي درس فيها مبتكر «الكوجيتو» الحقوق.

كان غاسّندي قد وضع العقل السليم في مواجهة الكوجيتو، ذلك الحيوان الضخم للأدب الفلسفيّ العالميّ.

الواقع، الطّبيعة، الكينونة، المادّة، تلك هي معادلة العالم. جزئيّته تفترض بعدئذ تركيبات وحركات وتشكيلات وتنوعات وتنسيقات لأجزاء المادّة. ومن ثمّ، يبدو من المشروع أن نوّكد: المادّة تحسّ، تتأمّل، تفكّر، ترغب، تحبّ. لنكفّ عن القول: «أنا أفكّر، إذن أنا موجود»، ولنعدّها بقولنا: «المادّة تفكّر، إذن المادّة موجودة».

كلّ ما هو موجوده ينحصر في تشكيل مخصوص للمادّة: الموت والحياة، الفضيلة والرّذيلة، الجمال والقبح، الصّحة والمرض، اللذّة والألم، الفرح والحزن، القوّة والضعف، كلّ ذلك يشكّل عددًا من التنوّيعات في الثّيمة المادّيّة. نجهل أسباب هذا بدل ذاك، ولكنّ هذا وذاك متأتّيان من العمل في المادّة. ميلبيه يتحدّث عن «اختمار متواصل للكينونة» (III، 89) دون مزيد تفصيل.

دون معرفة علميّة – ككلّ كاهن تكوّن في المدرسة الإكليريكيّة –، دون مراجع بيولوجيّة أو فيزيائيّة في متناوله، دون أدوات لملاحظة الصّغير إلى أبعد حدّ، دون نقاش مع أصدقاء علماء مشاركين، لا يمكن لميلبيه أن يذهب أبعد من ذلك، فديناميّة المادّة، على أيّ حال، لم تبح حتّى يومنا هذا بكلّ أسرارها. لنحتفظ باستعارة الاختمار تلك مقارنةً (خاطئة) رغم أنّها تحتوي على حقيقة مادّيّة حيويّة، ديناميكيّة، جدليّة – بالمعنى غير السّياسيّ للكلمة.

لترتيب تلك المادّة قليلاً، أكّد ميلبيه أنّه لا يوجد في الطّبيعة سوى

الزّمن والمكان والفضاء والمدى. الزّمن لم يُخلق - لا من طرف الرّب، الذي لا وجود له، ولا من قبل أيّ كان: لأنّ عمليّة الخلق نفسها تفترض زمنًا كي تتشني وتكون. زمن قبل الزّمن يجعل الزّمن مستحيلًا فلا شيء يسبق الزّمن - إلّا في الزّمن... فالزّمن هنا منذ الأزل «مثل نقطة لا تقبل القسمة ولا مدى لها» (II، 215).

المكان والفضاء والمدى، يقول ميليه بهويّتها النّسيّة. المكان؟ «فضاء أو مدى محدود يحتوي على جسم». الفضاء؟ «مدى أكثر شسوعًا يحتوي أو يمكن أن يحتوي على عدّة أجسام». المدى؟ «فضاء بلا حدود ولا نهاية يحوي كلّ الكائنات وكلّ الأمكنة وكلّ الأفضية التي يمكن تخيلها». خارج أنماط الفضاء تلك، التي هي أيضًا أنماط الزّمن، وبالتّالي المادّة، لا يوجد أيّ شيء.

ومن ثمّ، علينا أن نستخلص مثل الأبيقوريّين: إن كان كلّ شيء مادّة، فالرّوح كذلك. الرّوح تموت إذن بموت الجسد في نفس الوقت. والدّماغ، الذي يؤلّف العالم ويجعل الوعي ممكنًا، يتحلّل، ويتحلّل معه العالم والوعي. لا خوف إذن من الموت ومّا يأتي بعده. بعده؟ لا شيء. المادّة تتحوّل. الموت لا يُخشى، إذ لا أهميّة إلّا لما حدث قبله، أثناء الحياة. الأونطولوجيا (المادّيّة) تضيفي الشرعيّة على إيثيقا (فلسفة السّعادة) التي تتجلّى في شكل سياسة (شيوعيّة).

18

تاريخ طبيعيّ للشرّ. ميليه لا يؤمن، بطبيعية الحال، بالخطيئة الأصليّة كتفسير للشرّ في الأرض. السّلبية لا تنزل من السّماء بل

تصعد من الأرض. بعبارات معاصرة، يمكن أن نقول إنه يقدم عن الشرّ جينالوجيا أخلاقية. هذه الصيغة تتجنب الميتافيزيقا، وتتجاهل التّولوجيا، وتحيد عن الأونطولوجيا التّقليدية، وتقدم نظرية متناسقة للخيار المادّي والملحد للكهنة.

من أين يأتي الشرّ؟ من وجود عدد فائق من البشر في أرض ذات حجم فائق الصّغر في الوقت نفسه. النّذرة النّاجمة عن ضيق الرّقعة ترغم السّكّان على التّقاتل للحصول على أسباب العيش والبقاء. كلّ الوسائل جائزة لتأمين الوجود: حيلة، مكر، خبث، عنف إلى جانب استراتيجيات تدبّر أخرى.

لا نشكّ أنّ ميلييه يسلك سبل علم الرّبوبيّة لتبرير الشرّ. هنا أيضًا ينسج استعارته: الشرّ ضروريّ لأنّه يسمح بتجانس الاتّزان الاجتماعيّ. لو لم يكن ثمة قتل واغتيال بين الأنواع، لغصّ الفضاء بانتشار خطير للبشر والحيوانات. في هذا التّوازن، لا شيء يهيمن، لا أحد يحتكر النّهب، كلّ شيء ينتهي إلى التّعايش في انسجام يسمح للكائن بأن يعيش ويدوم.

هذا المفهوم الطّبيعيّ للشرّ - أو هذا المفهوم للشرّ الطّبيعيّ... - لا يمثّل الميزة المحتومة لخطيئة أصلية. ليس أثرًا لا يُمحى. الآليّة التي تنتج تنحصر في شيء يمكن التّفطن إليه والتأثير فيه. وبذلك يمكن للنّقص الطّبيعيّ الذي ينجم عن ضيق الفضاء أن يزول إذا تمّ تنظيم توزيع الثّروات والخيرات بطريقة مغايرة. لئن وجدت حال طبيعة يسيطر عليها العنف لأسباب آليّة مبدئيًا، فإنّ حال ثقافة يمكن أن

تصلح ذلك باقتراح خطط تنظيم جديدة أخلاقية، وبالتالي اجتماعية، ومشاركة. وهو ما يُوجب مشغلاً سياسياً...

19

فلسفة التجمع العام. ابتكر ميليه أيضاً في المجال السياسي، إذ صاغ لأول مرة متعة اجتماعية وسياسية. صحيح أن فلسفة السعادة كانت موجودة قبله، وكذلك مذهب المتعة أيضاً، ولكنها كانت مسألة فردية بخاصة، حيث لكل فرد مسؤولية خلق سعادته وإنتاج ابتهاج خاص به وحده. ولئن وُجدت سياسات أبيقورية، كلبية، قورينية⁽⁴⁷⁾ فإنها كانت على الهامش، على الحافة، تعميمية ولم تكن مركزية. ومونتاني لم يكن ينتظر من السياسة أن تحقق سعادته الخاصة، ولا أن تساهم فيها. كذلك غاسندي، خلافاً لميليه.

ختم ميليه، الملحد، المادي، المتعي، منظومته بإعلاء «شيوعية عالمية» فيها تضاد كبير لأنها تستند إلى خلية قروية فيما هي تهدف إلى ثورة كونية. تحدّثنا عن «شيوعية»، وهذا ليس خطأً، و«ما قبل الاشتراكية»، وهذا أيضاً صحيح، أو عن «شيوعية متحررة» وهو ما يبدو لي أقرب إلى الصحة. ولكن كلّ واحد من تلك النعوت يُستعمل اليوم من منظور ينحرف عمّا صارت عليه تلك الأفكار في التاريخ منذ قرنين: فلا ماركس أو باكونين، ولا أنجلز أو برودون، ولا لينين أو ستالين يسمحون بأن نفهم جيّداً أو بطريقة أفضل ميليه، الذي ينبغي أن يُقرأ لذاته في إطار تلك المرحلة. دون أن ننسى

(47) Cyrénaïque: نسبة إلى قورينا الليبية (شحات حالياً) وهي مدرسة فلسفية أنشأها أرسطبتس، أحد أتباع سقراط، ترى أن السعادة هدف الحياة الأخلاقية.

أن سبعين سنة تفصل الصفحات الأولى من الوصية عن أول تحرك
لثورة الفرنسية... ولو قدرنا المسألة بفكر الرجل، السابق للنص،
بدل الأثر المكتوب لقلنا إن ميليه سابق عصره بقرن! ليس أقل...

في تلافيف الأثر، لو بحثنا عن الدّور السياسي لتنزيدها في حلية
ثورية، فسوف نبدأ بما يشبه فلسفة تجمع عام. يعني؟ يرسم ميليه
بالتفصيل لوحة العادات وعذاب المزارعين تحت الحكم الإقطاعي
للويس الرابع عشر الذي لا يجد الكاهن ما يكفي من الكمات القاسية
لاستهجانه: سارق كبير، مجرم كبير، قاتل كبير، مستغل كبير، المتهم
بالتخريب والتدمير والاغتصاب والاختلاس واقتراف المجازر
وشنّ الحروب وارتكاب المظالم، وخلق المجاعات. خلال الأعوام
الاثنين والسبعين من عهده المديد (1643-1715) لم تعرف
الأقاليم المستنزفة سوى البؤس والخصاصة. حتى فينيلون يعتقد
ذلك وقد دوّنه في رسالة رائعة...

ابتكر جان ميليه مرثية الصّراع الطبقيّ. المزارعون والعمّال
والفقراء والبؤساء والشعب المتألم في العمل، المخنوق بمكوس
وضرائب، المستعبّد ذهنيّاً وروحانيّاً ومادّيّاً بصفة يومية من جهة،
ومن الجهة الأخرى القساوسة والملوك، الأساقفة والأمراء، رجال
الدّرك ورجال العدل - هو يكتب رجال الظلم ويسمّيهم: موثّقو
العقود، وكلاء النيابة، المحامون، كتّاب المحاكم، المراقبون، أمناء
الشّركة، الرّقباء، القضاة، المتواطئون مع المنحرفين، شرط أن يكونوا
من ذوي النّفوذ -، الجباة، ملتزمو الضّرائب وسواهم من «محصلي

الضرائب غير القانونية جرذان القبو»، والنّبلاء، و«الأغنياء الكسالى» الذي يتمتعون بخيرات هذا العالم، يأكلون ويشربون ويرقصون ويمزحون ويتسلّون ويضحكون في الصّالونات. أولئك الأقوياء يملكون أفضل الأراضي، وأجل البيوت، وأحسن الموارد، ويعيشون من ريعانهم ومكوس يستخلصونها بعنف من العمّال، وهو ما لا يمنعهم من أن يمنعوا في الطّلب ويستزيدوا على الدّوام.

الأوائل لا يملكون شيئاً، الأواخر كلّ شيء. أولئك المجرّدون من كلّ شيء لا يملكون شيئاً ويستحقّون كلّ شيء؛ وهؤلاء يملكون كلّ شيء ويستحقّون ألا يملكوا أيّ شيء، ولذلك فهم يستحقّون أيضاً أن يُجرّدوا من أملاكهم، بالرّغم من أنّ المتخمين الرّاضين النّبلاء الأغنياء المالكين يريدون هم أيضاً أن يروا الفقراء يزحفون. ذلك الوضع يخلق الكراهية بين البشر. الصّراع الطّبقي يولّد الكراهية بين الطبقات. أيّ فيلسوف فكّر كذلك، بُعيد عام 1700؟ أيّ ثوريّ محتمل، محامياً هنا وجابيّ ضرائب هناك، ومالكاً كبيراً في مكان آخر، يوافق في تلك الأوقات على هذه الأفكار؟ لقد كان ميليه صاحب رؤية...

20

جمهوريّة فلسفة سعيدة. ذلك التّفاوت في المؤسّسة يتناقض مع المساواة الطّبيعيّة. وميليه يؤمن بالقانون الطّبيعيّ. ليس قانون المسيحيّين (القانون الثّقافي لديانتهم الذي تحوّل إلى قوانين للطّبيعة)،

بل قانون دعاة القانون الطَّبِيعِيّ – الذين لم يقرأهم على أغلب الظنّ: غروتِيوس⁽⁴⁸⁾، بوفندورف⁽⁴⁹⁾... –، الذين يرون أنّ البشر يتمتّعون بشكل طبيعيّ بحقّ الحياة كي يكسبوا كلّ يوم غذاءهم وكساءهم وسكنهم، ويضمنوا بكرامةٍ تربية أطفالهم، وكذلك كي يتمتّعوا بحرّيتهم الطَّبِيعِيَّة، فيعملوا بعدئذ لأجل المنفعة العامّة والصّالح المشترك.

ولوضع حدّ لذلك الوضع البائس الذي ولّده المملكيّة الفرنسيّة بمساعدة الإكليروس الكاثوليكيّ، يطالب الكاهن اليساريّ بالحقّ والقانون: فالقوانين السّليمة يمكن أن تجعل النّاس أسوياء. إذا كان البشر في حال الطّبيعة – هو لا يستعمل العبارة – خاضعين للقانون العنيف للصّراع من أجل الوجود، فإنّ حال الحضارة ينبغي أن تسمح للقانون بتحقيق العدالة. ميليه يحدّد غايتين: «الملك العام» ومشروع «للعيش في سعادة» (II، 75). يعني جمهوريّة فلسفة سعيدة.

21

الكنيسة تساند الطّغاة. في منطق المعاينة الذي توخّاه ميليه، جعلت الكنيسة الكاثولوكيّة جور ملوك وأمراء تلك الفترة ممكناً. بولس الطّرُسوسي قالها وأعادها: كلّ سلطة آتية من الرّب، من

(48) Hugo Grotius (1583-1645): رجل قانون وعالم دين هولنديّ، أحد واضعي أسس القانون الدّوليّ اعتماداً على القانون الطَّبِيعِيّ.

(49) Samuel von Pufendorf (1632-1694): رجل قانون ومؤرّخ وفيلسوف ألمانيّ صاحب نظريّة «الاجتماعيّة الطَّبِيعيّة» و«قانون الطّبيعة والنّاس» الذي بسط فيه نظريّته عن القانون الطَّبِيعِيّ.

يصمد أمامها أو يتمرد عليها فمعناه صمود أمام الرّب وتمرد عليه. السّطة الرّوحانيّة للقساوسة تدعم السّطة الدّنيويّة للملوك لاستعباد الشّعوب. ذوو الرّؤوس المكلّلة⁽⁵⁰⁾ والمتوجّه يلجؤون إلى التّهديد بلعنة خالدة بعد الموت ويستغلّون المخاوف الوجوديّة لتغذية الاستعباد.

يقول الملوك في البداية إنهم مبعوثو الرّب؛ ثمّ يقومون بانزياح معتبر ويؤكّدون أنهم من الآن فصاعدا هم الأرباب. وبما أنّ رجال الدّين لا يكذبون، كلّ بل يؤكّدون، فإنّ الشّعب البسيط، المرعوب من قضاء الرّب، وغضبه ومهارته المعتادة في التعذيب، يرضى بالانحناء أمام أناس الرّب مثل أناس البلاط الذين يشكّلون معًا عائلة واحدة ووحيدة.

الكهنة والرّهبان والقساوسة والأساقفة والبابا، ولكن أيضًا الملك وكلّ حاشيته، ثمّ أعوانه في أطراف الأقاليم النائية، يتصرّفون معًا لخلق المخاتلات الدّينيّة وتدعيمها. الدّين لا يعيش إلّا بالدّجل، ويولّد بدوره دجلًا سياسيًا. السّيف والمرشّة يعيشان بوافق. والكاثوليكيّة والملكيّة «يتوافقان مثل قاطعي طريق»...

يهاجم ميليه الرّاهبين والرّاهبات الذين يلبسون لباسًا مضحكًا ويعيشون في الأديرة حيث لا يعدمون مألًا ولا غذاء أو شرابًا. هم في الدّفء، حيث الأكل الجيّد والعناية اللاّزمة، لا ينقصهم شيء.

(50) المقصود هنا رجال الدّين الذين لهم دائرة مخلوقة في قمة الرّأس كي يقبلوا في الإكليروس.

بساتين البقول والزينة رائعة. ضياعهم تدرّ أرباحًا كبيرة. ولكن من الحيف الموصوف أن نرى أولئك الطفيليين ينعمون بكلّ تلك الخيرات، لأنّهم يسلبون ما «يحقّ للعمّال الطيّبين الحصول عليه».

ولكن الغريب أن يتحامل جان ميليه بذلك القدر على المرتدّين عن الحياة الرهبانيّة والقساوسة النظاميّين الدنيويّين - من راهبين ورؤساء أديرة وكهنة قانونيّين - ويجد العذر لقساوسة الرّيف وكهنته... صحيح أنّ أهل قطاعه يدرّسون خرافات مقيّة، وينشرون أفكارًا خرقاء، ولكن ندين لهم بشيء هامّ: كانوا ينقلون القيم والفضائل.

زملاء ميليه يدرّسون الأخلاق، وهو أمر ضروريّ، بل أساس، في «كلّ جمهوريّة محكمة التنظيم» (II، 32). عندما يدعو القساوسة إلى الخير، فإنّهم يعملون «للصّالح العامّ» (نفسه)، ومن ثمّ، يمكنهم أن يتقاضوا أجورهم من المال العامّ، لأنّهم يستحقّون أجرًا وليسوا طفيليين مثل آخرين... والثّورة الفرنسيّة، حين دعت رجال الكنيسة إلى أداء القسم الدّستوريّ عام 1790، تندرج ضمن هذا المنطق!

22

غرامشيّ في عهد لويس الرّابع عشر. يواصل الكاهن اليساريّ منطق جمهوريّة فاضلة، من الضّروريّ بالنّسبة إليها أن تعمل في علاقة مع من تعارف على تسميتهم بالمتّقين (لم تكن الكلمة قد وجدت بعد) - وهي كلمة مولّدة ابتكرها كليمنصو عند انفجار قضيّة دريفوس... ميليه يتحدّث عن أهل الفكر، والخطباء، الأكثر

حكمة واستنارة - وهي استعارة ترد لديه باستمرار.

ماذا يمكن، ماذا ينبغي أن نتظر منهم؟ على المنوال الغرامشي، ينبغي بدء الثورة بنضال فكري يومي: نكتب، نتكلم، نقول، نحكي، ننشر الأفكار الضرورية: نجري جردًا للوضع القائم، نغزل أسباب البؤس والاستغلال، نير الشعب حول اشتغال الماكنة الإقطاعية، نقول له إننا يمكن أن نغير الأمور ونظام العالم عن طريق ثورة.

ينبغي لرفاق الدرب الثوري أن يحثوا الشعوب في كل مكان على زعزعة نير الطغاة الذي لا يُحتمل. ميليه يؤمن بـ«أنوار العقل الإنساني وحدها» وبالأثار الدينامية «للعقل الطبيعي». هل يمكن أن يصوغ المرء بشكل أفضل، وحيدًا، بلا أصدقاء، بلا مناوبة، في قلب الأردن العميقة نفسها، في دير كاهن في الأرياف، في نهاية القرن السابع عشر، المثل الأعلى للأنوار كما ظهر بعد ذلك بنصف قرن؟

كان الكاهن اليساري، بالرغم من عزلته، يعاين ويتأسف لغياب المثقفين عن ساحة الغضب الثوري وعن رفقة المعذبين في الأرض. بعد ذلك بعشرات السنين، سوف يحقق غلاة الأنوار حلمه النظري قبل أن يثمن رأيه المسعورون⁽⁵¹⁾ واللامتسرون⁽⁵²⁾ والهيبرتيون أو

(51) Les Enragés: الاسم الذي أطلق على الثوار الذين قادهم كاهن دستوري يدعى جاك رو Jacques Roux (1752-1794).

(52) Les Sans-culottes: اسم أطلق في بداية الثورة الفرنسية على المتظاهرين من أبناء الشعب الذين يرتدون السراويل المخططة بدل السراويل الفاخرة، رمز لباس الأرستقراطية في العهد القديم.

زميله الكاهن جاك رو أحد مشاهير اليساريين عام 1789، على أرض الميدان هذه المرّة، في شوارع المدن، بباريس والمناطق الدّاخليّة.

23

كيف تكون الثّورة؟ تقترح الوصيّة إذن الثّورة: أيّ ثورة؟ وكيف؟
ولأجل قيام أيّ نظام جديد؟ أوّلاً، المنهجية: العصيان، التّمرد، عدم الخضوع. في مكتبة ميليه الكتاب الرّائع لدو لا بويسي⁽⁵³⁾ **خطاب العبوديّة الطّوعيّة**، الذي ينتحل منه أطروحاته وأفكاره. بمعنى؟ الثّابت: السّلطة لا تقوم إلّا برضا من تُمارس عليهم؛ الحلّ: كفّوا عن تزكيتها وسوف تسقط في الحال.

الأمر السّياسيّ المطلق لصديق مونتاني واضح، وفعاليّته رهيبية: «كونوا حازمين في الكّف عن الخضوع بعد اليوم، تصبّحوا أحراراً». يأخذ ميليه الفكرة: كفّوا عن إعطاء الغنيّ كلّ شيء، أقصوه من مجتمعكم، أخرجوه من عالمكم بفرض ما يزعم أنّكم مدينون له به. عمليّاً، لا يوضّح الكاهن، ولكنّه يبتكر العصيان المدنيّ العزيز على هنري ديفيد ثورو: كفّوا عن دفع الإتاوات، ارفضوا الضّريبة، قولوا لا لضريبة الملح، تمردوا على الأعمال الشّاقة.

المشروع الثّوريّ لا يتوقّف عند هذه الدّيناميّة الثّوريّة البويسيّة، فميليه يضيف إلى هذا الزّمن الأوّل القوى العاملة الدّيناميكيّة، والرّغبة المتعمّدة في الاتّحاد لقلب الأعراس وتدميرها. في هذا

(53) Étienne de La Boétie (1530-1563): رجل قانون وشاعر وكاتب فرنسيّ نال شهرته عن كتابه المذكور أعلاه، الذي يثير فيه شرعيّة أيّ سلطة على شعبيّها ويحلّل أسباب خضوعه. وكان دو لا بويسي صديقاً لمونتاني.

السّياق، يمتدح بوضوح قتل الطّغاة. كتب يقول: «صرع أو طعن كلّ تلك الوحوش المقيّنة وأعداء الجنس البشريّ» (III، 133) ... انتقام؟ كلاً: إرساء حكم العدالة والحقيقة.

يضيف إلى ذلك إلغاء المِلْكِيّة الخاصّة. قبل النّقد الذي قام به روسو في خطاب في أصل التّفاوت بين البشر، جعل ميليه الامتلاك والانتفاع المنفصل بالملكات سببي كلّ الشّرور. فبهما ينتصر الأكثر دهاءً ومكرًا وخبثًا على الفقراء ويملكون وسيلة استنزافهم.

بعد إلغاء المِلْكِيّة الخاصّة، ينبغي تحقيق المِلْكِيّة المشتركة – «الانتفاع المشترك». كلّ ما يُحصّل عليه بالعمل، من ثمار الازدهار والمهارة، يوضع في المجموعة بشكل مشترك. الخلية القاعدية؟ العائلة. ولكنها خلية، حلقة في السّلسلة. هي لا تمثّل نهاية هذه الشّيعيّة الرّيفيّة، بل نواتها المنظّمة. ينبغي أن تستلهم القرية من التّنظيم العائليّ. والقرى، حين توثّق عقودًا لتحقيق السّلام، تبني فرص الازدهار الاجتماعيّ وسعادة العيش المشترك. تصوّر قبليّ للسّلام الدّائم الذي هدف إليه الأب دو سان بيير⁽⁵⁴⁾ – الذي هو نموذج كائط...

المتعيّة الاجتماعيّة تقترح السّعادة للجميع ولكلّ فرد. سعادة غير مثاليّة، بل واقعيّة، ملموسة، براغماتيّة: عمل، قوت سليم كافٍ لكلّ يوم، العيش والنّوم في بيت نظيف دافئ، غذاء، لباس، وسائل لتربية الأطفال، إمكانيّة العلاج عند المرض.

(54) Charles-Irénée Castel de Saint-Pierre (1743-1658) الشّهير بالأب دو سان بيير: كاتب وأكاديميّ فرنسيّ، أحد ممثلي الأنوار السياسيّة.

في قرن كان فيه الشعب يعيش يومه ببؤس، ملفوف بأسمال بالية، ينام في الإصطبلات أو على زبل قشّ قرضته الهوام، يعاني من نقص الأغذية أو المجاعات، ويقع ضحية للأوبئة والجوائح، ينبغي أن تكون السّعادة ملموسة، يمكن تحقيقها الآن وهنا. سوف يقول سان جوست⁽⁵⁵⁾ بعد ذلك بأعوام قليلة إنّ «السّعادة فكرة جديدة في أوروبا»: ميليه وقع شهادة ميلاد تلك الفكرة الصّائبة.

تفترض التّشاركيّة المحليّة الممتدّة إلى الكونيّ أن تكون عالميّة. صحيح أنّ ميليه يفكّر للقرية، ولكنّه لا يتصوّر حلّ المشاكل على الرّقعة المحدودة للجمعيّة القرويّة. «سأكلّم عن طيب خاطر كلّ شعوب الأرض» (III، 154) كتب يقول مبتكرًا أيضًا مبدأ تصدير القيم الثّوريّة إلى الكوكب كلّ. ليس لليون تروتسكي إلّا أن يعيد القراءة...

كان ميليه ملحدًا ومقاومًا للمسيحيّة وأناركيًا وشيوعيًا وتشاركيًا وماديًا ودولانيًا وثوريًا ويساريًا وكان إلى ذلك (!) فيلسوفًا، وقد مثّل بمفرده عبقرية الثّورة الفرنسيّة. هذا الكاهن الرّائع يتلقط ويجمّع في شخصه الإلحاد الصّريح لأناتشارسيس كلوتس⁽⁵⁶⁾ وهوس بير دوليفيه⁽⁵⁷⁾ بمقاومة النّصرانيّة، وغضب هيبير

(55) Louis Antoine de Saint-Just (1767-1794): خطيب مفوّه وسياسيّ من أنصار روبسبير خلال ثورة 1789.

(56) البارون Jean-Baptiste de Cloots (1755-1794) الشّهير بـ Anacharsis Cloots : مفكّر وسياسيّ فرنسيّ من أصل بروسيّ.

(57) Pierre Dolivier (1746-1830): كاهن بقرية في ضواحي باريس، شارك قولًا وكتابة عند اندلاع الثّورة الفرنسيّة في الجدل حول التّنظيم السّياسيّ ونظام المِلْكِيّة.

الملحمي، وفضيلة سان جوست الجمهورية، وشيوعية رفاق بابوف⁽⁵⁸⁾، وشغف الأب غيرغوار⁽⁵⁹⁾ بالعدل، وسعار فارليه ومومورو وجاك رو⁽⁶⁰⁾، و«ديانة الخنجر» (ميشليه) لدى شارلوت كورداي⁽⁶¹⁾، والتعلق بالشعب لدى مارا⁽⁶²⁾، ورغبة «المساواة والانتفاع» لدى اللامتسرولين... أن يكون مثل هذا الشخص قد وُجد، ها أن البشرية تجد لها فجأة تبريرًا!

24

فولثير يسلب الجثث. توفي جان ميليه في نهاية يونيو 1729. اكتُشفت في بيته رسالته التي تركها إلى الرهبان ومخطوط الوصية. حتى ذلك التاريخ، لم يكن أحد قد قرأ له. تلك القنبلة الموقوتة كانت في أربعة نظائر. بمرور الوقت، كانت تنمو وتتكاثر على طريقة الحوارين... وسرعان ما بيع المخطوط غاليًا، غاليًا جدًا، خفية: أكثر من مائة وخمسين نسخة انتشرت في باريس بعد موت الفيلسوف بنحو خمس سنوات.

(58) كان أنصار غراكوس بابوف Gracchus Babeuf (1760-1797) يُنعتون بالمتساوين Les Egaux، وقد حاولوا الانقلاب على «حكومة المديرين» بباريس عام 1796.

(59) L'Abbé Grégoire (1750-1831): كاهن كاثوليكي فرنسي وأسقف دستوري وسياسي. من الشخصيات الرئيسية في الثورة الفرنسية.

(60) Jean-François Varlet و Antoine-François Momoro و Jean Roux من الثوار الملقين بـ "المسعورين".

(61) Charlotte Corday (1768-1793): ارستقراطية ساهمت في الثورة الفرنسية ونالت شهرتها من اغتيالها لصديق الشعب مارا.

(62) Jean-Paul Marat (1743-1793): طبيب وفيزيائي وصحافي وسياسي فرنسي. يُلقب بصديق الشعب.

بين الماركيزات وأصحاب البنوك المزوّقين من ذوي الدّم الأزرق،
سمع فولتير بهذا الكنز من طرف صديق طفولته نيكولا كلود تيريو،
الذي أعلمه بوجود هذا الأثر الفيلسوفيّ الخطير في رسالة مؤرّخة في
شتاء 1735. فكلف فولتير مراسلة بأن يحصل له على نسخة، سوف
يقرأها كاملة. بحماس طبعًا، ولكن بتحفظات أيضًا، لأنّ فولتير
ليس الفيلسوف الذي يقال عنه ولا الرّجل الذي نظنّ، فهو يكره
إلحاد ميليه، ويكره أكثر مشروعه التحريريّ.

هذا الانتهازيّ الماكر، صديق الأقوياء، المداهن، الرّاغب في
صداقات المنفعة، المرتاب من الأخلاق، الأنانيّ، هو تأليهيّ أقام سرًّا
مع الدّيانة الكاثوليكيّة علاقة أكثر حميميّة ممّا توهم به سيرته الدّاتيّة
المألوفة، سيرة الشّخصيّة العامّة التي صارت صرحًا قومياً. لم يكن
بطبيعة الحال يحبّ الكاهن الذي ينكر وجود الرّبّ وكلّ إله؛ بل
يزداد سخطه على الإدانة الرّاديكاليّة، التّامة والمطلقة لكلّ ديانة، تلك
الإدانة التي تتكرّر على طول صفحات الوصيّة؛ ويكره طبعًا المشروع
الثوريّ والشّيعويّ.

صاحب رسائل فلسفيّة يؤمن بالرّبّ، ويعاشر الكاثوليك - حتّى،
وخاصّة، حين يمهر رسائله بـ «اسحقوا الشّائن»...-، وقد كتب
صفحات ذات عنف نادر ضدّ الملحدّين، وسعى للحصول على بقايا
شيء ثمين للكنيسة التي أمر ببنائها في أرضه بفيرني، وأرسل في هذا
الشّأن التماسًا إلى البابا شخصيًّا، كما أنّه كان يتعهّد بهاله مرشدًا في
كنيسته الخاصّة بسيراى، وخطّط في وقت ما أن يُدفن في المبنى

الكاثوليكيّ الذي بُني لهذا الغرض... هذا المتعصّب لا يجب كلّ ميليّه، دون شك.

كان المدافع عن كالاس وسيرفن⁽⁶³⁾ وباقي القضايا الإعلاميّة المفيدة لنحت صنمه يجب الحرّيّة، وهذا صحيح، ولكن كفرصة تمرين على منوال عليّة القوم. لأنّه إذا تعلّق الأمر بحرّيّة الشعب، والصّغار، والمستضعفين، والمزارعين، وسكّان الأرياف، وأهالي المناطق الدّاخليّة الذين يستنزفهم الأقوياء، يختار الوقوف بوضوح في صفّ الملوك والأمراء، والنبلاء والأساقفة.

هذا الفيلسوف ذو الاستنكار الانتقائيّ لا يجد ما يكفي من كلام قاسٍ للحديث عن «المعدّمين الجهلة»، و«الأندال» و«الرّعاع» الذين يمثلهم بـ «ثيران يلزمها نير ومنخس وتبن»... الدّين ضروريّ للعبيد، وليس للمفكّرين. فكيف يمكن للعمل الكامل للكاهن أن يحظى بإعجابه؟

بلا حياء، صنع فولتير نسخة مزوّرة، فقلّم وقصّ وأهمّل وأضاف فقرات ممّا كتبه الكاهن كي يوهّم بأنّ الكاهن ميليّه كان... لنقل فولتيريّاً! وهو شجاع ولكنّه ليس جسوراً، إذ أسند إلى الرّاحل الكبير كلمات، وبما أنّها وردت على لسان شخص آخر فهي تسمح له بالنّجاة من النّقمة الكاثوليكيّة والملكيّة. بعنوان مختارات من مشاعر جان ميليّه، أصدر فولتير عام 1761 نسخة مزوّرة شوّهت عمل

(63) التّاجر جان كالاس والحرفيّ جان بول سيرفن اتّهما ظلماً لكونهما بروتستانتيّين في بلد كاثوليكيّ ودافع عنهما فولتير.

ميلييه. صحيح أنه سكت عن الإلحاد والمادّية والشّيوعيّة والثّورة والمعجزات والنبوءات وهذا كثير، ولكنه زور خاصّة كلام الكاهن كي يجعله تأليهيًا، نصيرًا مثله للديانة الطّبيعيّة... وبما أنّ السّم في الدّيل⁽⁶⁴⁾، فقد ختم فولتير ذلك النّص بقوله إنّ الأثر... «شهادة قسّ يُحتَضَر، يطلب من الرّبّ مغفرته». ميلييه يطلب المغفرة من الرّبّ! يخيّل إلينا أنّنا نحلم... لا يمكن أن نأتي بعمل أكثر إثارة للتّقزّز من هذا...

25

نهب ومصائر بعد الوفاة. لمدة طويلة لم نعرف إذن عن ميلييه سوى ذلك المقال الفولتيريّ الرّديء. أرسل فولتير ثلاثمائة نسخة من ذلك النّص إلى أصدقائه، ودفع من جيبه طبعة ثانية ثمّ ثالثة، فكانت الإساءة بليغة - فقد ذهب كلّ المكسب الفكريّ إلى المتعصّب المعادي للإكليروس.

في الأثناء، كانت نسخ المخطوط الأصليّ لا تزال موجودة. لا ميتري علم بإحداها في بلاط فريدريك الثّاني ملك بروسيا. وكان هلفتيوس ودولباك يعرفان الوصيّة، ويستعملانها دون ذكرها إطلاقًا، فقد نشر البارون صاحب نظام الطّبيعة نسخة مختصرة من كتابه عام 1772، عنوانه رشاد الكاهن ميلييه، دون أن يورد أيّ كلمة للكاهن المذكور. الشّيء نفسه مع سيلفان ماريشال⁽⁶⁵⁾ الذي

(64) باللاتينية في الأصل in cauda venenum

(65) Pierre Sylvain Maréchal (1750-1803): كاتب وشاعر وناشر فرنسيّ. ناشط جمهوريّ شغوف بالمساواة الاجتماعيّة، وأحد رواد الإضراب العامّ والأناركيّة.

حاول التعريف بالأثر في برميل ديوجينيس، ثم نشر التعليم المسيحي للكهنة ميليه لم يذكر فيه شيئاً عن الكاهن... ساد نهب دولباك، الذي أخذ كثيراً عن ميليه: صفحات من كتابه الأول - حوار بين كاهن ومُحتَضَر (1782) - والفلسفة في المخذع أيضاً، كلّها مدينة لمعتزل الأردين.

غلاة عصر الأنوار يكرعون من هذه العين ولكنهم يسكتون عن دينهم. بعض الثّوار، أقلّ شهرة، يستشهدون بالمفكر الكبير: لانغي، وديمولان مثلاً. في 17 نوفمبر 1793، طلب أناتشارسيس كلوتس من المجلس التأسيسي تنصيب تمثال في معبد العقل (تكريم تأليهيّ سخيف لا شكّ أنّ كاهننا ما كان ليقبله...).

بعد الثورة الفرنسيّة، انتهى عهد سوء التفاهم. وأمكن لميليه أن يصبح أخيراً ما هو: كاهن ملحد، راهب ثوريّ، فيلسوف مادّيّ. والنّص الكامل، بلا تنقيح أو تزوير، صدر أخيراً عام 1864 بفضل رودولف شارل دابلانغ فان غيسنبورغ⁽⁶⁶⁾ تحت اسم رودولف شارل في طبعة بثلاثة مجلّدات في أمستردام. العنوان؟ وصيّة جان ميليه.

عام 1919، نقش البلشفيك اسمه على مسلّة في موسكو. صار ميليه رائد الاشتراكيّة العلميّة، وأُدْمِج في المغامرة السّوفييتيّة! وإمبراطوريّة لينين تُعَدّه فيلسوف عظيمًا حيث يحتلّ في تاريخها الرّسمي موقع ديكارت عندنا. وهو تكريم آخر لا يقلّ سخفًا عن

(66) Rudolf Charles D'Ablain Van Giessenburg (1826-1904): مؤرّخ هولنديّ.

نصب تمثال في معبد العقل! بعد سحق السلطة البلشفية للبحارة
المتحررين في غرونستاد، صار ميليه مثالا للتمرد ورفض الخضوع
بدل أن يكون مثالا لرفقة السلطة. لأنه كان ولا يزال مرجعا لكل
فكر متمرد، وبالتالي لكل عمل سياسي جدير بهذا الاسم. التكريم
الوحيد الذي ربما كان سيوافق عليه؟ أن يُقرأ ويُمارس...

(II)

لا ميتري و«الهناء الدنيوي»

1

يسوع جديد مزيف. هو فيلسوف عصيّ عن الإمساك، متغير الشكل، مازح، مهرّج، هزليّ، مضحك، شاطر، يدعى جوليان أوفري - أوفرّوا، أونفري، أونفرّوا، كان الرّسم في ذلك الوقت غير دقيق... - دو لا ميتري. وكان يطمس الآثار، ويعقّد الأمور، ويخلط خيوط حياته وأثره وفكره. ترك بعده مشغلاً متشابكاً ومعلومات متناقضة، خليطاً من المعطيات المتضادة يبدو من المستحيل أن نرسم عنه بورتريه فكرياً خالياً من الضبابية والتّحريف وعدم الدّقة.

من ذلك مثلاً تاريخ ميلاده: 25 ديسمبر 1709 تؤكّد كلّ المنشورات التي تخصّص جذاذة مبتسرة عن المؤلّف - وأنا أولهم في مناسبات أخرى... فريدريك الثّاني يدرج هذا التّاريخ في كتّبه مديح دو لا ميتري. وكان الأمير قد أجاز الفيلسوف لمُدّة طويلة في بلاطه ببوتسدام، ويبدو جديراً بالثّقة؛ وقد سار على خطاه الكبير فريدريخ

ألبرت لانج⁽⁶⁷⁾ في أحد فصول عمله الضخم تاريخ المادية (1866) خصصه لصاحب الإنسان الآلة. أمّا تاريخ الفلسفة، الصادر في سلسلة لابلداد، فلم يرتكب نفس الخطأ – والسبب أنّه لا وجود لأيّ فصل عنه...

آخرون يكرّرون المعلومة الخاطئة في دراسات أحادية: من ذلك مثلاً أول دراسة متقصية لنيري كيبا⁽⁶⁸⁾ (الاسم المستعار لرونيه باكيه) في مقالة عن لا ميتري، حياته وآثاره (1873) أو دراسة حديثة لكلود موريللا⁽⁶⁹⁾ مادية راديكالية.

بيد أنّ شهادة ميلاد دو لا ميتري في مدينة سان مالو تثبت أنّه ولد فيها بتاريخ 19 ديسمبر 1709، من أب تاجر أقمشة أو مجهّز سفن أو يمارس كلتي الحرفتين، وأمّ بائعة أعشاب طبيّة. علاوة على أنّ هذه النادرة، التي تشهد على أنّ التاريخ الرّسميّ في الفلسفة يعمل بالتّبعيّة ونادرًا ما يذهب إلى المنابع، تكشف أيضًا عن ملمح مريب: الثّابت أنّ لا ميتري يعرف تاريخ ميلاده الحقيقيّ، ولكنه يدّلسه. لأيّ غاية؟ لنقدّم هذا الافتراض: بما أنّه ولد في اليوم الذي وُلد فيه المسيح، منقذ البشريّة، ذلك اليوم الذي نحسب انطلاقًا منه تاريخ البشر في الأرض المسيحيّة، فتلك غمزة فلسفيّة ظريفة تتطابق مع طبيعة الرّجل! نراهن أنّ تلك المزحة الذي بدرت منه تجاه بعضهم – في

(67) Friedrich-Albert Lange (1828-1875): مؤرّخ وفيلسوف ألمانيّ.

(68) Nérée Quépat (1845-1927): رجل قانون ومؤرّخ وعالم طيور فرنسيّ.

(69) Claude Morilhat: فيلسوف فرنسيّ معاصر. آخر ما صدر له "السلطة والعبوديّة والأيدولوجيا".

بلاط فريدريك الثاني ليلة نويل؟ - وتجاهه هو نفسه، صارت بطريقة
مرحة كلمة إنجيل مادّي. ثم تولى منطق التاريخ الرسمي، مرتكب
المحارم، القيام بالباقي...

لشئ أنّه يُعدّ في تاريخ الفلسفة الحديثة مخلصًا في مجاله. ذلك أنّه نظر
للمادّيّة بعيد ميليه في عمل ألفه خصيصًا لهذا الغرض. يدعم المادّة
ويجعلها موضوع روايته الفلسفيّة التي يطرح فيها عواقب نظريّته في
المجالات الإيثقيّة والسّياسيّة والأونطولوجيّة والميتافيزقيّة.
وبالرّغم من اهتزازات الأثر النظريّة، فإنّه يقترح بديلًا مقروءًا عن
الروحانيّة المهيمنة في الفلسفة السّائدة في الغرب. كلّ المادّيّة الفرنسيّة
في القرن الثّامن عشر تنهل بوفرة من عين الفتوة الفكريّة تلك -
وبكثير من الجحود.

2

سقراط عند أبقراط. زاول لا ميتري دراسته في كوتانس بالمانش،
ثمّ في كان⁽⁷⁰⁾ لدى اليسوعيّين، وأخيرًا في باريس بكوّلاج بليسي.
حاز قلنسوة طبيب في رانس، وليس في باريس حيث واصل دراسته،
لأنّ تعهّد عدد من الطّلبة، والهدايا الواجبة لأعضاء اللّجنة العلميّة،
وطول الولاّئم المشتركة الضّروريّة لنيل رتبة طبيب، أقلّ تكلفة في
الجهات الدّاخليّة منها في العاصمة حيث يعتبر أسبوع القصوف
إجراءً عاديًّا للتّدرب.

(70) Caen: مدينة في الشّمال الغربيّ لفرنسا، في محافظة نورماندي. وهي غير Cannes المطلة على المتوسط.

في أغسطس 1734، انخرط لا ميتري في سجلّ أطباء سان مالو ولكنه لم يفتح عيادة خاصّة. كان يودّ تحسين أدائه، واتّجه إلى لايدّه بهولندا، حيث قضى سنتين في ترجمة أعمال هرمان بورهاف (1668-1738) - الملقّب بـ «أبقراط هولندا» عن اللاتينية، والكتابة عن ذلك الرّجل الفريد، وكان وقتئذ ذائع الصّيت في أوروبا.

وكان بورهاف قد ترك بعد وفاته كتابًا قليل إنّه جمع كلّ أسرار الطّب: غير أنّ الكتاب المسفّر تسفيرًا باذخًا لم يكن يحتوي سوى على أوراق بيضاء... في الرّسم المقابل للعنوان كُتب: «فلتجعلوا رؤوسكم نديّة، وأقدامكم حامية، وبطونكم حرّة، ولتسخروا من الأطباء». كنصير وفيّ، أبدع لا ميتري خاصّة في الاقتراح الثّالث! وهو ما لم يمنعه من نشر خمسة كتب علميّة ما بين 1739 و1741، لتعميم طبّ هذا الرّجل، الذي لم يكن غريب الأطوار فحسب.

ولمّا عاد إلى مدينة سان مالو، باشر الطّبّ طيلة ثماني سنوات. وفي عام 1739، تزوّج أرملة محامٍ في البرلمان، أنجبت له طفلين. وعندما غادر فرنسا إلى بروسيا، رفضت زوجته أن تتبعه. في بوتسدام، كان يلهث كثيرًا وراء النّساء، ويضاجع كثيرًا، ويفرط في الفجور دون عقد، ويعاشر فتاة يزعم أنّها ابنة أخته، جعل لها فريدريك الثّاني نفقة بعد موت «الخال»...

المسيرة المهنيّة للطّبيب الفيلسوف - لم يصّر بعد الفيلسوف الطّبيب الذي نعرفه - بدأت مع الدّوق دو غرامون كطبيب شخصيّ.

وبوصفه طبيباً جرّاحاً للحرس الفرنسيّ، عَرَفَ رائحة البارود في ميادين القتال بديتّغن، وحمّى المعارك في فونتونوا، وصبر الحصار في فريبورغ.

عام 1742 حوّل أبقراط إلى سقراط. في مسرح العمليّات العسكريّة، غشيت لا ميتري غيبوبة. تلك الصّدمة النّفسيّة الفيزيولوجيّة فتحت ذهنه. بعبارة أخرى: جرّب من خلالها جسديّاً اتّحاد الرّوح والجسد. إشراق فلسفيّ: المادّيّة، تلك هي الحقيقة الفلسفيّة! ذلك اليقين لا يوجد في صفحات كتاب، بل في لحم جسد يجرّب الغشية كما يتلقّى النّعاس والجُمدة والسّكّنة الدّماغية والسّبات وغيرها من حالات الوعي المحوّرة: الرّوح والجسد، ذاك النّمطان لنفس الكائن المادّيّ، يترنّحان ويتأرجحان في آن واحد. صيغة وجوديّة نادرة... لا وجود لجسد وروح منفصلين، ولا لماهية غير مادّيّة في جسد قابل للخطيئة، ولا لماهية مادّيّة متميّزة عن الماهية المفكّرة. أفلاطون والمسيحيّون وديكارت مخطئون. كان للدّرس أثرٌ لازمةٌ في الأعمال الكاملة: «لا توجد سوى ماهية واحدة محوّرة بشكل مختلف» - أي المادّة. أمر مطلق راديكاليّ لكلّ فكر مادّيّ.

3

مديح الفيلسوف الطّبيب. استخلص لا ميتري الدّرس من غيبوبته - سوف يؤلّف لاحقاً رسالة في الدّوار - فحدّد الفلسفة. ضحك من التّعريف الكلاسيكيّ، وسخر من المفكّر رفيق طريق «اللامادّيّين» أي المسيحيّين ومريدي ديكارت. الميتافيزيقيّ

والأخلاقيّ والتّولوجيّ يستوون مع الرّاهب. خطّابهم؟ في معظم الأوقات، استكمالات من كتب أخرى، استنتاجات مليئة بالكلام الملتبس، حكايات يتداولها أكثر قدر من النّاس بالتّساوي مع كلامٍ معتوه.

ولا ميتري يؤكّد ذلك مباشرة في الخطاب التّمهيدّي (1751) لأعماله الفلسفيّة: «أن تكتب بوصفك فيلسوفًا معناه أن تدرّس المادّيّة». ومن ثمّ، كان يتأرجح بين نقد الفلسفة (القديمة) أو يمدح الفلسفة (الجديدة): تتناوب السّخرية من الحكماء الرّوحانيّين القدامى والاعتبار الإيجابيّ تجاه الفيلسوف المادّيّ. الفيلسوف على النمط القديم لا يصلح لشيء. يتحدّث في البداية عن النّاس الذين إمّا لا يقرؤونه - الشّعب - أو الذين يستطيعون قراءته، ولكنّهم يعرفون ما يوجد في كتبه. كثرة تناقض الخطابات الفلسفيّة من قديم الزّمان لم تمنعه من أن يكون كما ينبغي أن يكون، فالفيلسوف لا يمثّل أيّ خطر على المجتمع. في عالم تسوده الحتميّة، ما جدوى فيلسوف يمنح وصفات طيّبة؟

في منطق سبينوزيّ شهير - لا نضحك ولا نبكي، ولكن نفهم -، كتب لا ميتري في المضادّ لسينيكا أو خطاب في السّعادة: «لا أصلح، ولا أعظ، ولا أفخم الكلام، بل أفسّر». من ينسّ هذا الجهر بالرّأي لا يصبّ معنى الأثر. الطّبيب الذي يتفلسف يعمل في هيئة مُقارِن وعالم تشريح وفيزيائيّ ونصير منهج تجريبيّ. يكتب ذلك بانتظام: أحسن فيلسوف؟ الطّبيب. دفاع ذاتيّ لا محالة، ولكن فيما وراء

السّخرية يوجد خيار حقيقيّ عميق: التّفلسف ليس مسألة أفكار ومفاهيم بل مسألة حقائق ملموسة.

هذا الموقف الفلسفيّ يستبعد كلّ إمكانيّة ميتافيزيقية. الفلسفة الوضعيّة ستعبرّ عن الشّيء نفسه في القرن الموالي. موضوع الفلسفة؟ العالم ولا شيء سواه. السّلاسل السّببية، آليات الواقع، تنسيق الأسباب والآثار ووضع كلّ ذلك على مستوى مثوليّة، ذلك هو المشروع. حادثة تجذّر الفلسفة ذاك في مادّة العالم، في لحم الأشياء، ذلك عهد جديد للفلسفة. ومن ثمّ، يمكن لا ميتري أن يبتدع ولادة معجزة في مستوى المصلوب...

4

تُقرع له الأجراس. نشر لا ميتري كتابه الفلسفيّ الأوّل تاريخ طبيعيّ للرّوح عام 1745. عدّله عام 1750 فصار رسالة عن الرّوح. جاء مبتورًا من الجهاز النّقديّ، وشكّلت هوامشه المنشورة مُختصرَ المنظومات. فقد كان لا ميتري يقطع عمله تقطيعًا... كان قد بلغ السادسة والثلاثين، ونشر ستّة عشر كتابًا وعدّة ترجمات ومصنّفات علميّة مختلفة، ولكن لا شيء في مجال الفلسفة. ولم يبق له من حياته سوى ستّ سنوات...

في لوحة الكتب المنشورة، وقّع لا ميتري باسم مستعار سياسة طبيب ماكيافيليّ حيث تهكّم، باستعمال كُنّى واضحة لجمهور تلك الفترة، على نخبة الطّبّ في ذلك الوقت أمثال أستروك، شيراك، فالكونيه، سيغونيّ، بويك، سيلفاس. وقد عرفوا أنفسهم في غمزاته

ولكن المؤلف أنكر ذلك. وفي طبعة جديدة، أورد في ذيل الكتاب قائمة الأسماء ومقابلها. فكان الانتقام مضموناً!

في قائمة ضحاياه، الطبيب الأوّل للملك، ستّة أطباء عاديّين أو من مشاوري الطبيب، طبيب أطفال فرنسا، ثلاثة أساتذة في الكولاج دو فرانس، عميداً كليّة... نشر أيضاً رسائل أخرى جادة في الزّحار والأمراض التناسليّة والرّبو والدّوار كما أسلفنا، ثمّ رسائل في فنّ حفظ الصّحّة وإطالة الحياة. هذا العمل السّاخر يضمّ ألفاً وستّمائة صفحة منشورة...

كتابه تاريخ طبيعيّ للروح يمثّل إذن أوّل كتبه الفلسفيّة. وكان أثره مضموناً: فقد سبّب لقسّيس الحرس الفرنسيّ سكتة دماغيّة، فبادر القسّيس فور اطلاعه على أطروحات الكتاب بإعلان النّفير! وهي مقدّمة لما ينتظر كلّ كتاب يصدر له: ناقوس الخطر، القساوسة، الأقوياء، وكذلك الفلاسفة الذين سيضربونه ضربة رجل واحد، وقد صدمتهم راديكاليّة مواقفه الفلسفيّة. ثمّ جاء التّرويج الأكبر من البرلمان، بطلب من رجال الدّين: تمزيق الكتاب ورميه في محرقة بيد جلاّد....

عندئذ بدأ تيه الكاتب لتجنّب إعدامه. أوّلاً هولندا، ولكنّه اتّهم بالتّجسّس، وتلك مزحة أخرى؛ غادر على عجل غاند إلى ميدلبورغ ثمّ إلى لايد، حيث ألّف الإنسان الآلة، كفرصة أخرى لإثارة الغضب. انتشر الكتاب خفية، أو في نسخ مخطوطة، باهظة الثّمن. وحقّق نجاحاً واسعاً! وصار جوليان أوفري دو لا ميتري في أوروبا

«السيد الآلة». قلّة الحذر تلك أجبرته مرّة أخرى على ترك سكّنه.

5

البروكة والصُدرة وفطيرة التّدرج. يَسّر له صديقه المالويني (نسبة إلى سان مالو) موبرتوي سبل الوصول إلى بلاط ملك بروسيا فريدريك الثّاني في بوتسدام. نحن الآن في 7 فبراير 1748، وسوف يقضي هناك أعوامه السّتّة الباقية من حياته القصيرة. سرعان ما تمّ تعيينه عضوًا في أكاديمية العلوم. وسوف تسمح له تلك الأعوام بتشكيل فلسفته: كتب، جدال، عمل، ولكن كهاوٍ نسيبًا...

يحتفظ التّاريخ الصّغير (ذلك الذي يهتم بالتّفاصيل والجزئيات) بالألفة التي ربطت الفيلسوف بالملك، حيث كان يدخل حجرته دون استئذان، ويخلع برّوكته ويلقيها على الأرض عند اشتداد الحرّ اشتدادًا يُضايقه، أو لدواعٍ خصوصيّة خالصة، فيفكّ أزرار سترته ليبرز صدرة كابية تنقصها الدّنتيّلا، ويستلقي مطمئنًا بكلّ طوله على الكنبّة المملكيّة... كان في قرابة الأربعين، ببطن بارز قليلًا، وذقن متدلّ، وبداية صلح يستره أحيانًا بقبّعة عريضة. كانت الرّسوم المواجهة لعناوين كتبه تُظهره ضاحكًا فرحًا مرحًا منتعشًا، يقظًا جدًّا. قيل إنّ سمّوه كان يتسلّى بهذا الخليّ المرح، الفيلسوف الصّداميّ.

خلال عشاء في بيت ميلورد تيركونيل، أقبل لا ميتري على إحدى هواياته المفضّلة: المائدة. كان عليها فطيرة تدرج تناولها الفيلسوف بشراهة مفرطة. وقد حوّل فولتير، الذي لم يكن حاضرًا، لحم الفطيرة، فصار نسرًا محاطًا بدهن رديء. أمّا شاتوبريان، الذي لم

يحضر الوليمة هو أيضًا لأسباب معروفة، فقد حوّل اللحم المطبوخ إلى فطيرة أنقليس. وأيًا ما يكن الأمر، فإن آلة السيّد الآلة في مجال الذّواقة تعطلت. سوء هضم... أثناء جولة بلياردو تلت المأدبة، انتاب الفيلسوف ألم... تمّ فصده ثماني مرّات، واستحمّ مرارًا. دون جدوى. بعد عشرين يوم من المرض، توفّي لا ميتري يوم 11 نوفمبر 1751 في الثالثة صباحًا. كان عمره اثنين وأربعين عامًا.

لقد عبّر لا ميتري مرارًا عن رغبته في العودة إلى فرنسا. ولعلّه توقع موته بعد ذلك الاحتضار الطّويل، إذ عبّر عن تمنّياته بأن يُدفن في أرض فرنسيّة، في حديقة السّفارة. لم تُلبّ أمنيته، والأدهى بالنسبة إلى ذلك الفيلسوف المادّي الذي لا يبالي بالتّسامي، أنّه دُفن في كنيسة كاثوليكيّة فرنسيّة. وقد دمّرت المكان عمليّات القصف خلال الحرب العالميّة الثّانية. لم يبق أيّ أثر لتلك الآلة التي كانت فيما مضى جامعة، باستثناء كتبها...

6

بورترية ذاتي في هيئة مدمن أفيون. يتحدّث لا ميتري بطيب خاطر على لسان المتكلّم، نسجًا على منوال مونتاني - «فيلسوفي»، كما قال - الذي يعتبره، وفق ما كتب في **المضادّ لسينيكّا**، أوّل فرنسيّ تجرّأ على التفكير. صحيح أنّ الآثار لا تُقارَن، فالمالويني يبدو مريدًا راديكاليًّا - مونتاني «وقد جُنّ» كي نحكي ساخرين كلمة عن ديوجينيس قدّمته على أنّه «سقراط وقد جُنّ»... عمله لا يمكن أن يُستقى من كتاب واحد، استبطانه أقصر، والمساحة الفلسفيّة التي غطّاها أقلّ

اتّساعاً، ولكنه يحافظ على تلك الفكرة العبقريّة لمؤلّف المقالات التي مفادها أنّ الفكر يتجذّر في ذاتيّة يحدّدها جسده وأنّ الأنا ليست مكروهة، بل ثمينة، ومحبوّة اشتقاقياً.

انطلاقاً من ذاته، تقترح سرديّته الفلسفيّة عالماً كونياً. على غرار مونتاني الذي يستنتج من حادثه على الحصان درساً فلسفياً في الحياة وتقديرات مفيدة لسائر البشر، يجذّر لا ميتري فكره في تجربة وجوديّة: سكنته الدّماغية في ساحة القتال كما أسلفنا. واستنتاجات رسالة الدّوار تنطلق من ملاحظة حالته، يليها وصف بالغ الدقّة للأعراض الجسديّة لتلك التجربة. والأعمال الكاملة فتقدّم تنوعاً حول تلك الثّيمة التي جاءت بها تلك الصّيغة الوجوديّة النّادرة.

في مكان آخر، يروي ويقترح بورتريه ليس جسديّاً بل أخلاقيّ وذهنّي: لطيف، مرق، صبور، هادئ، إنسانيّ، قدريّ عند المرض والألم والنّائم، أبيقوريّ في مجالي المتعة والصّحة. يعترف أنّه ذو «مزاج سعيد»، وهو ما يُعدّ، في إطار حتميّة فلسفته المادّيّة، اعترافاً ودليل حكمة مطلقة. من ثمّ، وأمام الشدّة والخبث والهجوم والثلب، وكان قد تلقّى منها الكثير بدوره، يضحك بدل أن يبكي أو يصبّ جام غضبه على طعنات القدر.

في منظومة أبيقور - حيث يشغل في الغالب مقدّمة الرّكح بدل الفيلسوف في الحديقة... -، يعترف بأنّه لو قدّر له أن يعيش من جديد فسوف يكون بالضّبط كما عاش: في الأكل الفاخر، والرّفقة المرحّة، والعيادة واللّباقة، موزّعاً أوقاته بين الطّبّ والفنّ والنّساء -

اعتراف بعدد مغامراته الجنسية (خمس أو ست) يبدو أنه يجعل منه رفيقاً سعيداً للجنس اللطيف.

صحيح أنه ليس تعريفاً دقيقاً، إذ قلما يتوقف عند الجزئي وفحوى المفاهيم، يؤنب الفاسقين وفي الوقت نفسه يحتفي ببترونيوس⁽⁷¹⁾ بالرغم من كونه ليس مثلاً يُحتذى في الزهد... فمثله الأعلى كان الشبق المبني، المحسوب، الذي يمنح العقل سلطة تسيير الأمور. عندما طرح تلك النظريّة عن فنّ متعة يستجيب لإرادة، والصفحات المخصّصة لتبيان الصبغة القاسية للحتميّة في الطّبيعة، لا نكاد نفهم تأكيده التّمييز بين الفاسق والشّبقيّ ما دام كلاهما خاضعاً لقانون الطّبيعة بصرف النظر عن الحسن والسيّئ...

في رسالة الدّوار، في رسالة الرّوح، في رسالة شعريّة إلى الأنسة أ. سي. بي. أو الآلة المجنّدة، في المضادّ لسينيكّا أو خطاب في السّعادة، في الإنسان الآلة، وهذا بصراحة كثير، يعترف رجلنا الشّبقيّ بتعاطي الأفيون. صحيح أنّ الطّبيب يستعمله لعلاج مرضاه، ولكنّ الفيلسوف جرّبه في استعماله الخاصّ، وليس فقط حسب وصفة من كلّية الطّب...

من الواضح أنّ تلك الجنّة الاصطناعيّة تناسب المادّي لأنّها تختبر وحدة الذات، واتّحاد الرّوح بالجسد في المادّة. ولكن الأفيون، لسبب أقلّ تجريبيّة، يصنع الشّبق حسب الطّلب. ولا ميتري يصف تلك

(71) Petronius (27-66): كاتب وسياسيّ من روما القديمة. اتّخذه نيرون حكماً في المسائل الدّوقيّة.

الحال بحماس وسعادة وفرح ومتعة: الأفيون يمنح سباتًا خفيفًا، قريبًا من النوم، ويعطي هناءً فوريًا، ويفتن الآلة، فيحدّد بالفعل جنة الآلة، وفتنة الروح. هذا العلاج الربّاني، يقول لا ميتري، أنجع بكثير من كلّ رسائل الفلسفة!

7

تخييل ذاتيّ بمسحوق الجرذان. كان لا ميتري، بوصفه هاويّ جنة اصطناعيّة، يعرف مخاطر الجرعة المفرطة. في عمليّة استعراض لشخصه بطريقة ساخرة، فكّهة، مقلّدة، قدّم الفيلسوف نفسه بوصفه هاويّ أفيونٍ لا محالة، ولكن بوصفه أيضًا مستهلك مسحوق جرذان... فكتاب رسالة شعريّة إلى الأنسة أ. سي. بي. أو الآلة المجندلة، وإن قيل أحيانًا إنّه مزيّف، يُظهر الفيلسوف وهو يستسلم للجرعة الشهيرة، فالأفيون يضع الفرد في حال يتمنّى أن تدوم، والموادّ السّامة لها نفس التأثير. وجد لا ميتري نفسه عند بلوتون⁽⁷²⁾ حيث نجح دجالون في قتل رجل ميّت خنقًا. في تلك الأوديسة، ينهي لا ميتري مسيرته الآليّة في مزمار قرية...

في نصّ آخر من نفس الصّبغة - رسالة شعريّة إلى عقليّ أو المجهول المتّهزأ، المختلّف في نسبته هو أيضًا -، يواصل لا ميتري شخصيته الذاتيّة ويعترف ببعض الأخطاء: التّسرّع في الكتابة دون خطّة ولا فكرة متّبعة ولا رؤية عميقة. نوافقه من حيث الشّكل: نصوصه لا تنطلق من حديقة المنوال الفرنسيّ، بل من المناسخ البريّة الكثيفة،

(72) Pluton أو Pluto: إله الثّراء في الميثولوجيا الرّومانيّة.

وبدايات الإزهار، والحيويّة النباتيّة، ووفرة الرّوكوكو، والاستطراد.
لا وجود لخطّ قوّة واضح، بل طعوم، وفسائل على فرع مائل.

في المقابل، لم تكن أفكاره معمّقة لا محالة، ولكنها تظلّ عميقة. فلا
ميتري لا يمنح لنفسه الوقت للتّوقّف، إذ كان يكتب بسرعة وبلا
جهد، يفكّر كما يكتب، بمزاجه، كرّجل مستعجل. لم يكن له الصّبر
على المصطلح، كما هو متوافر بغزارة لدى الزّمرة الفلسفيّة المقابلة إلى
حدّ المراوحة في مكان واحد في الغالب. مفاهيم فكره الكبرى -
جسد، روح، مادّة، آلة، متعة، شبق، سعادة، ضرورة، ندم - لا
تخضع لتحديد دقيق، ولا تحليل عميق. سرعة تفكيره تولّد أحيانًا
اضطراب القول. ولكنّ صوت الفيلسوف على الأقلّ يُسمع عند
قراءة كتبه. فكر حيّ...

8

التّكاثّر الغنائيّ للأثر. حتّى سنة 2007، لم تكن ثمة قائمة موثوق
بها في أعمال لا ميتري. فكيف يمكن حينئذ أن نشتغل على مدوّنة
متناسقة؟ لا سيّما أنّ المالىيني عدّد فرص الالتباس عن قصد -،
احتياطًا، تخفيًا - أو عن غير قصد - بسبب طبعه البركانيّ والمشوّش.

لنضع في حسابنا أيضًا سلسلة من تراكب الحقول وتداخلها في
الأعمال الكاملة. فالتّاريخ الرّسميّ يفصل ويدخل في خانات كتبًا
تُقرأ على أنّها تدرج في عمل كامل. من ذلك أنّ الأعمال العلميّة
والأعمال الفلسفيّة مفصولتان تكلفًا: والحال أنّ الإنسان الآلة ينتمي
إلى الحقلين الطّبيّ والفلسفيّ، وصنّاعة بينيلوبي يشمل الحقلين؛ نفس

الملاحظة بخصوص الفصل بين المجال الجادّ والتّخطيّ في كتاب خطاب تمهيدّي، وبين المجال السّاخر في كتاب رجل صغير بذيل طويل، أو التّعارض بين الجانب الجداليّ المتعمّد الموجود في طيب ماكيا فيليّ والجانب نفسه غير المقصود في المُضادّ لسينكا أو خطاب في السّعادة؛ وفي مواضع أخرى وضعت الصّياغة الفلسفيّة في مُختَصَر المنظومات وجهًا لوجه مع الصّياغة الظّريفة الخفيفة الحضريّة البهويّة في الشّبق أو في فنّ الانتشاء الجنسيّ. والحال أنّه ما من كتاب ينتمي صراحة إلى جنس محدّد. الأساليب، النّبرات المختلفة وحتىّ المتناقضة، تتبدّى في الآثار كلّها في مواضع شتّى. القراءة ينبغي أن تكون بنفس العين: لا ميتري هو نبرة فلسفيّة، أسلوب تفكير، طبع.

في هذه الغابة من الكتابات لا نعدم تناقضات. لا يسمح عمل لا ميتري سوى ستّ سنوات فقط. ومن شأن قصر تلك المدّة أن يخلق انسجامًا نسبيًا، إذ لا نغيّر الأفكار والآراء طوعًا بمرور الوقت. ولكن لا ميتري، حتّى في هذه المدّة القصيرة، يتناقض. وأعتبر أنّ مردّ ذلك هنا أيضًا إلى تعجّل فيلسوف برّي لا يسعى إلى التّعميق، ولكنّه، كحال النقاش في الصّالونات، يعبر عن فكرة، بخفة، ثمّ يؤكّد عكسها في المواجهة الذاتيّة الموالية. فهو في عدم ثبات الجدي الذي يقفز من صخرة إلى أخرى...

المواضيع التي تختلف بشأنها الآراء هامّة: في الإنسان الآلة، يؤكّد لا ميتري وجود قوانين الطّبيعة. الأدلّة: البشر يعرفون تبكيت الضّمير لا محالة ولكنّ المتوحّشين يعرفونه أيضًا، وكذلك

الحيوانات، وهذا دليل على وجود نوع ما قبلي إيثيقي، سابق لأيّ تربية، نوع من الفضيلة الطّبيعيّة. حسن. ولكن في مرّة أخرى، خصوصًا في منظومة أبيقور وفي المضادّ لسينيكّا، يصبح تبكيت الضّمير ثمرة خالصة للتّربية... أي أنّه يفترض إذن أن يكون غائبًا لدى الحيوانات والمتوحّشين والأطفال!

وفي موضع آخر، يقول إنّ للحيوانات روحًا لامادّيّة، انظر الحيوانات أكثر من كونها آلات، في حين أنّ بقيّة الأعمال تشهد على مادّيّة كلّ شيء، حتّى الرّوح إذن، وهو ما يظهر في كامل رسالة في الرّوح. في هذا الكتاب الأخير، يذكر لا ميتري بوضوح وجود أرواح ثلاث، في حين أنّه ينكر في كتابه الأشهر الإنسان الآلة تلك الثلاثيّة، وهو إنكار يكرّره أيضًا في الإنسان النّبته. مرّة يزعم أنّ ملذّات الجسد تفوق ملذّات الرّوح، ومرّة العكس، ولكن لتذكّر أنّ الجسد والرّوح يشكّلان ماهية واحدة ووحيدة.

لا ريب أنّ لا ميتري لا يعيد قراءة ما يكتب، ولا يعمل على ترتيب نصوصه بعناية بغرض نشرها نهائيًّا، وكان يضيف كراسات هجاء، وكتب نقد لاذع، ورسائل شعريّة ساخرة. ثمّ لا ننسَ أنّ فيلسوفًا قارب الأربعين، حتّى وإن كان واعيًا نظريًّا بحتميّة الموت، لا يفكّر فيه كحدث قريب. وكان لا ميتري يشتغل على إنجاز أعمال كاملة مختومة بعنانيته حين وضعت فطيرة التّدريج حدًّا للمغامرة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

استراتيجيات الإخفاء. ثم لا ننس أن الكنيسة، في منعطف النصف الأول والنصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت تقيم بحماسٍ محارق، ليس للكتب وحدها، وإنّا لأصحابها أيضًا، أو أي شخص لا يظهر حمية متحمسة لعبادة المسيح. لتذكّر ما حصل للفارس دو لا بار، الذي لم يخلع قبّعته خلال زِيّاح⁽⁷³⁾ 13 أغسطس 1765، فاتهم ظلمًا بأنه أتلف صليبًا في مفترق طرق، وتفوّه بعبارات بذية معادية للنصرانية. وكانت النتيجة أن عُذّب وأعدم في أبيفيل في أوّل يوليو 1766، أي بعد موت لا ميتري بخمس عشرة سنة.

نفهم عندئذ كيف أن لا ميتري تعرّض مرّتين أو ثلاث مرّات لديكارت باحتراز: كان لا محالة يقدر فيه المناضل الفلسفي، ومبتكر العقل، وناشر المنهجية، والمدافع عن الوضوح، والقابر للسكولائية، والمفكر المشفوع بالعالم التجريبي، ولكنّ ساءه أن عددًا من أفكاره مثّلت تنازلات في عهده خشية المضايقات وخوفًا من الانتقام. حقيقة ديكارت لا يُبحث عنها في براهينه عن خلود الروح أو في نظريته عن الماهيتين - «فتلك حيلة» -، وإنّما في مراسلاته حيث يسيطر الحذر. مثال غاليليو يثبت أن المرء ينبغي أن يعرف كيف يرتّب لنفسه حياة هادئة.

لا جدال أن لا ميتري، في المطلق، يدعو الفيلسوف إلى التحدّث بحريّة ووضوح، والالتزام، والتّفكير بلا عوائق، وتحمل عمله الذي

(73) الزّباح عند المسيحيين: طواف بأشياء مقدّسة، كالأيقونات أو القربان، داخل الكنيسة أو خارجها.

يعارض، إن كان حقيقياً ونزيهاً، الأخلاق المهيمنة والديانة الكاثوليكية. ولكنه، في الوقت نفسه، يطالب الفيلسوف بتوخي الحذر، إذ كتب يقول في خطاب تمهيدى: «فكروا عالياً ولكن استروا». في فرنسا، كان يخشى السلطات، وفي هولندا أيضاً. أمّا في بلاط فريدريك الثاني، الملك الفيلسوف الذي يجهر بإلحاده، فلم يكن الفكر الحر مجرد كلام.

ولكن ينبغي الحذر. خصوصاً إذا كان المرء يفكر في العودة ذات يوم إلى فرنسا. وهو ما جعله يعرض أطروحته بكل المكر اللازم: نترك الحديث لمنافس مزعوم، نعطي الكلمة للمحد، نحلل حججه، فتنأهى إلى علمنا؛ نترك الكلمة لمعارض لخلود الروح، نقد بطريقة رخوة، ولكن الفكرة تمرّ، وتنقل. تلك الاستراتيجية الإرادية للعرض داخل العرض، والسخرية الفلسفية - نطلق خطاباً ونحن نعرف أن ذكاء القارئ ونباهته وفطنته سوف تعيد الأفق الحقيقي وتقودهم إلى تبين الانحلال الإرادى لمحاوّر الهجوم وزواياه -، إضافة إلى الميل للإرادى لدى لا ميتري إلى خليط الأفكار وعدم الدقة المفهومية والتناقض، نجم عنهما تزايد احتمالات الأخطاء والقراءات المجانبة للصواب.

في ترسانة منطق الحذر والإخفاء، يتلاعب لا ميتري دون شك، مثل كثير غيره في تلك الفترة، بالأسماء المستعارة وأسماء ناشرين مزيفين وأماكن نشر مزورة. أضف إلى ذلك تغيير العناوين عند إعادة النشر، وإضافات وعمليات حذف، ومنشورات متفرقة

لأجزاء سبق دمجها في كتاب اختفى منه عنوانه القديم...

ولتعزيز كلّ ذلك، يلجأ لا ميتري إلى طريقة غريبة في التّصرّف: يكتب بأسماء مستعارة نصوصاً تهاجم كتبه. ثمّ يردّ على الهجومات، فيمنح نفسه الدّور الأجل لمبارز منتصر بسهولة لا سيّما أنّ العدوّ من صنع يده! وهو ما يفسّر كثرة الإلمحات - «كما قال»، «كما كتب»، «كما يفكر»، «كما يؤكّد مؤلّف الإنسان الآلة»... -، من عدّة كتب يستشهد فيها بأفكار، ولكن بمقاطع كاملة من كتاب آخر له. ولنفس عندئذ صعوبة التّقدّم في تلك الغابة الفلسفيّة حيث يضحك الكاتب من محو الآثار قبل أن يغلق من ورائه الممرّات التي قطعها بساطوره...

10

ثلاث نتف من خيط أريادني. لكي لا نضيع في تلك المتاهة، أقترح خيط أريادني⁽⁷⁴⁾. ولتجنّب معارك النّسب، أختزل آثار لا ميتري في ثلاثة أعمال مؤكّدة: خطاب تمهيدّي (1751)، الإنسان الآلة (1747 ومؤرّخ في 1748) والمُضادّ لسينيكّا أو خطاب في السّعادة (1750). أي: أبستمولوجيا في المجال الفلسفيّ، بيان مادّيّ راديكاليّ، ونظريّة عن اللاّأخلاقيّة رغم كونها فضيلة وشبقيّة... وكلّها تعبّر عن فكر ما بعد مسيحيّ حقيقيّ.

(74) في الميثولوجيا الإغريقيّة، هو الخيط الذي ساعدت به أريادني ابنة ملك كريت الأمير الأثينيّ ثيسوس كي ينجو من متاهة حُبس فيها المينوتور، وهو مخلوق نصفه الأعلى ثور ونصفه الأسفل إنسان. وقد صار التّعبير دلالة على الاستعانة بشيء ما للخروج من مأزق شديد.

قبل كلّ شيء، لتأمل مسألة إلحاد لا ميتري. أين يمكن أن نقرأ في آثاره بكلّ دقة إعلاناً ينكر وجود الرّب؟ ولا في أيّ مكان. متى كتب: «الرّب غير موجود»، «هو سرديّة متخيّلة»، أو «لا يوجد ربّ»؟ إطلاقاً. في أيّ مكان يدافع لا ميتري عن الإلحاد؟ ولا في أيّ مكان. ورغم ذلك، فالتّاريخ الرّسميّ، بما في ذلك جناحه اليساريّ، يتحدّث في كلّ مكان عن إلحاد الفيلسوف – باستثناء الرّائع بيير لوميه (75).

فهل يعني ذلك عدم الأخذ بعين الاعتبار المقاطع التي يؤكّد فيها أنّ الرّب موجود... هل هو حذر أم تضليل؟ أم فنّ بارع في تشويش الأوراق الفلسفيّة عند فيلسوفنا؟ القائلون بخيار إلحاد لا ميتري يؤكّدون ذلك... ولكن عندما يتحدّث في المُضادّ لسينيكا عن «المخلوقات المتحرّكة»، فهو يشير بعدها مباشرة إلى «الفاعل المعبود الذي صنعها». في الإنسان الآلة، في «أعلى درجة من احتمال» وجود «كائن أسمى» وليس عدم احتماله... هذا إذن تأليهيّ.

في الأسطر الموالية، يبطل مفعول قبلته وينتقد التّأليهيّ الذي حسبنا أنّه كذلك بنفس الجرأة! قفزة أخرى، وموقف آخر: يؤكّد أنّ الإجابة لا أهميّة لها في وجود (أو عدم وجود) الرّب. على أيّ حال، لا يمكن أن نعرف شيئاً عن هذا الموضوع. لقد صار التّأليهيّ غنوصياً. ثمّ، روائع تأليهيّة جديدة، متبوعة، بطبيعة الحال، بخطوة إلى الوراء واستنتاج شديد الحذر: في نهاية الأمر، لا يأخذ موقفاً

(75) Pierre Lemée (1881-1962): مفكّر فرنسيّ معاصر.

ويعترف بأنّه «بيرونيّ خالص»... ولتتدبّر محكمة التفتيش أمرها مع كلّ ذلك، فسوف يعرف الرّبّ أتباعه. وهذا شكوكيّ.

ولإتمام هذا الملفّ، ينبغي أيضًا أن نقرأ رسالة كتبها لا ميتري لزوجته التي بقيت في بروتاني، وكانت ردًّا على موت ابنه جان جوليان ماري، عن سنّ تناهز العامين، فقد أضناه الألم واعترف منهاريًا بلا جدوى الفلسفة في مثل تلك الظروف. في تلك الورقة الخاصّة التي يفترض أن تبقى كذلك، لم يكتب للأجيال القادمة، ولا لتسلية الجمهور، ولم يتخذ موقفًا فلسفيًا، بل كان يتألّم. لم يكن ذلك عذرًا كاذبًا، فالحقيقة هي الغالبة. وماذا كتب؟ في مناسبتين، تحدّث عن الرّبّ وأكد أنّ ذلك الموت المشؤوم بإرادته: فهو يعاقب زوجته لأنّها رفضت مرافقته إلى المنفى ويعاقبه هو لأنّه ضحّى بكلّ شيء من أجل مجد كاتب واهم. فهل هي كلمات ملحد؟

11

نفي الرّبّ باطنيًا. الإنسان الآلة يؤكّد بوضوح أطروحته: «لا توجد في الكون كلّ سوى ماهية واحدة محوّرة بطرق مختلفة». وهو ما يجبرنا منطقيًا على أن نستخلص أنّ الرّبّ إذا كان موجودًا في تصوّر العالم لدى لا ميتري، فإنّه يمتزج بالمادّة. إذا كان لزامًا أن نبحث عن انسجام في فكر الفيلسوف في هذا الموضوع، فلنجنح بالأحرى إلى حلوليّة مادّيّة، نوع من سبينوزيّة الماهية المتماثلة مع المادّة. السّاعاتيّ الأكبر ليس بعيدًا، ولو أنّه يحتلّ مقعدًا ثانويًا في توازن خطير. وهذا حلوليّ...

لئن كان لا مِترِي غير واضح في مسألة الرَّبِّ، فهو شديد الوضوح فيما يخصَّ النَّصرانيَّةَ - حتَّى وإن كان يبرع في عدم مواجعتها مواجهة صريحة أو الجهر بأنَّها عدوٌّ. في هذا المجال، يبدو خيط أريادني أكثر تجلِّياً للعيان لأنَّ فلسفة لا مِترِي كلَّها تتعارض نقطة نقطة مع المعتقد المسيحيِّ. فمادَّيته المتعيَّة لا تترك أيَّ مكان للرَّبِّ المسيحيِّ. في الأعمال الكاملة عدَّة تنويعات - أقترح منها سبعة - في ثيمة المضادِّ للمسيحيَّة. لنوضِّح.

أوّل تنويع: الرَّبِّ، الذي يُحتزل في المادَّة وحدها، لا يمثِّل ربًّا شديد الكاثوليكيَّة: ربَّ أتباع المسيح يوسِّم بأنَّه متميِّز عن العالم، وخالقه، أي سابق لمخلوقه؛ يوسِّم أيضًا بصفات إنسانيَّة: غيور، منتقم، عطوف، رفيق، شهم، رحيم؛ كما تُضفى عليه خصال لا تتناسب وعجز البشر: كلِّي القدرة، كلِّي الوجود، كلِّي العِلْم، خالد، أبديّ، غير مخلوق. ما من صفة من تلك الصِّفات الميتافيزيقيَّة تسمح بوصف الرَّبِّ اللَّامِترِي المحتمل...

ثاني تنويع: الكاثوليكيَّة تعلِّم كره النَّفس؛ فالأنا في نظرها مكروهة، والخطيئة الأصليَّة غالبًا ما تبرز إذا بدا قليل من حبِّ الذات... ولا مِترِي يأخذ موقفًا واضحًا من ذلك الشَّغف: كيف يمكن أن نحبَّ الآخرين إذا كنَّا لا نحبُّ أنفسنا؟ الكراهيَّة كنتاج لعجز المرء عن تقدير نفسه حقَّ قدره، ذلك أحد أسباب البؤس العلائقيِّ.

مادّية راديكالية. التنويع الثالث يخصّ المادّية. العالم حسب الكنيسة يفترض هيتين ذواتي علائق معقّدة: الجسد والروح. الشنائية المسيحية تؤكّد موت الأوّل وخلود الثانية، وتعلّم طبيعة الأوّل الخطّاء واحتمال خلاص الثانية. الإنسان الآلة يفنّد تلك الشيزوفرينيا الضارّة. فالطبيعة والبشر والحيوانات، كلّها تُختصر في اختلافات من جهة تنظيم لمادّة الواحدة. لا وجود لأيّ شيء خالد في هذا التّصور للعالم - باستثناء المادّة، كحقيقة وحيدة... يختصر لا ميتري كلّ رؤى العالم في منظومتين، لا أكثر: الروحانية والمادّية. واختياره واضح.

الروح موجودة لا محالة، ولكنّها تسمّى الجانب الذي يفكر داخلنا. ويخطئ ديكارت في هذا الموضوع، ويجانب تناقضًا فادحًا: كيف يمكن لماهية مفكّرة، لامادّية، أن تقيم في الجانب المادّي لماهية مادّية؟ في مكان، الروح التي ينبغي لها أن تكون بلا مكان تصبح ما هي في الحقيقة: نمطًا من المادّة! لا ميتري يقبض على ديكارت في حالة تلبّس بالاشتطاط... الروح موجودة، وتتكوّن من مادّة، وتوجد في الدّماغ. وبصفتها تلك، وحسب المعايير المادّية، تموت في نفس الوقت الذي يموت فيه النّظام الذي يحدّد كيائها. فلا خوف عندئذٍ ممّا سيحصل بعد الموت، فلا وجود سوى للعدم الأزليّ.

في مجال اقتصاد المنظومة البشريّة، يعطي لا ميتري مكانة هامّة للدّماغ وللمادّة العصبيّة أيضًا. المادّة المعنيّة لا تبوح بكلّ أسرارها،

ولا ندري كيف تنظّم نفسها. نلاحظ تغيّرات في التّنظيم؛ يمكن أن نتابع أثرها في السّلوّك، ولكنّا لا نستطيع ببساطة أن نذهب أبعد من معاينة السّببيّة، ولا بدّ أن نعترف بعجزنا، بكلّ تواضع.

يصف الطّبيب الفيلسوف نوعاً من الحيويّة الدّيناميكيّة التي لا تعارض مادّيته، بل إنّّه يصفها ويحدّدها: هو يعرف جيّداً الآليّات الارتكاسيّة، وعلم التّشريح يسمح له بأن يلاحظ وجود «مبدأ مثير ومندفع» ناشط في صميم المادّة نفسها، بمعزل عن تنظيمه. حتّى وإن كان «ذلك الشّكل الفطريّ» (الواقع في النّسيج الحشويّ) موروثاً فيما يبدو من اللّغة السّكولائيّة، فإنّ لا ميتري يفترض تعقيداً يشتغل داخل المادّة.

أخيراً، وهذه هي أشهر أطروحة لدى الفيلسوف: الإنسان آلة. الصّور والاستعارات وافرة في هذا المجال: ساعات وبندولات، ولوالب يقظة، وحبال مختلفة الامتداد، دون ذكر الإحالة على ذاتيّات الحركة لدى فوكانسون⁽⁷⁶⁾. ولكن لا يعني ذلك مجرّد مسألة إواليّة، إذ لا بدّ من أن نولي أهميّة للرّطوبة والسّيولة والأنابيب والحركات والأوردة والأعصاب والأعضاء الباطنيّة - الدّماغ ... -، واعتبارات أخرى عن «الشّبكة النّخاعيّة»، «دودة الإنسان» (الحيوان المنويّ).

13

آلة زاحفة عمودياً. تنويع رابع: إنسان لا ميتري لا يقف في قمّة

(76) Jacques Vaucanson (1709-1782): مخترع ميكانيكيّ فرنسيّ.

الخلق. في منطق وحدة الوجود المادّي الحيويّ الديناميكيّ، نحطّم التّراتبيّة المسيحيّة للطّبيعة، التي تنطلق من المعدن وتمرّ إلى النّبات، وتصل إلى الحيوان، وتنتهي إلى الإنسان، قمّة الخلق، أثر الرّب الرّائع، تمام فنّه. هذا المنطق المتسامي والتّيولوجي يتوارى تحت وقع الاقتراح التّوليّ للا ميري. في الطّبيعة، لا شيء أعلى أو أدنى، الكلّ يتساوى. لا توجد سوى مسألة تنظيّمات، تنتج هنا قردًا، وهناك إنسانًا، ولكنّ الفرق ليس كبيرًا... الإنسان الآلة يؤكّد ذلك دون موارد: الإنسان؟ هو «آلة زاحفة عموديًا»...

بتعبير معاصر، يمكن أن نكتب أنّ لا ميري يسير على خطى الفلاسفة المضادّين لتّراتبيّة الأنواع، الذين يرون أن لا شيء يسمح بتبرير استغلال الحيوانات أو تعذيبها. لا يمكن أن يتوجّ الخلق الرّبانيّ الإنسان فيما ترزح الحيوانات تحته بدرجة أو بعدّة درجات بسبب مبدأ أقلّ اكتمالًا أو تنظيّم مختلّ. كلّ من البشر والحيوان يخضع لتنظيّم مختلف في نفس العالم، ومادّتها متماثلة. ومن ثمّ وُجدت مؤلّفات - دون الجزم بصدقيتها - مثل الإنسان النّبتة أو الحيوانات أكثر من كونها آلات تفصّل أوجه التّباين لا محالة، وتفصّل أيضًا أوجه التّمائل بين النّبات والحيوان والإنسان.

وكدليل على صواب الأطروحة التي تؤكّد أنّ الفوارق التي تميّز القرد عن القسّ، يؤكّد لا ميري أنّه يمكن أن يعلم الأوّل الكلام، خاصّة بأن يضع موضع التنفيذ منهج يوهان كونراد أمّان⁽⁷⁷⁾ الذي

(77) Johann Conrad Amman (1669-1724): طبيب سويسريّ عرف ببحوثه في فيزيولوجيا النّطق، وتعليم الصّمّ البكم الكلام.

اقترح قبل الأب شارل ميشيل دو ليبى⁽⁷⁸⁾ تعليم الصّم البكم الكلام وفق منهجية ملائمة - يلمس التلميذ حنجرة معلّمه عند النطق، ويحفظ الذبذبات في ذاكرته ثم يحاول أداءها.

اقترح لا ميتري ذاك، ولم يكن مزحة كما قيل، لا يتمّ دون عواقب، لأنّ الدماغ في رأيه يخزن معلومات وينظّم نفسه بطريقة مجلّية، فيربط الأصوات والعلامات والصّور والكلمات والمعاني بعضها ببعض. وانطلاقاً من ذلك الطّبع الأساس، يمكن التفكير في كلّ أعمال الإحساس والذاكرة والذكاء. وهو ما يسمح بسدّ البوّن الطّفيف بين الإنسان والحيوان، فما ينقص الدّابة كي تصبح إنساناً قليل. تلك السّيميائية المادّية تقوّض مذهب المركزية الدّاتية المسيحيّ...

14

براءة الصّيرورة. ما هي الاستنتاجات التي تمّ التّوصّل إليها؟ المادّة كلّ؛ الرّبّ إذن قليل، لا شيء تقريباً، أو لا شيء بالمرّة؛ لا يوجد سوى تنوعات متعدّدة لماهية واحدة فريدة؛ الإنسان لا يقف في قمّة الخلق، لأنّه يتحرّك في الطّبيعة على مستوى البهائم والنّباتات. هذه من جهة الأنثروبولوجيا. فأيّ إثيقا يمكن بناؤها على مثل هذه القاعدة؟

التّنوع الخامس يستهلّ ثورة في الإيثيقا - ثورة إيثيقية. لنُعذّ: المادّة هي كلّ شيء. فهل للأخلاق مكان في ميكانيكا عالم منظّم في ما وراء

(78) Charles-Michel de L'Épée (1712-1789): قسّ فرنسيّ، من روّاد تعليم الصّم البكم.

الخير والشرّ؟ يستخلص لا ميتري في انسجام أنّ في تلك الطّبيعة تهيمن ضرورة مطلقة، حتميّة كاملة: الحتميّة هي القانون. فلسفة كهذه تدفن نهائيًا الخرافات المسيحيّة عن حرّية الاختيار، وإمكانية الاختيار بين الخير والشرّ، والخطيئة الأصليّة، والخطأ، والمسؤوليّة الجماعيّة للبشريّة. الإنسان لا يختار، بل يصادره التّنظيم وتشكيل المادّة. في صيغة جميلة من رسالة شعريّة إلى الأنسة أ. سي. بي. أو الآلة المجندلة، كتب لا ميتري: «الآلة لا تفعل ما تريد، بل ما يجب». نهائيّ، لا جدال فيه...

ما هو كائن لا يمكن أن لا يكون؛ ما يحدث لا يمكن أن لا يحدث حتّى في ظروف عيد الغطاس⁽⁷⁹⁾ نفسه؛ ما يصيرُ يصيرُ في أشكال ضروريّة. البشر هم ما يصنعهم تنظيم المادّة، والتّنظيم يخضع لمبادئ نجهل عنها كلّ شيء، لأنّ الوراثة، والمناخ، والتّغذية، والحماية، والتّربية بطبيعة الحال، تؤدّي دورًا هامًا في بناء ذاتيّة. مادّيّة الأسباب الاستقرائيّة تدمّر ميثولوجيا الأصول المسيحيّة، وتبعًا لذلك تقوّض أيضًا كلّ خلاص أخرويّ. وتتسبّب كذلك في عاقبة هامة تتمثّل في التّنوع السّادس: سيطرة الضّرورة تفتح أفقًا حقيقيًا غير أخلاقيّ.

غير أخلاقيّ ولكن ليس لا أخلاقيًا⁽⁸⁰⁾. وإن كانت الأطروحات المادّيّة، في نظر مسيحيّ يحكم على الأشياء حسب قيمه، لا أخلاقيّة

(79) عيد الغطاس: عيد يحتفل المسيحيّون به في السّادس من يناير من كلّ عام، في ذكرى معموديّة يسوع بنهر الأردن على يد يوحنا المعمدان.

(80) حسب معجم لاروس: غير أخلاقيّ amoral، هو ما كان غريبًا عن الأخلاق، أو لا يضع الأخلاق في اعتباره. أمّا اللاأخلاقيّ immoral فهو ما كان منافيًا للأخلاق، مغلًا بالأداب.

تمامًا. غير أنّ لا ميتري، بطبيعة الحال، يعتبرها قيمًا نسبيّة. لا شيء يمكن أن يكون مطلقًا في مجال الإيثيقا، كلّ شيء رهين معيار اعتباطيّ يضعه البشر، أي خير المجتمع. ما يُدافع عن المجتمع هو الخير، وما يهاجم المجتمع هو الشرّ. في سماء من الأفكار الأزلية الخالدة، لا توجد الفضائل في المطلق.

ضدّ الأخلاق الوعظيّة (المسيحيّة)، يقترح لا ميتري إيثيقا براءة (ماديّة). لا أحد يختار أن يكون غبيًا إن توفّرت له إمكانيّة الذكاء؛ لا أحد يختار الشقاء إذا كان قادرًا على نيل السعادة؛ لا أحد يريد عمدًا الانتشاء بالجريمة إذا كان يستطيع أن يجد راحته في اللطف مع الآخرين. وضعنا ناجمًا عن حزمة من الظروف التي تمثّل فيها حرّية الاختيار والإرادة والعزم والحرّية قوى باطلة. فما جدوى العقاب أو الثواب حينئذ؟ لا الشرّير ولا الخير يختار رذيلته أو فضيلته...

15

إلغاء تبكيت الضمير. في سياق تلك الأفكار، يتفحص لا ميتري مسألة تبكيت الضمير ويقدم تحاليل أساسيّة في تشكيل سمعته الفلسفيّة (السيّئة). لنذكر أنّ عبارة «ذنب» لم تكن موجودة في الفترة التي كان الفيلسوف يعرض خلالها أطروحاته في الموضوع، أي عام 1750، بكتاب **المضادّ لسينيكّا أو خطاب في السعادة**، لأنّ تلك اللفظة ظهرت عام 1791. ولكن من الواضح أنّ ما يسمّيه تبكيت الضمير في كتبه له علاقة بما نسمّيه ذنبًا منذ ذلك الوقت.

بما أنّ البشر لا يختارون شيئًا، فكيف يمكن تعذيبهم بأن نفرض

عليهم الندم على فعل لا يملكون لعدم إتيانه حيلة؟ وكأننا نطالب قرميدًا وقع من السطح بأن يقدم اعتذاره للشخص الذي تهشم على رأسه! نفس الحتمية تدفع القرميد إلى الانفصال عن الهيكل والمغتصب إلى الاغتصاب والقاتل إلى القتل والعاصفة إلى الاندلاع. وعلى غرار القرميد الذي لا يسقط، الرجل الذي يحترم النساء، والشخص الذي يمتنع عن القتل، أو الطّقس الجميل. في كلّ ذلك، لا توجد سوى حتمية، ضرورة، بصرف النظر عن أيّ خلق.

لنعد إلى تبكيت الضّمير؟ كيف تحدّده؟ هو سيّاف الوعي، الصّوت الباطنيّ الذي يلوم الذات على ارتكاب عمل ذميم. لنقلها مرّة أخرى: لا ميتري جعل من ذلك قانونًا من قوانين الطّبيعة في الإنسان الآلة، معللاً أنّه كسائر البشر والهمج والحيوانات؛ ولكنه في المضادّ لسينيكّا يزعم العكس ويسقطه من التّربية. في تلك الحالة الثّانية يصبح «عادة قديمة»، و«تذكّرًا مؤسفًا»، و«انحيازًا قديمًا» ناجمًا عن تدجين اجتماعيّ.

ما نفعه؟ لا شيء. فهو لا ينبّه لإعادة الكرّة؛ ولا يمنعه عند الجرم؛ ولا يترك بعده أيّ أثر عمّا حدث. والأدهى أنّه يضيف إلى السّلبية سلبية، لأنّ المجرم يتعذّب بسبب فظاعة لا جدوى من ورائها لكونها عديمة الأثر. أن نلوم أنفسنا على ارتكاب ما يُرغمنا تنظيمنا على اقترافه، هو مفعول غريب لكره الذات، وفي الأقلّ لعدم دراية بالآلية التي تقود العالم خارج الوعي وحرية الاختيار.

تبكيت الضّمير يخلف آثارًا في كلّ مكان. ليس فقط في حال جرم

خطير - جريمة، قتل، تعذيب، إلخ. -، وإنما أيضًا في الأحداث العادية كالزنى والشراسة والحالات الأخرى التي يحس فيها المرء بأنه مخطئ. المجتمع يدين عددًا من المتع الطبيعيّة الموصولة بالخطأ والخطيئة والمحرم. ولا ميتري لا يرى أيّ موجب لكي نزج أنفسنا بتبكيّت الضمير ويدعو إلى التمتع بالحياة ببساطة، دون أن نلوم أنفسنا على ما يتحتّم علينا.

16

«ميتافيزيقا الحنان». التنويع السادس: إذا كانت الحتميّة تتحكّم في ما سيصير، إذا لم يكن أحد مسؤولًا لا عن الخير ولا عن الشرّ الذي يفعله، فأيّ سلوك نتبع؟ الاستسلام، الرضوخ؟ كلا. الحنان. يصوغ لا ميتري ما يسمّيه «ميتافيزيقا الحنان». في ما وراء الخير والشرّ، وعن دراية مادّية، وعلى علم بسببيّة أنظمة المادّة، لا يتمرد الفيلسوف باسم أخلاق وعظيّة، لأنّه يرفض الحكم المعياريّ، العصا أو الميدالية، لصالح شفقة ما بعد مسيحيّة.

المنحرف ليس جلاّدًا، بل ضحيّة. والقاتل ليس أكثر من شخص راح ضحيّة عمليّة قتل، فهو ليس مسؤولًا أو مذنبًا: فما ذلك سوى حركات الطّبيعة، وحتميّات المادّة. فأيّ معنى لكره التعيس الذي اقترف جريمة، وتعذيبه وتعنيفه وسوء معاملته؟ الأرذال لا يختارون رذالتهم، فلنشفق عليهم لكون الطّبيعة لم تنصفهم، بدل لومهم. لنرفق بتلك الآلات التي أسّء ضبطها.

هل ينبغي العقاب في هذه الحالة؟ ماذا يمكن للعقاب أن يشبه؟ لا

ميتري يدعو إلى تخفيف العقاب، وعدالة توزّع التعذيب باعتدال وتأسّف. في عقاب الشّرير ومجازاة الفاضل نوع من السّخف. ولكن إذا كانت الغاية وقاية، فالعقاب مشروع، في هذه الحالة فقط. ولتجنّب إعادة الكرّة، وهذا محتمل، يمكن بل ينبغي للمجتمع أن يحمي نفسه ويدود عنها. ولا ميتري يؤكّد ذلك بوضوح: «أكره كلّ ما يسيء إلى المجتمع» - (وهذا بالمناسبة يجعل مثارًا للسّخرية أطروحة جامعيّ وصف لا ميتري بـ «الفيلسوف الأناركي» أو جامعيّ آخر نعته بـ «الأناركي الاشتراكي»!).

قد نبحت لدى مفكّر الحتميّة الكاملة عن جملة محدّدة تدين الحكم بالإعدام، ولكن دون جدوى. لن نجدها. بالعكس تمامًا، فلا ميتري يترك المشنقة والجلّادين يقومون بمهمّتهم ويلجأ إلى صور تفصح بجلاء: لحفظ المصلحة العامّة، ينبغي أحيانًا «قتل الكلاب المسعورة وسحق الأفاعي». وفي سياق بعده، يشرّع مبدأ الدّفاع المشروع عن المجتمع ويبرّر «ضرورة خنق جانب من المواطنين للحفاظ على البقيّة». نفس الرّجل كتب أيضًا عام 1751 أنّ الباستيل «محكمة تفتيش فظيعة». ذلك إذن مادّيّ قمعيّ على طرف نقيض من الصّيغة الوقائيّة!

الحنان له إذن حدود، اجتماعيّة وسياسيّة بخاصّة. في هذا الموضع من التّحليل، نكتشف تراكب الثّوريّ الفلسفيّ والمحافظ السّياسيّ. لا ميتري ينظر إلى الانحراف نظرة ميتافيزيقيّ لا نظرة مادّيّ. بوقوفه إلى جانب المجتمع، يجهل أنّ المجتمع يسلّط في الغالب عنفًا على

المنحرف، وفي الوقت نفسه يعتقد أنّ الحتمية الاجتماعية يمكن التراجع فيها، ولا سيما في شكلها العنيف الملكي والكاثوليكي والإقطاعي العنيف. هذا الفيلسوف المجدد الذي يبدي مثل هذا الاستخفاف السياسي لا يستخلص كلّ تبعات نظريته عن السببية المادية، ولا سيما في مجال المجتمع. ومن ثمّ، فهو يغيظ بعض الفلاسفة - مثل هلفتيوس ودولباك - الذين يدافعون هم أيضًا عن المذهب الماديّ، ولكنهم يخلصون تبعًا لذلك إلى ضرورة إحداث تغيير في المجتمع. إن كانت الباستيل حقًا «محكمة تفتيش فظيعة»، فلم لا يدعو إلى هدمها؟

17

الرّاحة في الجريمة. ما يغفر للا ميري توضيحه في مرار عديدة أنّه ليس فيلسوف «وجوب كينونة» بل فيلسوف «الكينونة»؛ وأنّه لا يقول ما ينبغي فعله وتغييره، وتحويره حتّى تسير الأمور بأفضل ممّا هي عليه لكونها لا يمكن أن تحدث على هذا النحو؛ وأنّه لا يطرح في جدل الأفكار اقتراحات لتغيير المجتمع أو تحويره؛ ولا يتخذ هيئة واضح وصفات. لتذكّر أنّه، بوصفه ماديًا ينتسب إلى الفيزياء والعلم، يزاول الطّبّ ويشخص الأمراض؛ ويقوم بدور عالم التشريح فيفكّك الخرافات والآليات؛ يمارس منهجًا تجريبيًا مقارنًا على بعد ألف فرسخ من وضعيّة مفكّر.

في تحاليله، يوغل في توصيف الطّبيعة البشريّة. نفهم أنّه يبهج الماركيز دو ساد إذ يضع على طاولة تشريحه الفلسفيّ حالة من لم نطلق

عليه بعد صفة السّاديّ، لسبب بَيْن. ولكن كيف نسَمّي الشخص الذي يجرب «الرّضا بإتيان الشّرّ»؟ ذلك الذي «يتفنّن في ابتكار التعذيب»؟ أو الذي يجد اللذّة في ذلك النّوع من «السّعادة التّعيسة»؟ ماذا نقول عن منحرف يرى أنّ «السّعادة في الجريمة»، وأنّ الخير الوحيد يتمثّل في فعل الشّرّ؟ أو عن شرّير ليس تعيساً البتّة؟ ضحايا، ليس إلّا...

لا ننتظر منه أن يكون عالم دين، راهباً، واعظاً، فيلسوفاً يعطي الدّروس، وكلّ الصّفات التي يمقتها: هو طبيب وسلطته تتسبب إلى التشريع الفلسفيّ. لنصف أنّه يوجد مع ذلك بُعد خلاصٍ في المادّيّة التي يعلّمها، لأنّ رؤية العالم تلك، الحتميّة تماماً، لها مفعول الدّواء ضدّ كره المجتمع، فأعماله لا تهدف إلى تشريع الجريمة بل إلى جعل «الرّاحة في الجريمة» ممكنة...

18

صفاء عصبيّ. ومع ذلك يخالف لا ميتري تلك القاعدة، قاعدة فيلسوف طبيب يقتصر على التّشخيص ويقترح أحياناً علاجاً يبيّن، لو قبل السّياسة بوصفه فيلسوفاً مادّيّاً، أنّه كان يمكن أن يجد نفسه أقلّ إقطاعيّة وأكثر ثوريّة – أي أقلّ عرضة لاستحواذ ساد، رمز الإقطاعيّ. ذلك أنّ فكر ذلك الرّجل الدائم الحركة يخيم عمداً في التّراجيديّ. المتفائل يرى الأفضل في كلّ مكان، ويستغلّ الإمكانات؛ أمّا المتشائم فيرى الأسوأ في كلّ مكان ولا يرى شيئاً غيره؛ فيما التّراجيديّ يحاول أن يرى الواقع كما هو.

يطرح صاحب الإنسان الآلة فرضيات تستحق تحاليل أطول وأثرى، ولكن، في غياب ذلك، تبدو البذرة الثورية والإمكانية الجمهورية (كتب في خطاب تمهيدي، أي عام 1751، «لنكن إذن أحرارًا في كتاباتنا كما في أفعالنا؛ لنرَ فيها فخر استقلال إنسان جمهوري»!) حاضرتين بوضوح في كتابات هذا الإقطاعي عن سهو، وبالأحرى عن تهاون.

أين الدّرة؟ في سبق إدراكه للإنسان العصبي. لقد شرّح لا ميتري أدمغة، وتعهّد مادّتها: عدد تلافيفها، تنوّع أحجامها، كثافتها، طبيعة أليافها، لون الأجسام المخدّدة، تكوّن الحزوز، الصّفائر والرّؤوس - التّوائم الأربع⁽⁸¹⁾ بلغة اليوم. يتحدّث عنها كما يتحدّث عن عضو باطنيّ ينبغي بناؤه بفضل عادات تربية جديدة.

فرجة الضّوء في التّراجيدي اللاميتري توجد هنا: كلّ شيء رهين الدّماغ، والثّنيات والمعلومات التي تقدّمها التّربية والمعلومات المكتسبة. نحن ما نحن لأنّنا نحن أدمغتنا - التي هي مادّة الرّوح. تشاؤم لدى المرء هنا والآن: لا نستطيع أن نغيّر شيئًا في تنظيمنا إذا تبلور في تلك المادّة العصبيّة؛ تفاؤل للإنسانية مستقبلًا: لو نقول تلك المادّة بشكل مغاير، لو نوّثر في تنظيمنا، عندئذ يمكن أن نفكر في تحويل الأشياء. هنا أيضًا، تبدو سياسة الفيلسوف هي سياسة الطّبيب: لنصنع طبائع سعيدة تؤثّر في التّشكّل العصبيّ، كترويض عصبيّ «للشّبكة النّخاعيّة».

(81) Quadrijumeaux: حذبات أربع تقع في الدّماغ المتوسّط.

ومن ثمّ فإنّ التّربية والوسط والمرحلة تروّضنا وتهيّئنا للإحساس بتبكيّ الضّمير. تشبّع آخر يحدّدنا بشكل مغاير. صحيح أنّ الضّرورة موجودة، ولكن لا ضرورة للقبول بها إذا كان بوسعنا أن نتحرّر منها. إذا تحرّرتنا من تلك العادة الوعظيّة التي أصبنا بها في طفولتنا الأولى، أمكن لنا أن نتخيّل بشراً أقلّ شعوراً بالشّقاء بسبب تعاستهم، فقد نالوا من العقاب قدرًا كبيرًا إذ عاشوا ذلك الشّقاء. تبكيّ الضّمير يفترض عذابًا مضاعفًا - فكرة سبينوزا؛ والغاؤه يترّ نصف الألم. الثّقافة والتّربية تسمح بأنسنة تلك الحيوانات، أي البشر. الحتميّة تصطدم بحتميّة أخرى. لنواجه قوّة العادة بقوّة أخرى، قوّة مضادّة. قراءات أخرى، أفكار أخرى، علاقات أخرى، لقاءات أخرى، منعطفات جديدة لإنسان جديد.

لنقل ذلك بعبارات معاصرة: لئن كان لا ميتري يدعو إلى القمع والصّلب والمشاق، فإنّه لا يلغي مع ذلك الوقاية المسبّقة عن طريق التّربية والتّعليم. في الآلة المادّيّة الحازمة بقوّة، يترك الفيلسوف التّراجيديّ دورًا صغيرًا لاندفاع جانبيّ خفيف. تلك الحركة الميكانيكيّة الفيزيولوجيّة الخفيفة يمكن في نهاية الأمر أن تنتج بونًا سلوكيًا كبيرًا، نوعًا من الانحراف العصبيّ.

ذلك المنطق العصبيّ يسمح بتنويع سابع مضادّ للمسيحيّة: ضدّ القدريّة التّيولوجيّة التي تحكم على الإنسان بأن يكون في وضع فإنّ تعيس، يترك لا ميتري بصيص أمل في خلاصٍ هنا والآن. خلاص مادّي لا ديني، خلاص في الدّنيا لا في الآخرة. عندما يدعو المسيحيّ

الإنسان إلى الصّبر على ما يلقي، والتّألم للتّكفير عن خطيئة، واستحقاق سعادته في عالم آخر، يقترح المادّي حلًّا متأصلاً: في الحالة الحاضرة، القبول بما تدعونا الطّبيعة إليه، بلا تبكيت ضمير؛ ثمّ التّوجّه لاحقاً إلى نموذج آخر، ليس نموذج المثل الأعلى الزّهدي المسيحيّ، بل نموذج المادّيّة المتعيّة.

19

العودة إلى الشّهوة الطّبيعيّة. سابع تنويع مضادّ للمسيحيّة، إذن: المتعيّة. أوّلاً، ملاحظة الفيلسوف: كلّ واحد يجري وراء متعته، بما في ذلك الشرّير الذي يتمتّع داخل السّليبيّة. لا ننجو إذن من المتعة، وكلّ واحد محكوم بالمتعيّة. الطّبيعة خلقت الإنسان كي يكون سعيداً؛ ولكنّ الثّقافة (المسيحيّة) تفعل كلّ ما في وسعها كي لا يكون كذلك. الأخلاق، الدّين، الفلسفة الرّوحانيّة تمثّل ثلاث تنويعات في الثّيمة المسيحيّة.

ينتقد لا ميري القدريّة. المضادّ لسينيكاً مثلاً، والذي كان عنوانه في الأصل رسالة في الحياة السّعيدة حسب سينيكاً مع خطاب من المترجم في نفس الموضوع (1748)، ثمّ في طبعة أخرى من اثنتي عشرة نسخة (1750)، المضادّ لسينيكاً مع عنوان فرعيّ هذه المرّة: الخير السيّد، وأخيراً طبعة جديدة (1751) مع عنوان فرعيّ، خطاب في السّعادة، لم يكن من وضعه. الكتاب يقترح مرافقة ترجمة في الحياة السّعيدة للفيلسوف القديم، ولكن لا أحد رأى هذا العمل إطلاقاً...

ما الذي يعيبه على القدريّين؟ إثارهم الموت على الحياة؛ التّحريض

على الانتحار - الذي يستنكره - بدل التشجّع على الحياة؛ محبتهم الصرامة والحزن والقسوة بدل الرقة والبهجة والسعادة؛ رغبتهم في أن يكونوا أبطالاً بأحاسيسهم عوض أن يكونوا إنسانيين ببساطة؛ بتخييرهم المجد على رصانة الحكيم المطمئنة؛ بادعاء أنهم في منعة من اللذة والألم، عوض أن يحوزوا مجد إحساس بعضهم ببعض؛ بإرادتهم أن يكونوا على الدوام روحاً لا جسداً البتة، خلافاً للشهواني الأبيقوري الذي يفضل العكس بالضبط.

الرواقية، في اشمئزازها من الحياة، شبيهة تماماً بالنصرانية. فمدح المثل الأعلى الزهدي المتماثل في رؤيتي العالم تتركيب بين أن الثقافة، في الأيديولوجيا المهيمنة، تعمل في تعارض مع الطبيعة، في حين أن لا ميتري يطلب من الثقافة أن تعيدنا إليها. درسٌ كلبّي قديم، درس حديث لمن يقيس الفرق الضئيل بين الإنسان والحيوان.

في فنّ الانتشاء الجنسي، النشوة أو فينوس ميتافيزيقية، وهي كتب غنائية دنيوية كتبت بسطحية، يكتفي لا ميتري بكتالوج متع تقليدية يتفق حولها التفكير الشعبي السليم: الخمر والنساء، المائدة والأوبرا، الكتب والفن التشكيلي - ما يرسمه لانكريه، وواتو، وفراغونار، وبوشيه وفنانون آخرون قبل الثورة الفرنسية.

أحياناً يجرب كاتبنا قليلاً التحليل الفلسفي، فيفصل، ويحدّد، ويتحدلق ويميّز. المتعة هي مسألة حسّ فقط؛ والشهوة مسألة قلب؛ والفسق، إفراط في الملذّات دون تذوّقها. صحيح، صحيح. فنّ انتشاء معين قد يسمح للإنسان ببناء ابتهاجاته، ويمحصها، وينظّمها ويرتبها كي لا ينتشي مثل دابة. كلّ ذلك تفوح منه راحة القلم، ولكن لا نصدّق

كثيرًا تمارين السفسطة تلك.

ولا نستطيع اتباع لا ميتري في المجال الجدليّ حين يراكم التناقضات التي تجعله تارة يضع في القمة ملذّات الرّوح، وطورًا ملذّات الجسد، قبل أن يختم في سياق لاحق بأنّ التّمييز يسقط بالنسبة إلى مادّيّ جدير بهذا الاسم. من الصّعب أن نصدّق الصّواب النظريّ لخطابه النظريّ عن الشهوة! عمل خطابيّ لضاحك يمجّد فضائل العفة وهو يستعمل عجيّزة امرأة مستهترة مقلّمة لفيلبيّته...

إلى تلك الاعتبار العامة، يضيف بعض النّصائح العمليّة، هي أقلّ تكلفًا، ولكنها متوقّعة: لا تؤجّل أبدًا لذّة اليوم الممكنة إلى الغد؛ تمتّع بامتلاء بالحاضر دون أن تثقل نفسك بماض أو مستقبل؛ لا تخش الموت وأعد تشغيل الوصفة الأبيقوريّة القديمة: أنا هنا، وهو ليس هنا، هو هنا، ولم أعد موجودًا، فهو إذن لا يعنيني؛ لا ترهب أيّ شيء بعد الموت، فبعد تلك الفوضى البسيطة للمادّة، مصير الجثّة يتلخّص في العدم وحده؛ أحبّ الحياة في كلّ أشكالها. لا شيء جديدٌ تحت الشّمس المتعيّة، ولكنّ تلك الوصفات تقول الحقيقة البسيطة والعارية للمتعيّة...

نصيحة أخيرة... فلسفيّة: لا ترهق نفسك كثيرًا بالعقل والتأمّل والتحليل. اشتغال الذّهن يعرقل السّعادة دومًا. ففي القرن السّابق، كان الحكيم سان إيفرمون يفضّل يوم حياة إضافيًا على سمعة فلسفيّة حسنة بعد وفاته - قول رجل تسعينيّ... ولكنّ لا ميتري لم يعيش طويلًا. كان له حياة قصيرة وسمعة فلسفيّة سيّئة. فأما الدّاء الأول فلا نملك ضده شيئًا، وأمّا الثّاني، فالأمر موكول لنا كي نعدّل مصيره...

الزّمن الثّاني

المنفعيّون الفرنسيّون

(I)

مويرتوي

و«رغبة السّعادة»

1

لوازم النّفعيّة الفرنسيّة. في بلاط فريدرىك الثّاني، ملك بروسيا، الشّاعر والمولع بالموسيقى، الفيلسوف والمحارب، المثليّ والكاره للصّيد، الماسونيّ والعاشق للأنوار يوجد ممثّلو النّخبّة الفكرية الفرنسيّة في القرن الثّامن عشر. من بين مجمع الأدباء والمفكرين ذاك، لا ميتري بطبيعة الحال، ولكن فولتير وهلفتيوس أيضًا. عند فريدرىك الأكبر، تنتقل الأفكار، وتجري المحادثات في مختبر أفكار جديدة، أطروحات هذا يناقشها ذاك، وتؤثّر في رؤية العالم لدى طرف ثالث.

الفلسفة تتشكّل في شبكات، تعرف لحظات ولادتها. أكثر من لقاء وجهًا لوجه في بوتسدام، ومقابلة في الإقامة الصّيفية بسان سوسي⁽⁸²⁾، وحتى أكثر من وجبة برفقة الملك لا شكّ سمحت لبعض المفكرين بتكوين ذخائر فكرية، والتزوّد بأفكار جديدة أو

(82) Sans-Souci: القصر الصّيفيّ لملك بروسيا فريدرىك الثّاني أو الأكبر.

الاستفادة من قراءات ضيف عابر وعروضه. المناخ قاسٍ، والتّرويح نادر، والتّبادل الفكريّ محدود خارج القصر. كان القصر يقوم مقام بوتقة لم يكتبها التّاريخ الفكريّ بعد.

من بين ضيوف برلين، بيير لويس مورو موبرتوي. التّاريخ الرّسميّ المهيمن يحتفظ له ببعض الذّكريات، ولكن في المجال العلميّ في أغلب الأوقات: منظمّ بعثة إلى الدّائرة القطبيّة، مبتكر مبدأ أقلّ جهد، الذي يطلق عليه أيضًا قانون الحدّ الأدنى، والأكاديميّ الفرنسيّ؛ وفي الجانب المثير للإعجاب، ربّما مؤلّف بحث فيزيائيّ لمناسبة الزّنجيّ الأبيض، ولكن منّ من الفلاسفة ما زال يتحدّث عن مقالة في الفلسفة الأخلاقيّة؟ لا أحد...

مع أنّي اعتبر هذا الكتيّب نصًّا بالغ الأهميّة، لأنّه يؤسّس للنّفعيّة الفرنسيّة. النّفعيّة، تلك المدرسة الفلسفيّة التي أصبحت مرادفًا للفكر الرّسميّ الأنجلوسكسونيّ، لها إذن جينيالوجيا فرنسيّة. بنثام⁽⁸³⁾، ممثّلها الأكثر شهرة، وقبله غودوين⁽⁸⁴⁾ الذي ألهمه، لم ينكرا أبدًا دينهما لهلفتيوس ودولباك. بيد أنّ موبرتوي سبق أولئك الفلاسفة الأربعة، وكتابه موجود قبل كتاب **عن الرّوح** (1758) لهلفتيوس بتسع سنوات، وقبل **نظام الطّبيعة** (1770) لدولباك بإحدى وعشرين سنة. لا داعي للحديث عن بنثام فهو متأخّر

(83) Jeremy Bentham (1748-1832): مفكّر إنجليزيّ، من أهمّ المنظرين في فلسفة القانون، ورائد ممن روّاد الفلسفة النّفعيّة مع جون ستيوارت ميل.

(84) William Godwin (1756-1836): فيلسوف ومنظر سياسيّ وروائيّ إنجليزيّ، أحد أهمّ روّاد الفكر الأناركيّ والنّفعيّ.

صحيح أن موبرتوي لم يُخرج النّفعيّة مدجّجةً من فخذ جوبتير⁽⁸⁵⁾، مستعدّة للمعارك الكبرى. فسلّاح الخيّالة الثّقل لهذه المدرسة الفلسفيّة ذات الأهميّة البالغة يُرغمنا على المرور بغودوين وبثام وستيوارت ميل وآخرين. ولكنّ لوازم النّفعيّة موجودة في تلك الحساسيّة الفرنسيّة «المنفعة»، بطبيعة الحال، وكذلك المبدأ المتعيّ لـ «أكبر سعادة ممكنة لأكثر عدد ممكن» أو «علم حساب اللذات». الفيلسوف الذي جوهر آليّات حساب المتع ذاك اسمه موبرتوي.

2

ابن قرصان. وُلد بيير لويس مورو دو موبرتوي بسان مالو في 7 يوليو 1698 من أبٍ قرصان، تحوّل إلى مالك مصائد أسماك، ورفعهُ لويس الرّابع عشر إلى مصافّ النبلاء، ثمّ صار نائباً في مجلس التّجارة بباريس. عاش الأب وابنه في علاقة متواشجة. مائدة الأب في تناول أصدقاء الابن. وقد ترك موت القرصان العجوز الفيلسوف في حالة ألم قصوى - ولمدّة طويلة.

عندما بلغ الابن سنّ العشرين، اشترى له أبوه فرقة فروسيّة في فوج لاروش غيّن. وبالرّغم من أن موبرتوي الابن انضمّ إلى فرقة الفرسان الملكيّة الرّماديّة، فإنّه ترك الجيش ورحل إلى باريس كي يخصّص وقته لدراسة العلوم - رياضيات، فيزياء، علوم طبيعيّة. أقرّ

(85) جاء في الميثولوجيا الإغريقيّة أنّ جوبتير جعل ديونيسوس في فخذه لحمايته من هيرا، فصار ديونيسوس نبيل المحتد. وصارت الاستعارة تنطبق على من يعتدّ بنفسه وبحسب أنّه متفوّق على سواه لكونه ولد في عائلة مميّزة.

الجميع بأنه عبقرِيّ: يقظ، ذكيّ، سريع الفهم، سرعان ما ارتقى إلى مستوى المدرّس، الذي غالبًا ما يحسّ أنّ الطّالب تجاوزه، حصل ذلك حتّى مع شخصيّة رفيعة المستوى مثل جان برنولي.

في الخامسة والعشرين، أي عام 1723، أصبح موبرتوي عضوًا في أكاديمية العلوم. باستثناء بعض الملاحظات حول العقارب والسّمندل، لم تلق أيّ من منشوراته الاهتمام، ولكنه كان قد بدأ يترقّى في العالم المؤسّساتيّ حيث ما انفكّ يثير القلاقل، إذ كان يظهر شخصيّة قويّة، وهو ما بدا جليًّا أمرًا غير مناسب، في تلك الأجواء الفاترة حيث تعاد المنظومة مع زملاء موهوبين في الدّسائس أكثر ممّا هم موهوبون في ميدانهم المعلن...

وإذ وعى بضرورة العمل، سافر لبضعة أشهر إلى لندن عام 1728، حيث فُتحت له كلّ الأبواب، فخالط الأقطاب العلميّة في تلك الفترة، وربط علاقة مع الرّئيس المساعد للأكاديمية الملكيّة للعلوم، مارتن فولكس، الذي صار له صديقًا أثيرًا، إذ أرسل إليه عددًا من طرود الكتب كان يخفي فيها واقيات له ولصديقه مونتسكيو. وكانت الواقيات الإنجليزيّة الشّهيرة، التي تباع بحريّة في لندن، ممنوعة منعًا باتًا في فرنسا حيث الكنيسة تراقب المنع عن كُتب. وكان موبرتوي يستهلك منها عددًا كبيرًا - على الأقلّ أكثر من مؤلّف رسائل فارسيّة فيما يبدو...

3

الجاذبيّة ضدّ الدّوامّة. منحتة لندن فرصة اكتشاف عمل إسحاق

نيوتن (1642-1727) الذي نشر اكتشافاته في الجاذبية الكونية عام 1687. في تلك الفترة، وبسبب النزعة القومية، دافعت فرنسا عن نظريات ديكارت. في الفصل الأول من نيازك، كان ديكارت قد أكد وجود دَوّامات من مادة دقيقة في الأفضية الواقعة بين الأفلاك. تلك الدَوّامات الافتراضية تقود الكواكب في حركاتها. في الصّفة الأخرى من بحر المانش، أيّد العلماء نظريات مواطنهم.

عاد موبرتوي الفرنسي إلى القارّة وامتدح مقدرة العالم الإنجليزي. وبسبب الحساسيات القومية، لم تكن فرنسا تحبّ ألبيون الخائنة⁽⁸⁶⁾... ومن ثمّ، اتّهم الجميع موبرتوي صراحة بالخيانة، وفي الأقلّ بالاستفزاز. باستثناء فولتير الذي استحسن إمكانية صدم المؤسّسة الفرنسيّة في الوقت الذي كان يشنّ فيه حرباً لأجل الحقيقة الفلسفيّة. ضربة مضاعفة. بطلب من فولتير، أطلعه موبرتوي على النيوتنيّة. ابتهج التلميذ وأسبغ آيات الثناء على أستاذه، الذي يصغره بأربع سنوات.

عندما كان فولتير يشتغل على كتابة رسائل فلسفيّة، كان يعرض نصّه على موبرتوي كي يعرف رأيه. الرّسائل الثلاث المخصّصة لديكارت ونيوتن والجاذبية الكونية تبين مهارة كاتبها في تبسيط الأشياء المعقّدة. في كلمتين، قتل فولتير مقالات ديكارت بمقارنتها مع العمل الجليل لنيوتن... وفتح صاحب زديغ⁽⁸⁷⁾ المجتمع

(86) ألبيون Albion هو الاسم القديم لبريطانيا، وقد اقترن اسمها بالخيانة عند اندلاع الثّورة الفرنسيّة وإدانة البريطانيّين قتل ملك فرنسا وبطانته وحاشيته.

(87) رواية لفولتير، نقلها طه حسين إلى العربيّة تحت عنوان "زديغ أو القدر".

الأرستقراطيّ أمام موبرتوي الذي استغلّ الفرصة لإحداث أضرار فادحة في صفوف النّساء – بعضهنّ صرن حكرًا على الضّيف. الخلافات سوف تأتي لاحقًا، وليست فقط بسبب الجنس اللطيف.

تحمّس الجيل الجديد لنظريّات نيوتن. ولكي نزداد فهمًا، نذكر بأنّ الجيل القديم كان يساند ديكارت... مثّلت الدّوامات والجاذبيّة إذن رهانات علميّة وفلسفيّة بالغة الأهميّة لا محالة، ولكنها مثّلت أيضًا فرص حروب كلاميّة أوديبيّة بين الأجيال!

عقبة أخرى اختلف حولها الجانبان: مسألة القطبين. مع ديكارت وعائلة كاسيني⁽⁸⁸⁾ بتهامها كان الجميع يؤكّدون أنّ الأرض محدّبة في القطبين ومسطّحة في خطّ الاستواء. مع نيوتن وموبرتوي صاروا يعتقدون العكس: قمتان مسطّحتان وجوانب محدّبة... صارت الخصومة إذن مواجهة بين أنصار اللّيمون، والمدافعين عن المندرينة! وأنتج الجانبان مناظرات خطابيّة ونصوصًا وشجارات، وهجائيّات. اقترح موبرتوي الذّهاب للملاحظة على عين المكان، والقيام بالقياسات اللاّزمة، ليحسم الخلاف نهائيًّا.

4

التّفلسف في القطب الشّمالّي. كان نيوتن يدافع عن أطروحاته انطلاقًا من حساباته وحدها. وموبرتوي ذهب للتّثبت من ذلك إلى لابي⁽⁸⁹⁾. أعدّ الفيلسوف العالمُ البعثة. حصل على التراخيص،

(88) Jean-Dominique Cassini (1712-1625): عالم فلك ومهندس فرنسيّ من أصول إيطاليّة. وكان أوّل مدير لمركز باريس.

(89) Laponie بالفرنسيّة وLappi بلغة أهلها: إقليم فنلنديّ في شمال البلاد.

وسعى إلى التّمويلات حتّى تحصّل عليها، فضبط خريطة طريق، وشكّل فريقه. ذهب الجميع في نهاية 1736 وعادوا في منتصف 1737. واجه الفريق عدّة تقلّبات: هاجمته سحب من الذّباب لا تنقطع، نجا من حريق، راكم الأمراض، قارب الغرق وهو في مراكب صغيرة قرب شلّالات، قاوم بردًا صقيعيًا (37 درجة تحت الصّفر)، واستطاع بالرّغم من ذلك قياس محور خطّ الزّوال الأرضيّ وتأكيد فرضيّات نيوتن. ورغم غرق أحد المراكب وهم في طريق العودة، رجع موبرتوي وجماعته إلى باريس بعد أكثر من ستّة أشهر بقليل.

في الوقت نفسه، ذهب فريق للتّثبت في كويتو بالبيرو من التّحدّب الطّفيف في جوانب الكوكب. غير أنّ غودان⁽⁹⁰⁾، الذي ذهب مع بعض رفقائه من بينهم لاكوندامين⁽⁹¹⁾، أصيب مركبه بعطل في المارتينيك: أوقف البعثة، بعد أن وقع في غرام زنجيّة جميلة خلّد صورتها رسّام الفريق، فيما كان غودان يبدّد مال البعثة في الملابس والعطور وعلب النّشوق. وبما أنّ فريق لابي وفريق خطّ الاستواء يعملان معًا في ذلك المشروع العلميّ، فقد شملت سخرية باريس كلّها جميع العلماء، بمن فيهم موبرتوي. ولم تتخلّف عائلة كاسيني عن استغلال الوضع.

موبرتوي، الخليع، لم يهدئ المناخ ميوله الشّبقية، فالرجل الذي

(90) Jean Godin des Odonais (1713-1792): رسّام خرائط وعالم طبيعة فرنسيّ.

(91) Charles Marie de La Condamine (1701-1774): مستكشف وعالم فلك وموسوعيّ فرنسيّ.

يبدو رقيق الحاشية بقيثارته في صالونات فرنسا، حمل معه آله وواصل مغازلته حتى وهو وسط الثلوج، ولا سيّما مغازلة أختين لايتيّتين. وقد روى رحلته في رسائل يعرف أنّها سوف تُقرأ في النوادي الأدبيّة، فلم يتردّد إذن عن حكاية حلقة فتاتي القطب الشماليّ. ولئن لم يورد التفاصيل، فالجميع يتخيّلونها، لأنّهم يعرفون موبرتوي، بما في ذلك بعض العشيقات اللّاتي بقين في الدّفء، وقابلن العشيق المتقلّب ببرود، كردّ مشروع.

كلّ ما يصعب الأمر على النيوتيين يستحسنه الديكارتيون. غياب الجدّيّة الأخلاقيّة لدى الفريقين سوف يُستعمل لتقليل اعتبار موبرتوي ورجاله الذين اتّهموا منذئذ بالسّطحيّة العلميّة. ذهبوا إلى القطب الشماليّ كي يحوزوا الإعجاب، فكيف يمكن أن يؤدّوا بشكل سليم عملاً علميّاً يفترض صفاء الذّهن والكفاءة؟

بعد عودة المستكشفين، قدمت اللّابيتان إلى باريس، ربّما لمحاسبة الواعدين بالزّواج والثّروة وحلويّات كابوا⁽⁹²⁾. تراجع أنصار الجاذبيّة، فيما سجّل القائلون بالدّوامة نقاطاً... وكان النّاس لدى الماركيزات يضحكون ويزدحمون، وآل كاسيني ينسجون الدّسائس، أمّا الفتاتان القادمتان من البرد فقد وجدتا نفسيهما حبيستي أحد الأديرة.

(92) Capoue بالفرنسيّة أو Capua بلغة أهلها. مدينة إيطاليّة في إقليم كامبانيا Campania. شهيرة بحلويّاتها.

همستر أبيض، خادم أسود. انتظر آل كاسيني قراءة تقرير أكاديمية العلوم، ثم احتجوا على النتائج. وضع الديكارتيون واليسوعيون موضع شك كفاءة موبرتوي العلمية، وجدية المقاييس، وغياب تعيير الأدوات، إلخ. كل الوسائل صالحة كي يتجنبوا الاعتراف بخطئهم. تلقى موبرتوي المسألة باستياء. هو رفيق مرح، محبوب، يقدّر معنى الصداقة والوعد، ولكنه يغدو رهيباً في شراسته وانتقامه إذا ما استعملت ضده أسلحة غير لائقة، أو لحقه تجريح أو خيانة.

منذئذ، لاحق بنقمة آل كاسيني، وكذلك أكاديمية العلوم التي ساندتهم. تبادل رسائل ونصوص، نشر هجائيات، ومقالات نقدية لاذعة، ونصوص ضاغنة مجهولة الهوية، وإيضاحات مخادعة. وعندما يتوقف موبرتوي عن المعركة لأن الديكارتى اعترف بخطئه باستحياء، يخوض النيوطني حرب إبادة تخلف آثاراً بطبيعة الحال... أولها، فصل موبرتوي من الأكاديمية. وثانيها؟ زوال حظوته في فرنسا...

وفريدريك الثاني، الذي كان شديد العلم بالحياة الفكرية الأوروبية، اغتتم الفرصة: دعا موبرتوي إلى برلين واقترح عليه تحويل أكاديميتها إلى منافسة لنظيرتها الباريسية. سافر موبرتوي 1740، وكان عمره اثنين وأربعين عاماً. غادر الطابق الرابع من شقته الباريسية وحمل معه دواجنه: قطط أنقرية، دجاج طائش، كلاب إيسلندية، دسنة من البيغاوات والدُرر الطليقة، قراقف،

قردان وهامستر أبيض... وكذلك أوريون، خادمه الوفيّ الأسود. وقيثارته.

في بلاط برلين، أعجبوا بلياقته وأناقته. صحيح أنّ الدّرر كانت تذرق على برّوكات الماركيزات، ولكنّ ذلك كان غير ذي بال. فحديثه كان يترك أثراً بليغاً، والملك غالباً ما يبادلّه الحديث، والمجتمع يدور حول ما يضيفي طرافة على الوجود. كان موبرتوي يعمل، يؤلّف كتباً، ويحرّر رسائل إلى أصدقائه الفرنسيّين، ثمّ أنشأ أكاديميّة والتمس العون من هذا وذاك. رفض دالمبير، وكذلك مونتسكيو وإن قبل بأن يكون عضواً فيها. المناخ القاسح، موقع بوتسدام الرّيفيّ، سياج البلاط، القبضة الحديدية لفريدريك الذي ينبغي استئذانه لمغادرة المملكة، المرض الصّدريّ الذي عاد به من لايبا، والذي يضطرّه في معظم الأوقات إلى بصق الدّم، ونقاهاته المتعبة، كلّ ذلك أرهق كاهله.

6

أن يكون «القضيب جافاً». في ذلك السّجن الذهبيّ في حياة قصر، صار موبرتوي عاشقاً. جامع النّساء السّابق، المتعوّد على السّيلان (ألزمه علاجه ذات مرّة مدّة طويلة في مدينة مونبيلييه: لأقربائه، كان يقول إنّّه يعالج فطرته، ولطبيبه الذي يبشّره بالشفاء، كان يقول إنّّه لن يصدّق ذلك إلّا إذا صار «القضيب جافاً») المستهلك الضّاري للواقيات الإنجليزيّة (ربّما ليس بالقدر الكافي: اعترف بابن سِفاح كان يستحقّ، حسب قوله، أباً أفضل!) زير النّساء الذي يضاجع

الخادمة وسيدتها، الشَّبَقِيّ القطبيّ وفاتن الصّالونات، ذلك الرّجل
عشق امرأة وهو في سنّ السّابعة والأربعين!

اسمها إيلونور كاتارينا فون بورك. سليلة النّباله البوميرانية⁽⁹³⁾
الرّاقية، وصيفة الشّرف لدى الأميرة، ذات مذهب لوثيري⁽⁹⁴⁾.
وبوصفه نبيلًا، حصل من فريدريك، بتدخّل من أمّه الملكة، على أن
يتوسّط له لدى عائلة الفتاة. في رسالة تبرز فيها سخريّة ذلك الملك
المثليّ، تمنّى ألاّ تحرمه زوجته القادمة من لطف صديقه وفتنته
وحديثه. كفّ موبرتوي عن كلّ خلاعة، واستقام. ومنذ ذلك
التّاريخ لم تعرف عنه أيّ خيانة زوجيّة.

في إحدى رسائله، يتأسّف أنّ زوجته لا تنجب له أطفالًا، وأكّد
ملمّحًا أنّه عرف الأبوة بسوء مصادفة، وحلّ نفسه عقم الزّوجين.
فهل نستخلص من ذلك أنّ الأمراض التّناسليّة المتكرّرة هي سبب
عقمه؟ أو عنته؟ وذلك ما يفسّر عدّة أشياء، من بينها بعض
الفرضيّات «الفلسفيّة» في مقالة في الفلسفة الأخلاقيّة كتبها في
الأثناء.

في ضوء هذه الحقيقة البيوغرافيّة، لماذا غيّر الخليع القديم مبادئه
وصار يظهر علانيّةً مع أصدقاء وهو يتلو سبحته ويحضر القدّاس

(93) نسبة إلى بوميرانيا Poméranie وهي منطقة ساحليّة جنوبي بحر البلطيق، تقع في
الشّمال الغربيّ لبولندا والشّمال الشرقيّ لألمانيا.

(94) نسبة إلى مارتن لوثر Martin Luther (1483-1546)) وهو راهب ألمانيّ وأستاذ
لاهوت ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا بعد اعتراضه على صكوك الغفران التي تصدرها
الكنيسة الكاثوليكيّة والعودة إلى النّصوص الأولى المؤسّسة.

ويصوم، ويقوم بكلّ الأشياء التي لم تكن تشغله حين كان «قضييه الجاف» لا يزال يعمل بامتياز. صحيح أنّ إظهار المرء تعلّقه بدين مسقط رأسه، في بلد بروتستانتيّ، هو ضمان ذكيّ لمستقبل فرنسيّ محتمل. ولكن لنقل بالأحرى إنّ التحوّل الورع لمن بات فضيلًا إنّما مرده إلى كونه صار عاجزًا عن ممارسة الرّذيلة. أي أنّ موبرتوي جعل من الضّرورة فضيلة.

7

نوبات غضب جديدة. إنّ خانه اللييدو، فإنّ الشّغف لا يزال قائمًا، إذا هوجم في شرفه، وطُعن في كفاءته، ووضعت نزاهته موضع ريبة. وكما هو الشّأن مع كاسيني، عادت المضايقات من جديد: كونيغ⁽⁹⁵⁾ عالم الرّياضيّات يشكّك في جدّة اكتشاف موبرتوي مبدأ الجهد الأدنى الذي تنتقل بموجبه الطّبيعة من الأبسط إلى الأسرع والأيسر للحصول على الشّكل الأكثر توافقًا وتأدية لكيانها ومدّتها.

هذه الأطروحة وُجدت منذ 1746 في قوانين الحركة والسّكون المستوحاة من مبدأ ميّافيزيقيّ؛ ثمّ طوّرها موبرتوي من جديد في مقالة في علم الكونيّات عام 1751. وكونيغ يهاجم هذا الكتاب تحديدًا ولا سيّما أطروحته: يزعم أنّ تلك الفكرة موجودة في إحدى رسائل لايبنتس. والهجوم انطلق من الوولفيّين⁽⁹⁶⁾ الذين حاولوا الحطّ من قيمة موبرتوي، فألحّ الفيلسوف الفرنسيّ على رؤية الرّسالة

(95) Johann Samuel Koenig (1712-1757): عالم رياضيّات ألمانيّ.

(96) نسبة إلى الفيلسوف ورجل القانون وعالم الرّياضيّات الألمانيّ كريستيان وولف

Christian Wolff (1679-1754). والوولفيّة هي من أهمّ تيارات الأنوار الألمانيّة.

المعنيّة - ولكنها لم تكن موجودة. وهو ما أثار غضبه.

ولما كانت نفس الأسباب تولّد نفس النتائج، فإن سوء طويّة آل كاسيني أثارت في موبرتوي بعد عودته من القطب غضبًا لا يمكن ردّه أو نقضه، ولم تفلح تنازلات الخصوم وتأسّفهم واعتذاراتهم في إيقافه. فالطّعن في عمله، ولا سيّما ذلك الذي حاز عنه جانبًا من صيته، جعله يستشيط غيظًا. كما هو الشأن بخصوص خطوط الطّول الواصلة بين القطبين، فقد جند موبرتوي كلّ قواه: الشّخصيّة - كتب مقالة حادّة مجهولة النّسب؛ والجماعيّة - وضع أكاديميّة برلين في الخطوط الأولى؛ والمجتمعيّة - عدّد أصدقاءه. تهاطلت الضّربات الخسيّة والهجومات الشّخصيّة.

ولم يبق فولتير - صديقه منذ عشرين عامًا! - بمعزل عن الصّراع. فولتير الذي اعتنق النّيوتنيّة بفضل موبرتوي، وكان رفيق دربه الفكريّ، وأدخله إلى صالونات المجتمع الرّاقى ولدى الأرستقراطيّين حيث كان له مكانه كجلس، فولتير الذي رأى عالم الرياضيّات يغازل تحت أنفه إيميلي دو شاتليه⁽⁹⁷⁾، فولتير الذي شهد النّجاح الأوروبيّ للمستكشف العلميّ، ها هو ينفث سمّه في نصّ مجهول الكاتب. ردّ، مجهول الاسم هو أيضًا من فريدريك الثّاني يدافع فيه عن حميّة. ردّ جديد من فولتير في مهاترة الدّكتور أكايا. بضع صفحات عنيفة تذمّ كلّ شيء ولا تتورّع عن أيّ دناءة - بما

(97) Gabrielle Émilie Le Tonnelier de Breteuil (1706-1749): أديبة وعالمة رياضيات وفيزياء. تلقّب بماركيزة شاتليه واشتهرت بترجمتها لـ "مبادئ رياضيّة" لنيوتن. وكانت خليفة فولتير طيلة أعوام.

ذلك الإشارة إلى إصابة المؤلف بالسّيلان.

وكان الخائن فولتير قد قرأ مهارته على فريدريك، الذي ضحك كثيراً، ولكنه منع نشرها؛ قبل فولتير وأحرق الرّفيقان معاً في مدفأة الملك نسخ الرّسالة الهجائيّة؛ وانتهى الأمر إذن. في تلك الأثناء، كان فولتير يعلم بوجود نسخ أخرى، تنتشر وتُحدث ضجّة كبيرة في أوروبا كلّها: والجميع يسخرون من موبرتوي. عندئذ غضب فريدريك وأحرق الرّسالة علناً. وصاحب كانديد شجاع ولكنه ليس جسوراً، فخشي على حياته وأراد هجر بوتسدام، غير أنّ الملك لم يسمح له؛ فأوقفته الشرطة وقضى بعض الوقت في السّجن برفقة «ابنة أخته»، السيّدة دوني. وبعد ثلاثة أشهر، عاد إلى فرنسا...

مرض موبرتوي، وصار يبصق الدّم وظنّ أنّه أشرف على الموت. غير أنّه واصل الظّهور بمظهره المعتاد بباروكة صهباء مرشوشة بالأصفر يعتمرها مقلوبة. أحياناً، يظهر في لباس لابيّن... وفي أغلب الأوقات يشرب ماء الحياة، كي يشفى من دائه... رسائل من تلك الفترة تشهد على أهتاره: كان يريد تفجير الأهرام بأصابع الدّيناميت لاستكشاف أجوافها؛ تأسيس مدينة تكون اللّاتينيّة لغتها وشباب الأرض سكّانها؛ إجراء عمليّات تشريح على أدمغة المحكوم عليهم بالإعدام أحياء، للبحث عن أسرار الانفعالات البشريّة. الإفراط، غرابة الأطوار، غرابة الشّخصيّة جعلت من السّهل على فولتير أن يتحمل عليه دون تردّد.

نوبات غضب، بقيّة ومزید... بعضهم يتحدّثون عن «موبرتوي طيّب»، وآخرون عن غروره الضّخم ووصوليّة. لا غرو أنّ غرابة الشّخصيّة وقوّتها، وطبعه الحامي العنيد، ومواهبه الرّوحانيّة، وميله إلى الكلمات الصّائبة، والأجوبة المسكّنة وسواها من السّمات اللّامعة التي كانت تلقى الإعجاب في البلاط والصّالونات حولته إلى شخص لا يُطاق. لا يُطاق، لكونه موهوبًا، شديد الثّقة بنفسه، لا يدع أحدًا يتناول عليه، سريع الغضب إذا ما تحفّظ أحد على شخصه وما يفعل أو يقول أو يكتب. فما بالك إذا كان الأمر هجومًا سافرًا!

الرّهانات الفلسفيّة – بالنّسبة إلى ديكارت أو نيوتن، والمؤيدين للدّوّامات أو الجاذبيّة، والمدافعين عن مندليّة النيوتنيّة ضدّ اللّيمونه الديكارتية، مبدأ موبرتوي أو مبدأ لايبنتس – تُستعمل في الغالب لتغطية قضايا شخصيّة تافهة، حيث تؤدّي الغيرة والحسد والضّغينة وكره نجاح الآخر دورًا رئيسيًا. الجدل الفكريّ حاضر لا محالة، ولكنّ الخصومات تتشكّل أيضًا من سهرة جليس أمراء ناجحة بالنّسبة إلى هذا الطّرف، وفاشلة بالنّسبة إلى الطّرف الآخر، من خطوة سيّدة تُقبل أو تُرفض، من هبة ممنوحة، من قيمتها، من رضا الملك، من كلام جميل يتيح نجاح موهوب، وخيبة فاشل إذن. وكان القصر يلعب دورًا هامًا في الجدل، ولكن ليس بالضرورة في السّمو الفكريّ...

ولما كان عدد المؤلّفين البعيدين عن عبث الخاملين ذاك أقلّ من

المعتادين على القصور الأوروبيّة، فإنّه يمكن التّعرف عليهم بسهولة. القائمة طويلة لمن عاشوا بفضل سخاء الأقوياء، من كريستين ملكة السويد إلى لويس السّادس عشر مرورًا بلويس الخامس عشر، الوصيّ على العرش، وفريدريك الثّاني، وكاترين امبراطورة روسيا - أليس كذلك يا ديكارت وفولتير وديدرو ولا ميتري؟ أحدهم عاش دون عون الملوك، فقد رفض العطايا وكتب نصًّا في هذا الموضوع استحسّن فيه حرّيّة ديوجينيس أمام الإسكندر واستهجن انبطاح أفلاطون للطّاغية دينيس السّرقسطيّ. إنّه دالمبير، صديق موبرتوي.

هذا النّصّ عنوانه: مقالة عن مجتمع الأدباء والكبار، عن الشّهرة، عن رعاة الأدباء وعن المكافآت الأدبيّة. ماذا نقرأ فيه؟ إدانة للمؤلّفين والمفكرين وفلاسفة البلاط؛ وتحذيرًا من الإيثار المتنفّج للمفكر الأجنبيّ مشفوعًا بنقد مثيله الفرنسيّ؛ واعتراضًا على الميل إلى الكلمات المولّدة العزيزة على الطّائفة الفلسفيّة؛ وهجومًا ضدّ الارتحال إلى بلاط أجنبيّ لتسوية مشاكل الوطن؛ وتشهيرًا بالصّحافيّين، أولئك المرتزقة الحاسدين التّافهين الذين يمتدحون عديم الكفاءة ويسكتون عن الجودة؛ ورفضًا لجعل غاية الكتابة أن يكون صاحبها معروفًا ومعترفًا به؛ وملاحظات أخرى عديدة تستهدف أهل الأدب ماضيًا - وحاضرًا ومستقبلًا. نصّ مهمّ إذن، نصّ بالغ الأهمّيّة، مؤرّخ في يناير 1753.

ولكن بنصّ آخر، علميّ هذه المرّة، صار دالمبير، وكان الشّابّ

المحمي من موبرتوي الذي لم يأل جهداً كي يدخله إلى المجتمعات المفيدة في الحياة الاجتماعية، عرضةً لغضب حاميه القديم. لم ينتقد دالمير مبدأ الجهد الأدنى، وتجنّب منازعة موبرتوي في أبوة طفله الأبستيمولوجي، ولكنه أعرب عن قلقه من أن تسمح مقالة في علم الكونيات باستخلاص استنتاجات ميتافيزيقية وروحانية، وباختصار تيولوجية انطلاقاً من ذلك المبدأ الفيزيائي. وأكد أن تعميم وجود ربّ انطلاقاً من ثبات قوانين الطبيعة، ولا سيما من مبدأ الجهد الأدنى، فذلك ما يستحقّ أن نتوقف عنده علمياً. لم يكن موبرتوي موافقاً فقطع علاقته بصديقه القديم...

9

موت اللابي. في نهاية سباق، أحسّ موبرتوي، وقد أتلّف صحّته الكحول ومرضه الصدريّ القديم، والتهابات مرّة مزمنة، وربّما آثار مرض زهريّ، بقرب نهايته. استأذن فريدريك في إجازة فوافقه. عاد إلى سان مالو عام 1756. في الثامنة والخمسين، كان على موعد مع عدوّه الأخير: الموت. لم ترافقه زوجته، ولكنّ مشاعرهما لم تتغيّر.

باغتته حرب الأعوام السبعة⁽⁹⁸⁾ وهو في بروتاني: أيّ معسكر يختار؟ فرنسا أم بروسيا؟ وطنه حيث لم يعد له صديق، أم بوتسدام حيث بلاطه وعاداته ورتابته، وكذلك زوجته بخاصة؟ وهي التي

(98) من أكبر الحروب في تاريخ أوروبا، وأوّل حرب يمكن أن توصف بالعالمية، فقد وضعت ما بين عامي 1756 و1763 وجهًا لوجه النمسا وحليفها بريطانيا من جهة، وبروسيا وحليفها فرنسا من جهة ثانية، قبل أن تنضم روسيا إلى الطّرف الأوّل وإسبانيا إلى الطّرف الثّاني. وامتدّ النزاع إلى مستعمرات تلك الدّول في آسيا وأمريكا الشماليّة.

أوعزت إليه بالعودة إلى برلين. لم تكن الأمور بسيطة: من سان مالو إلى بوردو، مرورًا بتولوز وناربون وسويسرا، قضى ثلاث سنوات تائهاً دون أن يستطيع العودة، حيث ظلّ ينتظر في الموانئ تراخيص، أو يجد نفسه في طريق وعرة نحو القصر الملكي. في أكتوبر 1758، نزل بمدينة بازل عند عالم الرياضيات جان بيرنولي، حيث توفي في 27 يوليو 1759 دون أن يرى زوجته التي لم تصل إلا من الغد.

10

فينوس، زئوج بيض، إلخ. تنتمي آثار موبرتوي في جوهرها إلى مجال العلوم. من رواية الرحلة إلى التقرير الجغرافي مرورًا بملاحظات حول العقارب والسّمندل، وتحاليل متعلّقة بعلم مساحة الأرض - خاصّة وجه الأرض (1738) -، ومقترحات بيولوجيّة... لنترك للأبستيمولوجيين مهمّة إظهار أهميّة اكتشافاته أو الكيفيّة التي تمّ بها الاهتمام بحدسيّاته في علم الوراثة، في أوروبا في عصره وما تلاه.

بحث فيزيائيّ لمناسبة الزنجيّ الأبيض (1744) الذي صدر في العام الموالي بعنوان **فينوس فيزيائيّة** يبيّن اعتراضه على النظريّة (السائدة) عن التكوّن السبقيّ للجنين وناضل لأجل تطبيق جاذبيّة نيوتن في المجال التناسليّ. لئن أدّت الأدوات التي وفرّها نيوتن إلى طريق مسدود، فلقد اتّضح أنّ الفكرة صحيحة: الجنين يتكوّن فعلاً حسب مبدأ جدليّ انطلاقيّ من مادّتين.

موبرتوي الطَّبَاقِيّ. إن صادف أن احتلّ موبرتوي موقعًا في تاريخ الفلسفة، وهذا نادر، ففي المجال الأبستيمولوجيّ. بالرَّغم من أنّه صاغ أيضًا نصًّا قصيرًا في الفلسفة يستحقّ، في نظري، أن نتوقف عنده، لأنّ له دورًا أساسيًا في عداد تيّار فكريّ فرنسيّ محاه التّاريخ الرّسميّ، لكونه مفرطًا في المادّيّة، قليل الإيمان، غير مثاليّ أو روحانيّ بالقدر الكافي؛ بعبارة أخرى: لا يتلاءم مع التّقاليد اليهوديّة المسيحيّة بعد تدويرها من طرف المثاليّة السّائدة. هذا التّيار، أسَمِيهِ النّفعيّة الفرنسيّة. بيد أن النّصّ الذي سبق وجوده هو **مقالة في الفلسفة الأخلاقيّة**، الذي نشر أوّلًا في برلين بالألمانيّة عام 1749 ثمّ في فرنسا بالفرنسيّة منذ عام 1751.

هذا النّصّ القصير (قطع 12⁽⁹⁹⁾ من مائة وخمس وعشرين صفحة، بواقع سبعة عشر سطرًا في الصّفحة الواحدة...) وُجد في البداية في شكل رسالة خاصّة إلى صديق. وكما هي الحال دومًا في تلك الفترة، تمّت قراءته في الصّالونات، ونسخه، وإعادة نسخه، فانتشر إلى أن ظهر ذات يوم مطبوعًا ومنشورًا وموزّعًا دون موافقة الكاتب أو ترخيصه. في هذا الحالة، ثمة احتمالاتُ حظره ولكن أقلّ ممّا عليه لو كان للكتاب حضور نشريّ رسميّ.

لتجنّب الطّبعات المقرصنة، المزوّرة، سيئة النّسخ أو المشوّهة عمدًا، وافق موبرتوي على نشره. افتتحه بالردّ على الملاحظات الأكثر

(99) in-12° أحد مقاييس حجم الكتاب، وتعني هنا ورقة مطوية على 12، أي 24 صفحة.

تداولاً التي قبل بها نصّه: كتاب كارهٍ للبشر، مديح مُذنبٍ
لانتحار، عمل تجديف، ولكن أيضاً كتاب ورع (!)، مصنّف ذو
أسلوب جافّ! مع أنّ المنهج الجيّد يفترض أن نقرأ الكتاب حتّى
نستطيع الإمساك بمعاني الملاحظات، ثمّ ملاءمة الأجوبة وقيمتها:
تلك التّوطئة تستحقّ إذن أن تكون ملحقة...

تلك الصّفحات الأولى، غير الحاذقة، تدعو إلى عدم القراءة: فمن
الذي سيستعجل رؤية كتاب بالغ السّواد، ذي مَنفذ فظّ، مذب أو
خليع، أو له رائحة الماء المقدّس؟ أن يستحقّ الكتاب ذينك
المأخذين، فهذا دليل على جدّته وفرادته! ذلك أنّ موبرتوي يستعمل
منطقاً طباقياً في ظاهره ويمارس النّصرانيّة المتعيّة، والنّفعيّة الغيريّة
أملاً في علم فلسفيّ حقّ، بحسابيّات متع، وفيزياء نوازع ورياضيّات
مشاعر. لأجل تاريخ رسميّ نشأ على الرّضاة المثلى، وهذا كثير على
رجل واحد! وهو ما يفسّر غياب الأثر في مدوّنة الفلسفة الأخلاقيّة
الفرنسيّة.

12

على منوال المهندسين. لم يبتكر موبرتوي النّفعيّة، ولكنّه ساهم في
خلق الموادّ التي تشكّلها، لا سيّما إضافته الكبرى: حساب المتع.
حول هذا الموضوع، وجد المؤرّخون راحتهم في الأخذ من فقرات
من كتاب الأب تروبيه⁽¹⁰⁰⁾ مقالة حول مواضيع مختلفة في الأدب

(100) Nicolas-Charles-Joseph Trublet (1770-1697): رجل دين وواعظ فرنسيّ
أصيل سان مالو، حيث ولد مات.

والأخلاق (1735) أو ترجمة سيلويت⁽¹⁰¹⁾ لكتاب
ستيلينغفليت⁽¹⁰²⁾ بحث رياضي في السعادة، أو النّش عن خصائص
الإنسان لشافتسبوري⁽¹⁰³⁾ (1711). مؤرّخ آخر تحدّث عن
 «أقراص» مدام دو شاتليه، وعن «حساب طبيعيّ» لكاراشولي⁽¹⁰⁴⁾
 – غير أنّ كتابه **لغة العقل** يرجع تاريخه إلى 1759 وكتابه **الانتشاء**
بالذات يعود إلى 1763... وآخر لاحظ أنّ مقالة في الموسوعة
 بعنوان «قورينيّات» وبقلم شخص يدعى ديدرو، نجد فيها هي أيضًا
 عبارة «حساب أخلاقيّ». إذن؟

إذن لا يهمّ. لأنّ تلك الفكرة عبرت تاريخ المتعيّة منذ بداياتها في
 ذرّيّة الأبديريّين⁽¹⁰⁵⁾ قبل خمسة وعشرين قرنًا؛ نجدها عند
 القورينيّين بالتّأكيد، وأبيقور وكلّ الأبيقوريّين الذين ساروا على
 خطاه، بطبيعة الحال. سؤال عقل سليم: عندما يتناول المرء
 الأخلاق، لا كعالم دين أو ميتافيزيقيّ، بل كفيلسوف حريص على أن
 يكون لا على وجوب أن يكون، فنحن نعرف أنّه ذاهب على نحو
 طبيعيّ إلى المتعة ويهرب من اللّامتعة، وأنّه ينبغي ثقافيًّا إيجاد معنى

(101) Étienne de Silhouette (1709-1767): فيلسوف فرنسيّ.

(102) Edward Stillingfleet (1635-1699): عالم دين بريطانيّ أنغليكاني وكاتب.

(103) Anthony Ashley-Cooper كونت شافتسبوري (1671-1713)

فيلسوف وسياسيّ بريطانيّ.

(104) Louis-Antoine de Caraccioli (1719-1803): كاتب فرنسيّ متعدّد

الاهتمامات.

(105) الأبديريّون، نسبة إلى مدينة أبديرة Ábdēra اليونانيّة، حيث ظهرت مدرسة
 فلسفيّة على رأسها لويكيبوس وديمقريطس مؤسّسي الذرّيّة، مذهب الجوهر الفرد،
 القائل بأنّ المادّة مؤلّفة من جواهر فردة، وأنّ الأجسام تتكوّن وتفسد بالتقاء تلك
 الجواهر وافتراقها.

ذلك الانتحاء الطَّبِيعِيَّ وأنَّ أكبر متعة تفترض أحياناً التَّخْلِيَّ عن المتع الصَّغيرة. الجِدَّة لا تكمن في هذه المعرفة بقدر ما تكمن في استعمال ذلك المنطق كمبدأ معماريٍّ لإيثيقا كاملة.

يمكن أيضًا أن نتناول مسألة صياغة حقائق كونية في لغة حسابية، رياضيات كونية افتراضية مع نفس الخلل: من الأوَّل؟ متى؟ أين؟ في أيِّ عمل؟ لنكن على علم أنَّ الفكرة انتشرت في القرن السَّابع عشر. لنتبَّ الأسماء: ديكارت في قواعد لتوجيه الفكر، نيوتن، لايبنتس، سبينوزا طبعًا في كتابه إيثيقا على منوال المهندسين. ولكن لنترك جانبًا خصومات رغبة التَّصدُّر، ومنطق الجينياولوجيات، واللَّحظات المؤسَّسة وتواريخ الولادة، فلا أحد من المفكرين أنتج رؤيته للعالم من فراغ. ليست الموادُّ هي المهمَّة بل البناء الذي يعقبها. الموادُّ المستعملة لحساب المتع لأجل تشييد متعة أكبر قدر ممكن، غايتها نفعية مشتركة، انطلاقًا من ملاحظة قوانين الطبيعة، ذلك هو المبحث الجديد الذي تقترحه الإيثيقا الرياضية لموبرتوي.

13

آلة لقياس المتعة؟ الصَّفحات السَّت عشرة الأولى من الفصل الافتتاحيِّ لـ مقالة في الفلسفة الأخلاقية تستعمل عددًا كبيرًا من الكلمات المأخوذة من قاموس الفيزياء والحساب: حسب، وزن، قاس، قلل، زاد، قسَّم، حساب ونفقة، جملة الخيرات والشُّرور، كثافات ومُدَد - كثافة مضاعفة، مدَّة بسيطة، برهة مساوية -، كمِّية موجبة، كبر، منتوجات الكثافة، حسومات وبقايا، استمرارية

وضعف الكثافات، سرعة وبطء، طويل وقصير، صغير وكبير...
القراءة تسبب الدّوار: يخيّل إلينا أحياناً أننا بصدد قراءة صفحات من
معادلات فيزيائية!

وككلّ عالم رياضيات ذاهب للبحث عن متغيّر مجهول (مبدأ
الأخلاق)، يخصّص موبرتوي أوّل جملة من كتابه لعرض اقتراحات
قبلها الجميع. المتعة؟ كلّ إدراك تفضّل الرّوح الإحساس به على ألاّ
تحسّ به. ومن ثمّ، وحسب مبدأ عدم التناقض، يصبح الأسى: «كلّ
إدراك تفضّل الرّوح ألاّ تحسّ به». ثمّ يتمّ التّوسّع انطلاقاً من ذلك
المكسب الأوّل: المتعة؟ الإحساس المنشود الذي نتمنّى طول مدّته.
الأسى؟ العكس، الإحساس المكروه الذي نريده أقصر ما أمكن.
اللّحظة السّعيدة؟ مدّة الإدراك الممتع. اللّحظة التّعيسة؟ العكس.
تانك اللّحظتان تفترضان حركات، جدليّة.

بالكبر والمدة، نحدّد كثافة المتعة. عندئذ نحصل على سلاسل
جدليّة: كبر الكثافة، طول المدة، والمجموع يحدّد كمّيّة قيمة اللّحظة
السّعيدة أو التّعيسة. تليها هذه المعادلة، التي لها جفاف خلاصة
برهان جبريّ: «تقدير لحظات سعيدة أو تعيسة هو نتاج كثافة المتعة
أو الأسى، لا المدة». ليس في هذا ما يثير، ولكنه دقيق حقاً.

لئن وُجدت أدوات لقياس المدد - ساعة، بندول، كرونومتر -،
فإنّ الأدوات التي يمكن أن تقيس كثافات المتعة لا وجود لها. لا
توجد أداة لقياس المتعة... فما الحيلة؟ يفقد العالم بعض كبريائه حين
يأخذ عنه الفيلسوف المشعل: «الإحساس» يمكن أن يكون له فكرة

عن درجة قوّة الانتشاء المُتّاب - أو الألم. والذاكرة تقارن، والحكم يغدو ممكنًا، وتكون الخلاصة في مستوى المتعة. لنقرّ أنّ ثمة آلات أكثر وثوقًا لدى رجل علم من إدراك ذاتيّ فرديّ...

بتلك الآلات تصبح السّعادة والتّعاسة سهلتَي التّحديد. الخير؟ «جملة اللحظات السّعيدة». والشرّ؟ «جملة الخيرات المتبقّية بعد حذف كلّ الشرور». التّعاسة؟ «جملة الشرور المتبقّية بعد حذف كلّ الخيرات». كان قرّاء تلك الفترة يعيرون على موبرتوي جفافه، القحولة القصوى لكتابه، غياب الأسلوب المتفرد. وهذا صحيح. وهو يقرّ به ويختم باقتضاب أنّ الموضوع يقتضي ذلك...

14

بناء النّشوة. بعد أن عرف كلّ واحد ما هي المتع والغمّ، الخير والشرّ، الطيّب والسّيئ، السّعادة والتّعاسة، ما يعني عددًا من اللحظات والحالات والأحاسيس والإدراك الممتع أو المنفرّ، المحبوب أو المكروه، ينبغي له، وهو يمتلك تلك البوصلة الفيزيائية، الميتافيزيقية إذن، أن ينشد سعادته ويتجنّب التّعاسة. الخير والشرّ لا يوجدان في المطلق، بينط عريض، في المبدأ الأفلاطونيّ، بل نسبيًا حسب وضعيّة: تلك الوضعيّة، ذلك الاختيار، ذلك السلوك، ذلك الفعل تولّد كلّها خيرًا، أو شرًّا، في زمن محدّد، بعيد إن قليلًا أم كثيرًا، حسب قوّة متغيّرة، مرتفعة إن قليلًا أم كثيرًا، ولمُدّة متغيّرة هي أيضًا، قوّة إن قليلًا أم كثيرًا. وها نحن في الواقع في الكون العواقبيّ⁽¹⁰⁶⁾

(106) العواقبية conséquentialisme: نظرية أخلاقية تقول بأن أخلاقية عمل ما رهينة فقط بعواقب ذلك العمل.

لِلنَّفْعِيَّة. ينبغي إذن أن نهدف إلى أكثف خير ممكن، وأعلاه، وأطول، وأقواه، وأكثره رغبة، وأقله تكلفة أيضًا. ولكن في الواقع، لا توجد متعة خالصة إلى الحد الذي تتجمع فيها كل الخصال: كثافة، ارتفاع، طول، قوّة، مدّة. ولذلك وجب القيام دومًا بعملية حسابية. في وضعية محدّدة، ملموسة، ينبغي فحص ما ينبغي لنا فعله للحصول على توازن قادر أن يمنحنا متعة. قد يأتي ذلك الفرح من حساب دقيق يستوجب التخلّي في الحال عن متعة صغيرة لنيل متعة أكبر فيما بعد - أو متعة أقصر مدّة لتوليد متعة أطول لاحقًا، إلخ. هذا الحساب يفترض الحذر، ذلك الفنّ الفلسفيّ في جوهره، والفضيلة الأساسية في النظام النفعيّ.

15

الرّغبة في كلّ مكان. زيادة مجموع الخيرات، تقليل مجموع الشّرور، قد تبدو الوصفة سهلة نظريًا، ولكن ما العمل في الحياة المعيشة؟ عيب على موبرتوي كرهه للبشر، وحتىّ تشاؤمه. هل يكره البشر، هل يحتقر الواقع، ذلك الذي يرى كلا الطرفين كما هما؟ لم يكن متفائلًا - لا يرى الأفضل في كلّ مكان، مثل بوب⁽¹⁰⁷⁾ أو لاينتس - ولا متشائمًا - لم يصل إلى خلاصة أنّ الشرّ في كلّ مكان مثل هيغسياس القوريني -، كان واقعيًا، أي تراجيديًا.

الفصل الثّاني من مقالة الفلسفة الأخلاقية يبيّن أنّ «جملة الشّرور في الحياة العادية تفوق جملة الخيرات»... فهل هذا كلامٌ نافر من

(107) Alexander Pope (1744-1688): أكبر شاعر إنجليزي في القرن الثّامن عشر.

العالم، أم كلام عالم نفسانيّ واضح الرؤية، كان يقيس في قصر فريدريك أكثر من أيّ مكان آخر درجة الدّناءة والسّفالة والمكر والخبث التي يأتيها الهومو سابينس لأجل أوهام؟ لا حاجة لتفسير، وضبط قائمة في تلك العلل اليوميّة، فليتساءل كلّ واحد، ولينظر من حوله، أو إلى داخله...

موبرتوي يرفع مستوى الجدل ويبيّن سبب ذلك. نعم، مجموع الشّرور يفوق مجموع الخيرات. ولكن لأيّ سبب؟ بسبب الرّغبة. الرّغبة عذاب. تفترض إرادة ما ينقصنا، والتّوق إلى رضا يوافق انتظاره حالة حرمان. ولو ألغينا زمن وجودنا الذي قضّيناه في الرّغبة، فماذا يبقى؟ لا شيء. أو نزر قليل. نحن لم نعش، بل اكتفينا بإرادة ما ليس لدينا، والرّكض وراء الرّيح. في هذا الزّمن الهارب عن الرّغبة، ماذا نجد؟ تسليّة... أي: العمل على طرد عذابنا وهمومنا وآلامنا بلعب الورق والصّيد وسهرات شرب، وتدخين ومنشّطات أخرى - الأفيون برفقة لا ميتري؟ -، وأدوية أخرى تافهة لعلاج ضيق الحياة.

فهل الوضع ميئوس منه؟ كلاً. إذ ثمة علاج حقيقيّ: يفترض استخدام المرء عقله وحرّيته استخداماً سليماً. موبرتوي الرّجل العلميّ، الذي يلاحق قوانين الطّبيعة، ويعرف ثبات اشتغالها، يرى فيها مادّة لإثبات وجود الرّب - وهو ما أغضب دالمبير... -، ولا يشترك في الإيمان بالقدريّة العزيزة على المادّيين. بل يؤمن بوجود حرّيّة الاختيار - وبوجود الرّب إذن، وبخلود الرّوح، بالمناسبة.

ما العمل؟ تجنب الشَّطط النَّظريّ. فالبروتانيّ موبرتوي كان يمكن أن يكون نورمانديّ! وكما دافع الحذرُ جيّدًا في مستهلّ مقالة في الفلسفة الأخلاقية عن تأليفه كتاب كفر مثلما ألف كتاب ورع، أو اعتراضه على عالم الدّين الذي يمنع إعمال العقل وعلى الفيلسوف المؤمن «الذي ننصره حالما جرى الحديث عن الرّب»، فإنّه يسوّي بين الفلاسفة التّقليديّين الذين يؤكّد بعضهم أنّ قيمة الإنسان في روحه، مبدئه اللّامادّيّ الخالد، فيما يعتقد الآخرون أنّ الجسد هو وحده الذي يحدّدهم. الأوائل يحتفون بمتع الرّوح ويكرهون متع الجسد؛ والآخرون يرون العكس. ولكن لم يصب كبد الحقيقة لا أفلاطون ولا أريستيبوس⁽¹⁰⁸⁾، لا الزّهد المسيحيّ ولا المتعة الكافرة. ولا حتّى الزّهد الكافر، دون ريب، وإنّما التّواشج الغريب بين مسيحيّين متعيّين. وموبرتوي يقول إنّهُ مسيحيّ، وهو كذلك. على طريقته.

16

الخير سلطان. كان موبرتوي، بوصفه أليف علم التّشريح، وصديقًا للا ميتري، وقارئًا فطنًا، وعالمًا مجرّبًا، لا يجعل الجسد والرّوح متعارضين. متع هذا الطّرف؟ متع الطّرف المقابل. فالرّوح هي التي تَضَع المتع في قالب فكريّ... ما هي المتعة الأنبل في رأيه؟ «المتعة الأكبر» يجيب رياضيّ المتعة. نضيف كي نشدّد عليه الخناق: ما هي المتع الأكبر؟

ليست متع الجسد بالتّأكيد. إذ كلّما طالّت مدّتها تناقصت، فيزداد

(108) Aristippos (435 ق م-356 ق م): فيلسوف يونانيّ من مريدي سقراط، ومؤسّس مدرسة قورينا.

الأسى. ثم إن للجسد حدودًا حقيقيّة: قليلة هي الأعضاء التي يمكن أن تحسّ بالمتعة، ولكن كلّها يمكن أن تشعر بالألم. بعبارة أخرى: الضّرس لا تسبّب متعة، ولكن وجع الضّرس يؤلم. المتع الجنسيّة، وموبرتوي يتحدّث عن تجربة، تعقبها لحظات نفور طويلة ومديدة: احتدام وجيز، يعاد على الدّوام، مدد قصيرة وعواقب سيّئة، ثقيلة، طويلة، قويّة إذا ما مرّ عليها السّيلان.

أمّا متع الرّوح فهي تحمل لحظات رضًا أكبر، وأطول، وأكثر دوامًا، وأقلّ تكلفة. يقارن موبرتوي أفضال الرّواقية والأبيقورية، فالمدرستان، في نظر التّاريخ الرّسميّ، تحتكران تقريبًا الحكمة القديمة. بيد أن جملة الشّرور تغلب جملة الخيرات، كما في الحياة وأحسن طائفة فلسفيّة ليست تلك التي تقترح بناء وضعيّات متعيّة إيجابيّة، أي طائفة أتباع أبيقور، وإنّما تلك التي تعمل على تحطيم الآلام والأوجاع. إنكار الغمّ خير من تأكيد متعة.

أصدقاء زينون، حتّى إيكيتيوس⁽¹⁰⁹⁾ وماركوس أوريليوس⁽¹¹⁰⁾، الذين يحبّهم المسيحيّون كثيرًا، كانوا يدرّسون ضرورة أن يكون الإنسان سيّد آرائه ورغباته؛ وكانوا يريدون أن يشتغل كلّ واحد على التمثّلات، فيلغي بذلك سلطة القوى السّلبية الخارجيّة؛ وأخيرًا، كانوا يحتفون بالانتحار إذا لم يجد الإنسان حلًّا آخر للعيش في اطمئنان. تلك دروس نافعة للتّراجيديّ موبرتوي.

(109) Epictetus (5 م - 125 م) فيلسوف رواقيّ رومانيّ.

(110) Marcus Aurelius (121-180): فيلسوف رواقيّ، والإمبراطور الرّوماني السّادس.

المتعيّة المسيحيّة. يمكن القول في شكل مزحة إنّ موبرتوي إذ أرغم على المفاضلة بين الرواقيّة والأبيقوريّة، اختار المسيحيّة. في الواقع، الرواقيّة، التي يعترف بميله إليها، هي الأكثر تلاؤمًا ميتافيزيقيًا مع المسيحيّة. هو متمرّد ألصقت به صفات، تنطبق كلّها عليه: إذ يمكن أن يكون تاليهيًا لو اكتفينا بقراءة مقالة في علم الكونيّات حيث يُسقط الرّبّ من قوانين الطّبيعة؛ أو إيمانيًا⁽¹¹¹⁾ إذا ميّزنا مقاومته الفرنسيّة بكثرة التّسبيح على التّراب البروسيّ؛ قراءة مثالة في الفلسفة الأخلاقيّة تظهره مرتاحًا في إهاب ألوهيّ حيث يغدو الرّبّ خالق الكون؛ إلّا إذا أردنا سحبه إلى ناحية الحلوليّة، لأنّ محبة الرّبّ لديه تعني الخضوع لقانونه، وبالتالي إلى قوانينه، التي هي أيضًا قوانين الطّبيعة: محبة الرّبّ تتطابق عندئذ مع محبة إرادته التي تسمّى أيضًا العناية الإلهيّة... وبذلك يجد كلّ واحد سُؤله!

الدين لا يحتاج إلى دليل. والإلحاد أيضًا. ولو كان الأمر كذلك، فلن يكون ثمة سوى مزيد من المؤمنين أو مزيد من الكفار. والحال أنّ الحال ليست كذلك. لندع علماء الدين والفلاسفة يخوضون بلا نهاية في هذا الموضوع. أمّا موبرتوي، فقد حسم أمره: المعتقدات ملغزة لا محالة، لأنّ التّدبير الإلهيّ يفوق ذكاء البشر الهين. النّصرانيّة تبدو غير منطقيّة؟ ربّما، ولكن بنفس القدر الذي تميّز به الماديّة أو الحلوليّة! الدين يفترض «النّعمة والإرادة».

(111) Fidéiste: يعتمد على الإيمان بدلًا من العقل.

إذن، هل هو تألهي؟ إيماني؟ ألوهي؟ حلولي؟ لنجمع كل ذلك في هذا الطّباق البديع: متعيّ مسيحيّ أو مسيحيّ متعيّ... في الحقيقة، لكي نجمع بين هاتين القوّتين المتناظرتين، لا بدّ أن نقسّر التعريفات قليلاً: نصرانيّته لا تضع في اعتبارها الذات الإلهيّة أو الأشياء الملغزة؛ هو فيلسوف إنجيليّ، حكمة يسوع الشّبيهة بـ «طائفة فلسفيّة» على منوال الأبيقوريّة والرواقيّة. تلك الطائفة تقدّم قواعد سلوك «نافعة لتحقيق السّعادة في الدّنيا» — أوّكد.

ضدّ الرّواق والحديقة اللّذين يقترحان الخلاص الفرديّ بحكم شخصيّة، يؤكّد موبرتوي البعد البشّخصيّ للمسيحيّة: النّصرانيّ يحبّ سعادة الآخر. كلّ فرد سعيد بالعون الذي يقدّمه له الآخر. قوانين الطّبيعة تقودنا إلى تحقيق تلك «الرّغبة في أن نكون سعداء»، التي تستبدّ بنا على الدّوام. الحقيقيّ يمتزج بالنّاجع وهو ما يجعل تلك المشاريع المتعيّة ممكنة. وسوف يتذكّر ذلك الفلاسفة النّفعيون والبراغماتيّون في القرن الموالي. الرّبّ يحبّ ذلك. كيف يمكن أن يمتكّن البشر من سلطة التّمتع على الأرض ويمنعهم إيّاها؟ اعتقاد الإنسان بأنّه يمكن أن يفوز بالجنّة بتحويل حياته على الأرض إلى جحيم هو أمر عبثيّ. ويختّم موبرتوي قائلاً: «كلّ ما ينبغي للإنسان أن يفعله في هذه الحياة كي يجد فيها أكبر سعادة تقدر عليها طبيعته ربّما هو نفسه ما ينبغي أن يقودنا إلى السّعادة الأزليّة». كلّ نصرانيّة الفيلسوف ترتعد في تلك الـ «ربّما»...

(II)

هلفيتيوس

و«رغبة المتعة»

مكتبة

t.me/soramnqraa

1

جاء يساريّ. ولد كلود أدريان هلفيتيوس في شهر يناير من عام 1715، أي سنة وفاة لويس الرابع عشر. وكانت عائلته قد غادرت البلاطية⁽¹¹²⁾ الكالفينية⁽¹¹³⁾ بسبب مشاكل دينية، واستقرت في هولندا. وكان جدّه قد أدخل عرق الذهب Ipéca – وهي نبتة برازيلية تساعد على التّخّم والتّقيؤ حسب مقدار الجرعة – إلى قصر ملك فرنسا. مقابل هذا العمل الصّيدليّ الجليل، منحه لويس الرابع عشر عام 1690 وثيقة النّباله ووظيفة مفتّش عامّ للمستشفيات. وكان أبو الفيلسوف طبيباً مألوفاً لدى الملك، وطبيباً أوّل لدى الملكة.

(112) Palatinat: منطقة خاضعة لسلطة بلاطين، أي موظّف كبير في بلاط امبراطوريّ، في ألمانيا وبولندا بخاصّة.

(113) Calvinisme: نسبة إلى Jean Calvin (1509-1564)، وهو لاهوتيّ ومصلح بروتستانتيّ فرنسيّ، يقوم مذهبه على سيادة الرّب المطلقة ويبرز وجود الإنسان بالإيمان.

تلقّى هلفتيوس العلم عند اليسوعيين في معهد لويس لو غران، حيث قابل لأوّل مرّة أولئك الرّاع الذين سيضيّقون عليه عيشته. قراءة الأعمال الكلاسيكيّة. حقوق. أرسله أبوه إلى كان Caen قرب خاله السيّد دارمانش، مدير الضّياع، كي يأخذ عنه مهنة جابي ضرائب. على هامش ذلك التّكوين، كان يزجّي وقته مع النّساء - قيل إنّّه شابّ وسيم... -، ويكتب أشعارًا غزليّة ومسرّحيّات، حتّى أنّه استُقبل في أكاديميّة الآداب في عاصمة نورمانديا السّفلى.

وبفضل أبيه الذي حاز موقعًا هامًا في قصر فرساي، حصل على خطّة جابي ضرائب. كانت نفقات البداية مكلفة لأنّ المركز نادر ومحجوز، ولكن بالأجرة الملكيّة والعلاقات المعتبرة، استطاع الشّاب ذو الثلاثة والعشرين عامًا أن يسدّد ديونه بسرعة مع أرباح جيّدة: جامع ضرائب، مسؤول عن استخلاص أغلب المكوس الملكيّة غير المباشرة (إيجار أصحاب الضّياع، ضريبة الملح، أجور، مساعدات، رسوم دخول، رسوم تشذيب...) وكان يقطع نسبة مئويّة لا يستهان بها. في ممارسة تلك الوظيفة الشّاقة، كان هلفتيوس يبدو إنسانيًا، عادلاً، كريماً، باختصار، كان يبدو فيلسوفًا على قدر مستطاعه.

أهمّ ميزة فيه؟ الكرم. وسوف يمارسه من بداية حياته حتّى نهايتها، مع كلّ الفئات الاجتماعيّة: من ماريفو⁽¹¹⁴⁾، وكان يدفع له نفقة، إلى جملة من الكتّبة كان يتعهّدهم بالمال، مرورًا بأشخاص أذناء (يسوعيّ لعب دورًا خسيسًا في قضية عن الرّوح، ولكنّه ساعده بعد ذلك

(114) Marivaux (1763-1688): روائي وصحافي ومؤلف مسرحي فرنسي شهير.

خفية حتّى لا يظنّ بأنّ في الأمر انتقامًا...)، دون أن ننسى مزارعي أرضه أو الخاضعين للضرائب، وكلّهم يشهدون على علاقته بالمال: كان شهماً، سخياً، كريماً.

الوضع القانوني لجابي الضرائب يسمح لعدد من السفهاء بالتصرّف بطريقة صليّة، وهم واثقون من إفلاتهم من العقاب بتواطؤ مع العدالة والمارشالية⁽¹¹⁵⁾. ثمّ ألغى المجلس التأسيسي جباية الضرائب عام 1790 وأعدم عدداً من الجباة - واحد وثلاثون تحت عربة لافوازييه يوم 8 مايو 1794...⁽¹¹⁶⁾

تدخل هلفتيوس عدّة مرّات لتجنّب التّجاوزات، ومنع سلب المساكين. كان يرفض مال المصادرات، ويدين جشع عددٍ من أفراد قطاعه وعدم كفاءتهم. أحياناً، كان يعوّض لبعض الضّحايا من ماله الخاصّ... ويقال إنّهُ ضرب مرؤوساً مفرطاً في تعامله.

في بوردو، التقى بزارعي كروم أرهقتهم الضرائب الجديدة؛ وافق على مطالبهم ونصحهم بالتّحالف ضدّ متعهّدي الضرائب، ثمّ تنظيم تمرد؛ أكّد مساندته إيّاهم وقال إنّهُ سيقوم بدوره المعتاد، ولكنّ أصحاب الكروم سيكسبون القضية؛ ولم يصف شيئاً، بل عاد إلى باريس وحصل على إلغاء الضّريبة الجديدة...

ولكي يُدخل المسرة على أبيه، قبل وظيفة مدير خدم عاديّ لدى

(115) Maréchaussée: رجال الدرك في النظام الملكيّ السّابق.

(116) المقصود هنا العربة التي أقلّت معهم الفيلسوف لافوازييه Antoine Laurent Lavoisier (1743-1794) عالم الاقتصاد والكيميائيّ المبتكر الذي يوصف بأبي الكيمياء الحديثة، إلى المقصلة في عهد الإرهاب عام 1794.

الملكة. تلك الوظيفة لها ميزة مضاعفة، وهي أنها تترك له الوقت لكتابة رسائله الشعريّة، وتسمح له بعبور البلاط بكعب أحمر⁽¹¹⁷⁾، وهو في تصوّر البشر أشبه بقراءة حكم لا روشفوكو⁽¹¹⁸⁾، وطبائع لا بروير⁽¹¹⁹⁾ أو مذكرات سان سيمون⁽¹²⁰⁾... أو أكثر.

ملّ وظيفته في جباية الضرائب فاستقال - أمام ذهول معظم من حوله، فالتخلى عن مثل تلك الوظيفة أمر غير مسبوق. تزوّج الأنسة دو لينوفيل، وهي حسناء فقيرة، أنجبت له أربعة أطفال عاش منهم اثنان. ثم اشترى أراضي في فوري بمحافظة الأورن، وفي لوميني بمحافظة بُري. أقام في ذينك المكانين وفلح الأرض في أوقاتها المناسبة، وكان في الأثناء يقصد باريس بين الفينة والأخرى للإقامة في فندقه الخاصّ بباريس في شارع سانت آن.

في مقامه بجهة بيرش كان هلفتيوس يواصل الإحسان. من ذلك أنّه حاز موافقة الملك على تجنيب قرويّ ريمالار وما جاورها لزوم إيواء فرق الخيالة التي كانت تقاد إلى الجهة لوفرة العلف والعشب المصادرين شرعاً ولنوعيّتهما. كما تحمّل أتعاب جراح مصحوب بمتديّنة كان يعود الناس ويعالجهم مجّاناً، ويساعد المعوزين.

(117) انتعال أحذية ذات كعاب حمراء في قصر فرساي كان خاصّاً بالنّباء.

(118) François de La Rochefoucauld (1613-1680): مؤلّف وكتب أخلاق

ومذكراتيّ وعسكريّ فرنسيّ.

(119) Jean de La Bruyère (1645-1696): كاتب أخلاق فرنسيّ، حاز شهرته عن

كتاب وحيد هو "الطبائع أو أخلاق هذا القرن".

(120) Louis de Rouvroy de Saint-Simon (1760-1825): فيلسوف وعالم اقتصاد

وعسكريّ، مؤسس السّان سيمونيّة. كان لأفكاره تأثير على معظم أيديولوجيات القرن

التّاسع عشر.

في تلك الفترة، كان الناس في المملكة يموتون. وفي أراضيهم بفوري، كان المزارعون يصيدون بغير وجه حق، فيغصّ عنهم طرفه. وإذا نشب نزاع، يبادر بدفع ثمن المتاع المتنازع عليه، ثمّ يشرع في النقاش. أيامه في الرّيف، التي كانت مبرّجة، تفترض جدول أوقات منتظم: عمل في الصّباح - قراءة وكتابة -، غداء يتمّ الإعلان عنه برشة بنادق، تخصيص فترة ما بعد الظّهر للأصدقاء، والنّقاش، والصّيد، وتجمّع النسوة...

2

هاجس السّعادة. عشقه الأوّل للآداب خصّصه للسّعادة والمتعة، فكتب في البحر الإسكندريّ السّعادة، وهو قصيد استعاريّ رمزيّ، ورسالة شعريّة عن الفنون، ورسالة شعريّة عن المتعة. كلّ تلك الأعمال الشّبابيّة تجتمع فيها إرهابات عمله الفلسفيّ القادم، أي عن الفكر وعن الإنسان: فالبحث عن المتعة يمثلّ دافع كلّ أفعالنا وسلوكنا وأفكارنا؛ ويصدر عن كلّ مجموعة وكلّ تجمّع؛ ومعرفة هذا المبدأ سوف تسمح بسنّ تشريع حكيم سليم، ينفع في تحقيق سعادة الأفراد والمجتمع. المنفعة فقط هي التي يجب أن تبرّر الفكر والفعل؛ الطّغيان والخرافات هما الشرّ الذي ينبغي تلافيه أو التّخلّص منه.

الآبيات المتّان لقصيد رسالة شعريّة عن المتعة تلخّص إذن ما تفصّله الأعمال اللاحقة، وتوضّحه بأمثلة طويلة ومجموعة من الطّرائف التّاريخيّة. وضع العمل تحت إشراف فولتير، صديقه

ومراسله. وكان شيخ فرناي الجليل ينصحه في مجال الكتابة، وصناعة هذا البيت أو ذاك، وصواب صورة أو استعارة، وحسن استخدام مرحلة، إلخ.

3

الدنثيلا والجوارب والمعدن. ظلّ هلفتيوس طوال حياته على مسافة واحدة من النظريّة والتّطبيق، الفكر والفعل، الكتب والعالم، دون أن يسبق أحدها على الآخر، وتوصّل إلى إنتاج فكر يهتمّ بالواقع. صاغ مثله الأعلى حسب الإمكان والاحتمال البراهماتيّين. عندما يكتب نصّاً عن البذخ والمال والإنتاج والتّجارة والصّناعة وانتقال الثّروات، لا ينطق من موقع أريكة الفيلسوف، بل يصوغه بوصفه رجل فعل مع الحرص على النّجاعة الإجرائيّة. كان إحساسه بالواقع لا مثيل له في القطاع الفلسفيّ.

هو يعرف العالم لكونه جابي ضرائب، ومألوفاً في البلاط، أو لكونه سيّد أراضيّه ومقاولاً أيضاً. مبدع الأبيات الغزليّة، ومنظر السّعادة، وناظم الشّعر المتعيّ، صاحب الكعب الأحمر مشفوع بفيلسوف مولع بالصّناعة: كان يتوق إلى إصلاح البلاد بإلهام من الفيزيوقراطيّين⁽¹²¹⁾ الذين كان يخالطهم: كيف السّبيل لإعادة توزيع ثروات لم يقع إنتاجها أصلاً؟ كيف يمكن تصوّر اقتسام خيرات أكثر عدلاً إن لم يكن ثمة منظومة مفيدة وفعّالة لخلق تلك الخيرات؟

(121) نسبة إلى فيزيوقراطيّة Physiocratie وهو مذهب علماء اقتصاد يعتبرون الزّراعة مصدر الثّروة الوحيد.

انطلق سيّد فوري في بعث شركة دنتيلاً. غير بعيد عن ألسون وأرجنتان، الشّهيرتين بغُرز نسيجهما، كان هلفتيوس يعمل على صناعة ذلك المنتج ميكانيكيّاً، وكان متداولاً بين الأسر البورجوازيّة والأرستقراطيّة في ذلك الوقت. ولكنّ عدم كفاءة رؤساء عمّاله وربّما قلة أمانتهم أتيا على المصنع... لا يهّم. فتح مصنعاً لنسج الجوارب بالنّول، فكانت العمليّة ناجحة ومزدهرة.

كانت ثروته وريعه وتوظيف ماله تسمح له بالعيش طليقاً بين قصوره الجهويّة، وفندقه الباريسيّ، والتفرّغ للنقاش والحياة المرحّة والكتابة والصّيد، غير أنّه اختار استثمار التّراث الجيولوجيّ في الجهة، وخاصّة معدن الحديد. ولم يكن أهل الصّناعة في الجوار موافقين. أوّلاً لأنّ هلفتيوس سيّئ السمعة: لا يقدر المال حقّ قدره، ولا يعشق الكسب، ويوزّع ماله بسخاء. ثانياً، لأنّ النّاس مهما أحبّوا حرّيّة التجارة لأنفسهم، فإنّهم لا يحبّونها كثيراً لسواهم. ومن ثمّ، ربّ المُلّاك المتحالفون مقاومة، ونظّموها، وتخاصموا عن طريق اجتماعات بلديّة، وتحصّلوا على تخليّ الفيلسوف. انسحب إلى لوميني بين أهالي جهة بُري، ثمّ ابتعد عن البورجوازيّين النّورمان.

داول حضوره بين الحياة الباريسيّة في فندقه، برفقة أصدقائه شتاء، وبين حياة الحقول طيلة ثمانية أشهر هي الأجل من جهة المناخ. يقول: في الصّحراء، نلتقط الجواهر؛ في المدينة، ننحتها ونصقلها ونرصّعها. هذه دون تلك؟ مستحيل! ما معنى أن نجتمع فقط أحجاراً كريمة خامّاً؟ ثمّ كيف نصقلها إن لم نكن قد عثرنا عليها

عالم فلسفي راقٍ. في صالون آل هلفتيوس، بنهج سانت آن، يلتقي كبار الأسماء الفلسفية في ذلك الوقت. وهم أيضاً كبار القرن. فلتحكموا بأنفسكم: العجوز فونتنيل⁽¹²²⁾، الذي لا يعرف الوهن، وهو يقارب مائة عام من عمره، ابن أخت كورناي المواظب على صالون نينون دو لانكلو في القرن السابق؛ مارمونتيل، وهو أكاديمي ومؤرخ رسمي لفرنسا، وروائي ومؤلف تراجيديّ؛ غريم، أبو الثلجة البيضاء، ومؤسس الفيلولوجيا (فقه اللغة) الألمانية؛ بوفون، مبتكر علم الطبيعة الفرنسي؛ الأب راينال، القس المعارض للإكليروس والمناهض الشرس للكلونيالية؛ أندري موريليه⁽¹²³⁾، الكاتب والفيلسوف والمساهم في الموسوعة؛ ديدرو، الذي لا يحتاج إلى تقديم؛ تورغو، رجل الدولة الكبير، والمصلح السائر على درب الفيزيوقراطيين؛ كوندورسيه، عالم الرياضيات المتخصص في الإحصاء، ولكن أيضاً وخصوصاً نموذج تفاؤل الأنوار والمشرّف القادم على الإصلاحات البيداغوجية التي أرادها هلفتيوس؛ ديفيد هيوم، الذي تنبو شهرته هو أيضاً عن التّقديم؛ الأب كوندياك، الأب

(122) Bernard Le Bouyer de Fontenelle (1757-1657): كاتب ومؤلف مسرحي ورجل علم فرنسي.

(123) André Morellet (1819-1727): كاتب وموسوعي ومترجم فرنسي.

الحسّوي⁽¹²⁴⁾، بيكاريا⁽¹²⁵⁾، منظر إلغاء عقوبة الإعدام؛ آدم سميث، الليبراليّ الشهير مؤلف ثروة الأمم؛ روسو النكديّ - الذي يُقرضه ربُّ البيت مالاً؛ المؤرّخ الإنجليزيّ جيبّون صاحب الكتاب الضخم عن أسباب عظمة روما وانحطاطها؛ دولباك، الملحد الراديكاليّ؛ وعدد آخر من ذوي الأفكار النيرة الأقلّ رواجاً وشهرة، وإن كان لهم ما للآخرين من حيويّة ونشاط. خلال أربعة أشهر في السّنة، يلتقي ذلك الجمع الكريم لتناول الغداء كلّ ثلاثاء بداية من الثّانية بعد الظّهر.

في السّابعة مساءً، ينسحب هلفتيوس ويذهب إلى الأوبرا. الخميس والأحد هما يوماً مجلس دولباك، حيث ينبنى هناك أيضاً فكر الأنوار الذي سيشعّ على أوروبا. في بيت البارون، تُقرأ الوثائق السّبينوزيّة، والمناهضة للمسيحيّة، والحلوليّة، وتُناقش. نجد خلالها الإلحاد لا محالة، ولكن نجد أكثر منه الألوهيّة، المعتقد الغالب في القرن الثّامن عشر - على غرار الإيمانيّة في القرن السّابق. أمّا في بيت هلفتيوس، فأنفاس الإلحاد أقلّ...

في ذلك الصّالون، يجري الحديث أيضاً عن إنجلترا وأمريكا، البلدين المذهلين بشبابهما، وجِدّتهما، وعاداتهما المتباينة، وقوانينهما، وحكوماتهما المتداولة؛ يثار الحديث عن الاقتصاد السّياسيّ، كمبحث

(124) نسبة إلى الحسّويّة Sensualisme، وهو مذهب يرى أنّ كلّ الأفكار تنشأ من الأحاسيس.

(125) Cesare Marchese di Beccaria (1738-1794): رجل قانون جنائيّ واقتصاد، وكاتب وفيلسوف إيطاليّ ارتبط اسمه بحركة الأنوار.

جديد، مع آدم سميث، وكينيه⁽¹²⁶⁾ أو سيسمونيدي⁽¹²⁷⁾ الذين كانوا يفكرون في أفضل الشروط لإنتاج ثروات الأمة لأكبر عدد ممكن... فالليبرالية لا تلتقي مع الفقر.

5

مراس فكريّ مشترك. بعض ألسنة السوء تعيب على هلفتيوس أنّه لا يملك أفكاراً شخصيّة ولا فكرًا خاصًا، بل يقتنع بنهب محادثات لامعة من ذلك المجمع الجميل كي يخلق منها خليطًا من الأفكار، في أعمال شاقة، مختلة، سيئة البناء. لئن كانت الملاحظات حول قيمة الصياغة مقبولة - إذ كان هلفتيوس يجد معاناة في تأليف كتبه -، فلا يمكن أن نقبل ما يُعاب عليه ضمنيًا من نهب أو انتحال.

لا أحد يخرج سالمًا من تلك اللعبة الحمقاء المتمثلة في البحث عن المؤثرات في صياغة رؤية للعالم. حتّى أفلاطون، الذي يمكن أن نوهيه إلى قدر غير ذي بال إذا تسلّينا بالإشارة إلى كثرة الآثار الفيثاغورسيّة أو الأورفيّة⁽¹²⁸⁾، والإحالات على الميثولوجيا، ونهب علم نشأة الكون السابق للمدرسة السقراطية، إلخ، فالكلمات والأفكار لا تخلق الأثر الذي ينشأ من تنظيمها.

(126) François Quesnay (1694-1774): طبيب وعالم اقتصاد فرنسي، من مؤسسي أوّل مدرسة في الاقتصاد، مدرسة الفيزيوقراطيّين. وهو مؤلف الجدول الاقتصاديّ، أوّل تمثيل تخطيطي للاقتصاد.

(127) Jean-Charles Léonard Simon de Sismondi (1773-1842): مؤرّخ وعالم اقتصاد سويسريّ سطع نجمه في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، ولا يمكن أن تكون أفكاره مثار الحديث في هذا الصّالون، لأنّه ولد بعد وفاة هلفتيوس بنحو عامين.

(128) Orphisme: مذهب قائم على أسطورة أورفيوس اليونانيّة.

يمكن أن نطيل الحديث عن فكرة موجودة في كتاب عن الرّوح، دور عزّة النّفس مثلاً، ونبين أنّها سبق أن وجدت عند لا روشفوكو؛ الشّيء نفسه بالنّسبة إلى التّجريبية الحسّوية المعلنة في كتاب عن الإنسان، والحاضرة من قبل عند كوندياك، الذي أخذها بدوره عن جون لوك. فماذا سنثبت؟ لا شيء، سوى أنّ ثمة مناخاً عاماً، وفكرَ مرحلة، وأنّ الأفكار تتنقل في المخطوطات السّريّة كما تتنقل في الصّالونات حيث يُبتدع فكر القرن الثامن عشر، وأنّ عبقرية الفيلسوف تتجلّى في قدرته على تحويل تلك المعادن المختلفة المبعثرة إلى ذهب فلسفيّ.

ومن ثمّ، لا حاجة إطلاقاً إلى التّعجب من أنّ هلفتيوس، في صالونه، كان يتحدّث قليلاً ويسمع كثيراً، يطلق فكرة، ويتبع تطوّرها في نقاش ضيوفه. وإن انعزل أحياناً كي يتبادل بصوت خافت مع هذا أو ذاك، فإنّه لا يسلك سلوك ناهب أو سارق أو مفكّر عديم الأمانة، بل سلوك فيلسوف يمارس تمريناً مشتركاً جماعياً في الفكر. يتصرّف تصرّف رجل مهذب ولا يدعو إلى بيته ذوي الأفكار النّيرة في عصره كي يجعل منهم جمهوراً عرضه الشّخصيّ، وإنّما ليتيح لهم مجتمعاً صغيراً نافعاً ومتعياً، متعاقدًا وحرّاً، محبّاً للمساواة وعادلاً. أي نموذج جاليتيه...

6

الإيثيقا في ما رواء الميتافيزيقا. كان هلفتيوس يفكّر منذ مدّة في حوصلة عمله الفكريّ: تأملات، أفكار، محادثات، ملاحظات،

قراءات، مبادلات، مراسلات، تدوينات مختلفة. في مطلع أغسطس 1758، كان قد بلغ الثالثة والأربعين، ونشر عن الروح، بقطع الربع⁽¹²⁹⁾ في 643 صفحة عند دوران، صاحب مكتبة بنهج فوان بباريس. الكتاب، دون اسم مؤلف، حصل على موافقة الملك وامتيازه. والتوطئة كانت مستوحاة من لوكريسيوس.

في الصفحات الأولى، يعلن هلفتيوس عن مشروعه: تناول الأخلاق بوصفها «فيزياء تجريبية». هذا المشروع الفلسفي، دون أن يقال بشكل أزيد أو أفضل، يعارض المفترض المسيحي الذي يرى أن الأخلاق، ليست مسألة علم وملاحظة، وإنما مردّها إلى إنباء ربّانيّ ودينيّ. والخير والشر في نظر الكنيسة لا يُستنبطان من المبدأ الرياضي بل يفرضان نفسيهما كمسلّمتين كهنوتيّتين.

موضوع الكتاب؟ البحث عن الحقيقي والوصول إليه. ليس الاعتقاد به بعيون مغمضة لكون القسّ يعلمه، وإنما إثباته بصرامة ومنهجية انطلاقاً من ملاحظة الطبيعة وقوانينها. سيكون مع المنهج التجريبيّ، ولا ينتس مع التعامل مع الواقع رياضياً، وسينوزا مع إلغاء كلّ مثال متسام، ذلك هو مجمع الحكماء الذي يفتح الطريق.

ماذا نكتشف إذا تفحصنا الأمور بعناية؟ أنّ الحقيقيّ، منذ الأزل، يمتزج بالنافع. في الواقع، النافع يختلف: ليس هو نفسه بالنسبة إلى فرد هنا والآن، وبالنسبة إلى أمة في هذه الفترة أو تلك، وبالنسبة إلى فيلسوف حريص على الصالح العام في الدّنيا، أو بالنسبة إلى راهب

(129) In-quarto: ورقة مطبوعة تطوى إلى أربع ورقات وثمانى صفحات.

مهووس بخلاصه بعد موته. المفهوم يتحرّك، يتطوّر، حسب الظروف. الأخلاق قاعدةٌ لعبةٍ جدليّةٍ وديناميّةٍ، قابلةٌ للتغيّر على المدى. وهو ما يغيب التمسّكين المسيحيّين بأخلاق كونيّة لازمنيّة أزليّة. نسبيّة هلفتيوس التّاريخيّة تعارض بصرامة المثاليّة المضادّة للتّاريخ لدى أهل الكنيسة.

من دون الأنوار - الذين لم يلقّبوا بعد بالأنوار - قد تجد أمة ما نفسها، عاجلاً أم آجلاً، مسحوقة، فتتردّى بسرعة، دون أن تتفطّن، تحت نير الطّغيان. الإيثيقا هي إذن مسألة سياسة: المعرفة تزيد السّعادة الفرديّة، وتلك السّعادة تساهم في ازدهار البلاد، وفي صحّتها إذن، وبأسها، وقوّتها، وسمعتها، وبالتالي مكانتها في العالم. فالأخلاق والسياسة تمثّلان نفس الواقع.

إعلان الحرب يظهر منذ دياجّة الكتاب: هلفتيوس لا يسعى ضدّ الرّبّ، بل رغماً عنه، وبالأحرى من دونه، ليخلّص الأخلاق من المورالين⁽¹³⁰⁾ المسيحيّة. الإيثيقا كالفيزياء، وهذا ما يمكن بواسطته دفن الأخلاق المستندة إلى الميتافيزيقا أو علم اللاهوت نهائياً. عندئذ، يمكن التّفكير في الخير والشرّ كموضوعين أرضيّين، في منأى عن الاستيهامات الدّينيّة أو المعتقدات المتطرّبة.

7

تأليهة الملحد. لماذا نجعل من ذلك الكتاب رغم الرّب وليس ضدّه مصنّفاً مادّيّاً وملحدّاً؟ حسب أيّ مسارات غريبة يمكن أن نعدّ

(130) Morale: الأخلاق المسيحيّة بعبارة نيتشه.

ذلك الأثر غير ما هو في الواقع؟ فمن شدة الانعطافات يمكن أن نجانب خصوصيته. ملحد، قال اليسوعيون في حينه؛ ملحد، أكد الماركسيون في زمنهم؛ مادي، تجشأ بصوت جماعي الجنسيني⁽¹³¹⁾ والبابا كليمنت الثالث عشر، والملك، وأساتذة السوربون؛ مادي، يؤكد ألتوسير، التماسح الماركسي اللينيني لنهج أولم⁽¹³²⁾! والحال أن هلفتيوس ينكر الإلحاد بقدر ما ينكر المادية...

تبلورت سمعة هذا الكتاب، طيبة أم سيئة، تبلورت في المآخذ الأولى المؤسسة لميثولوجيا هلفتيوس: حسويته المعلنة أضرت بأفكار ديكرات الفطرية، والمثالية الفلسفية والروحانية الدينية التي تفترض رؤية كل الواقع في الرب، كما هي الحال عند مالبرانش مثلاً. تفسير العالم عن طريق العالم، دون اللجوء إلى المتخيلات الميتافيزيقية، ذلك إذن هو المنهج الذي يعتبر ملحدًا، والحال أن فكرًا يستغني عن الرب لا ينكر الرب: ما أبعد الحسوية عن الإلحاد، والأب كوندياك شاهد...

لقد صاغ هلفتيوس أعماله دون اهتمام بالرب، فهو يفكر ويتأمل دون أن يستعمله كسداة لدليل مترنح، لا يلجأ إلى ذلك السّمسم العملي كي يعطي وهم المعنى حين يغيب المعنى الحقيقي: فهل يكفي ذلك لنجعل منه ملحدًا؟ كلاً إذا اعتنينا بتذكير تعريفه مرة أخرى:

(131) Janséniste: من أتباع جنسينوس Jansénius (1585-1638) لاهوتي هولندي يؤمن بالقدرية والنعمة الإلهية.

(132) إشارة إلى النهج الذي تقع فيه دار المعلمين العليا حيث كان لويس ألتوسير يدرّس.

الملحد ينكر وجود الربّ.

كلّ فرد يقدّم تعريفاً هرطقياً للربّ، ويسمّيه بشكل يخالف ما ترضى به العادات الدنيّة للحظة والمكان، يوصف منذ قرون بالملحد. ولكن العبارة في هذه الحالة تستعمل للاستهانة والإدانة والشتم، لا لوسم فكر بكيفيّة ملائمة. لا يمكن أن نتبنّى حكم الكنيسة الكاثوليكيّة إذا فكر الفيلسوف تفكيراً آخر – أي العكس...

ذلك أنّ هلفتيوس لا ينكر الربّ أبداً، ولا في أيّ مكان. بل إنّه يتحدث عنه، ويحيل إليه، ويسمّيه ويحدّده، سواء في عن الروح، الكتاب المجهول الهويّة للتذكير، أم في عن الإنسان، الكتاب الذي ألفه بنيّة نشره بعد وفاته. فهل نستطيع الكتابة بأكثر حرّيّة إذا لم يكن في بالنا الحقيقة الوحيدة، دون اعتبار لما يشوّش الحقيقيّ – السّمة، المال، الثّروات، التّشريفات؟

لو كان هلفتيوس محلداً، فما ظننا بدفاعه عن النّصرانيّة كـ «دين مقدّس» إذا تخلّصت من المعتقدات الباطلة، والتّعصّب، وسيطرة إكليروس مهيمن، واختلاسات البابا، وفرمانات الكنيسة الكاثوليكيّة، وإمبراطوريّتها الاقتصاديّة، ومسؤوليّتها في بؤس المملكة، وتواطئها مع السّلطة الدنيويّة؟ وليؤكّد طبيعة تلك «الدّيانة المقدّسة»، يمتدح الفضائل الإنجيليّة: السّلام، اللّطف، التّسامح، فعل الخير، الصّدقة، التّرفع، الحِلْم. كان يستحضر يسوع والأنجيل ضدّ البابا والكنيسة. فهل هذا موقف ملحد؟

لنقرأ كتاب عن الإنسان: كيف نفهم عبارات مثل «الكائن

الأسمى» (14.1 و 19.4) و«الخالد» (مرّتان في 15.1) أو «المشرّع السماوي» (8.2) وكلّها صيغ حاضرة في كتاب أُعِدّ كي يحمل كلام هلفتيوس إلى ما وراء القبر، في الحرّية التي يسمح بها العدم الذي نوجد فيه؟ إنّ هلفتيوس يؤمن بالرّبّ، شاء سدنة الديانة الكاثوليكيّة أم أبوا. بلين، لا محالة، دون اندفاع فولتير أو نُذر روسو طبعًا، ولكنه تأليهٍ مثلها. كحال الجميع تقريبًا في تلك الفترة. الملحدون صراحة - مثل ميليه ودولباك - أقلّيّة، وطلائعيّون...

في نفس الكتاب، يقدّم هلفتيوس تعريفًا للرّبّ: «السّبب الذي لا يزال مجهولًا للنّظام والحركة» (2.2). في إشارة (في موضع هامشيّ من الكتاب، ولكنّ الهوامش غالبًا ما تمثّل المركز)، يذهب حتّى إلى القول من هو الملحد ومن هو الذي ليس كذلك، ويؤكد بشكل مفارق ألاّ أحد يمكن أن يكون كذلك لأنّ الجميع يقرّون بوجود «قوّة في الطّبيعة» (هامش 28 من القسم II)، الاسم الآخر للرّبّ. ملحد، غير ملحد؟ خصومة كلمات، يختم الفيلسوف.

صحيح أنّ ثمة درجات في التّأليهيّة: بين موقف هلفتيوس الذي يعتبر أنّ الرّبّ يسمّى ما لا يزال يتعذّر على العقل، ولكن ليس لأمد طويل، وبين فولتير المدافع عن ربّ مثير (إذن فهو ألوهيّ وليس تأليهيًا...) أو روسو في هذيانه مع الكاهن السّافوائي، فالفارق واضح... غير أنّ هلفتيوس يربط في هذا الجانب من الفلسفة...

8

اللاغنوصيّة المادّيّة. هلفتيوس مادّيّ، أسطورة أخرى. كما هو

الشأن مع الإلحاد، يحتاج هذا الفيلسوف من الكلمات: يفكر مثل اسماني⁽¹³³⁾. لا مكان لأفكار عامة، وأشكال مفهومة على الطريقة الأفلاطونية. إذن، لا وجود للمادة، إذ كيف ستكون في غياب خصائص تحددها؟ لا شيء سوى فكرة زائدة، وتخيل ميتافيزيقي إضافي.

المادّي يحدّد نوعاً ورعاً للمادة، وهلفتيوس يكره الورعين... في كتاب عن الروح، يعلّق حكمه على مسألة لامادية الروح: في الوضع الحالي للأشياء، لا يمكن أن نستنتج أي شيء. كلّ شيء قيل عن هذه الموضوع، وحتى المسيحيون أمثال ترتليانوس وأمبرواز وهيلير وجوستين وأوريجين يدافعون عن مادية الروح قبل أن تختار الكنيسة لاماديتها. وبما أنّ كلّ برهان مستحيل، فالخير في المرور إلى شيء آخر، وترك المسألة معلقة... في كتاب عن الإنسان (2.2)، لن يكون هلفتيوس نفس التردد: الروح تصبح داخلنا بوضوح «ملكة الإحساس». انتهت الحيرة.

الكلمات تشكّل مشكلة، وكلّ ذلك ليس سوى مسألة مفردات. في الميتافيزيقا والأخلاق، غالباً ما نتكلّم دون أن نقول شيئاً، لأننا لا نعرف عمّ نتكلّم. كذلك الشأن بالنسبة إلى مفاهيم المادة والفضاء والسرمد. لوضع حدّ لذلك الجدل الخاطي، يؤكّد هلفتيوس: المادة هي «تشكيلة خصائص مشتركة لكلّ الأجسام» (1.4). البحوث العديدة في هذا الموضوع، تلك التي تستحضر الامتداد والصلابة

(133) Nominaliste: من أتباع الاسمانيّة nominalisme وهو مذهب فلسفي يقول بأنّ المفاهيم المجردة ليس لها وجود حقيقي، وما هي إلا مجرد أسماء.

والمساكة والقوّة والجاذبيّة والجسد المنظّم، إلخ، تفضي كلّها إلى «أخطاء بارعة إن قليلاً أو كثيراً». بذلك يجعل المثاليّين والمادّيّين متعادلين.

لاغنوصيّة هلفتيوس في مسألة المادّة تُشَفِّعُ بفكرة بسيطة: ينبغي النّظر والملاحظة والتّجريب واستخلاص النتائج. في غياب يقين ناجم عن تجارب منهجيّة وعلميّة، فالأمانة تقتضي تعليق الحكم لتجنّب الهذر الميتافيزيقيّ. وهلفتيوس يرفض الميتافيزيقا في الأشكال التي ستكون أشكال الفلسفة الوضعيّة إبّان القرن الموالي: ما لا نستطيع التّحدّث عنه بشكل صائب، ولا نستطيع إثباته بشكل ملموس، يجب السّكوت عنه...

9

مشروع معجم فلسفيّ. كانت المرحلة مرحلة جمع معارف متنوّعة ومنتشرة وممتدّة. نعرف عمل الموسوعة الجبّار. أمّا هلفتيوس فكان يتوق إلى معجم للغة الفلسفيّة، يفيد في تجنّب عمليّات قطع الشّعرة على أربعة التي لا تنتهي، وهي التي تخصّص فيها الفلاسفة والميتافيزيقيّون وعلماء اللاهوت - وجعلوا أنفسهم مثار السّخرية لدى الجمهور العريض.

وكان هلفتيوس يندّد بعبادات الفلاسفة الشّفويّة المستهجنة. إفراط في عدم الدّقة، والتّبجّح والتّعاضم، وقلة في النّجاعة. استحضر مشروع لايبنتس واستشهد به، وتمنّى «إيجاد لغة فلسفيّة» (1. 4) انطلاقاً من تعاريف دقيقة لكلّ كلمة، على الأقلّ حتّى يكون كلّ

واحد خلال النقاش واثقاً من أنه يقول الشيء نفسه عند استعمال مصطلح.

تلك الفكرة المطروحة في عن الروح موجودة في عن الإنسان: الكفّ عن الخصومات الباطلة، التوقّف عن الأحاديث الأحاديّة التي غالباً ما تُلخّص تبادل الآراء المزعوم، ذلك هدف معجم كهذا. وهو عمل سوف يحذف السكولائيّين، الذين سرعان ما صاروا سحرة دون نفوذ؛ ويقطع العشب تحت أقدام الميتافيزيقيّين، باعة الأوهام، الرّاكبين قريباً ملائنة بالريّح؛ ويبدّد الظلام الغامض الذي لا يزال يحيط الأخلاق والسياسة بهالة.

إذا تمّت ترجمة ذلك المعجم الفلسفيّ إلى كلّ اللّغات، بمعونة مواهب الأُمَّة كلّها، فسوف يسمح ببيّنات حقيقة في الأخلاق والسياسة والميتافيزيقا، وسوف يكون لها عندئذ نفس الصّرامة والصّواب والشرعيّة التي تحظى بها نتيجة ناجمة عن برهان هندسيّ. إذا تمّ إنجاز ذلك العمل، فسوف تزول الخصومات الكلاميّة. حول «ملحد» أو «مادّي» أو «موسوعيّ» على سبيل المثال... عن هذا المصطلح كتب هلفتيوس: «هذه الكلمة شتيمة مزعومة، يستعملها الحمقى لثلب كلّ شخص أذكى منهم»...

10

قضية كتاب «عن الروح». في الأثناء، كان كتاب عن الروح يثير الجدل... بالرّغم من كون هلفتيوس ليس ملحدًا ولا مادّيًا ولا موسوعيًا، فإنّه يُغضب خلقًا غير قليل... لنذكر بأنّ الإعلان الملكيّ

عام 1757 يقضي بإعدام الكتاب والناشرين الذين يروجون كتابات تُعادي الدين. لم تكن إدانته للنصرانية راديكالية، فالتعصب والمعتقدات الباطلة والاستبداد هي التي تظهر في الخطّ الأوّل من قائمة الّد أعدائه. لا يهمّ إن عدّوا كتابه كافرًا، ملحدًا، مادّيًا، مخالفًا للأخلاق الحميدة، قد يكون سببًا في تقويض البنيان الأخلاقيّ.

رشفة أولى: مجلس الملك حذف الكتاب بعد نشره بأسبوعين. الأب بليس، اليسوعيّ الذي يتلقّى نفقة من هلفتيوس، ويدّعي أنّه صديقه، تدخل لوليّ نعمته كي يتراجع، فقبل سعيه بالرفض؛ ألحّ على السيّد هلفتيوس، فرفضت طلبه بصرامة، وأكّدت أنّها سترافق زوجها مع أطفالها إلى المنفى إن اقتضى الأمر. فمضى يمكر بقرب أمّ هلفتيوس حتّى أضناها فتوسّلت إلى ابنها بالعمل بنصيحة اليسوعيّ؛ الذي لم يكن يسوعيًّا لوجه الرّبّ وحده، إذ أخبر هلفتيوس بما يهدّد الرّقيب تيرسيه الذي ارتكب خطأ تمرير الكتاب، حين منحه موافقته وامتياز الملك. في النّهاية، رضخ هلفتيوس وأمضى أوّل تراجع، فأكد وفاءه لمذاهب وأخلاق الدّيانة الكاثوليكيّة. حلقة مُدلة...

رشفة ثانية: الصّحافة المسيحيّة. هاجمه اليسوعيّون في مقالة للأب بيرتييه بجريدتهم جورنال دو تريفو، وكذلك في عدّة خطب ألقيت في باريس وفي القصر، ونحن نعلم مهارة الرّعاع اليسوعيّين في تدبير المكائد والدّسائس لدى الكبار والعظماء. ولم يتخلّف الجنسيّون عن الرّكب في صحيفتهم أخبار كنسيّة، فقد أكد المحرّر أنّ عنوان الكتاب

كان ينبغي أن يكون عن المادّة المختلفة العضويّة، أو عن اللّحم، وعن اللّحم الأكثر تلوّثًا وقذارة - ليبين بذلك طبيعة وساوسهم ومدى العصاب المسيحيّ!

رشفة ثالثة: الكنيسة الكاثوليكيّة، البابويّة الرومانيّة. فقد هاجم رئيس الأساقفة في باريس الكتاب، وتحدّث عن «نتانة الفلسفة الزائفة». محكمة التفتيش الرومانيّة تدين وتحظر. البابا كليمنت الثالث عشر منع امتلاك الكتاب ونسخته وإعادة طبعه ونشره وتوزيعه. وأصدر أمرًا بتسليم النسخ المتوفّرة إلى محقّقي محكمة التفتيش لإتلافها.

رشفة رابعة: الهجائيّات والنّقد اللاذع. وكما هو الشّأن مع النّجاح، والتفاف المناهضين أو المشّهرين حول كتاب، هاجم عدد كبير من الكتبة المغمورين أو المعروفين الكتاب (ومنهم من استحسّنه كي يستفيد بنفحة حرّية...). أما المناهضون للفلاسفة - مثل بومون، وشوميكس، ولولارج دو لينياك، والأب غوشا، والأب هاير وآخرين - فقد وجدوا فيها فرصة للتّنفيس عمّا في صدورهم. لا نكاد نعدّ صدور جُريبات ونصوص قصيرة، ومقالات لمجهولين مغمورين يأملون في نصيب قليل من الحضور الإعلاميّ للظّاهرة.

رشفة خامسة: الملكة. تلقّى هلفتيوس أمرًا بالتّخلّي عن وظيفته كمدير خدم عاديّ لدى الملكة.

رشفة سادسة: السّوربون، التي لم تتخلّف قطّ عن الخساسة، سارت في خطى البرلمان الذي نطق هو أيضًا باللّعنة. في النّهاية، وفي

أواخر فبراير 1759، مَزَقَ الجَلَادُ الكتابَ في السَّاحةِ العامَّةِ ثمَّ أحرَقه.

ولعلَّ الأدهى في زمرة الخساسة: ردُّ فعل الفلاسفة الآخرين. فولتير وجد الكتاب رديئًا وهو لم يقرأه، وأضاف أن مؤلِّفه «مضى بالفلسفة شوطًا مفرطًا»! وروسو قال إنَّه خطير. ديدرو سكت... وأمَّا دالمبير فقال عنه أكبر قدر من الإساءة. كذلك غريم، الذي قدَّر أن الكتاب ليس جميلًا. واضطرَّ هلفتيوس إلى تحرير ثلاث رسائلٍ عُذولٍ عن فحوى كتابه فيها مذلَّةٌ ما بعدها مذلَّةٌ. في النِّهاية، عاب عليه الفلاسفة رضوخه والظُّهور بمظهر جبان يترد على الحزب الفلسفيّ، وقد شوَّهت القضية سمعته! تأثَّر هلفتيوس تأثُّرًا أليمًا بذلك السَّيل من الحقد والإهانات لن يتعافى منه أبدًا. واسودَّت السَّنوات العشر المتبقِّية من عمره بفعل ذلك.

في تلك الأثناء، كانت الطُّبعات تتوالى بشكل جنونيّ. وبلغ الكتاب عشرين طبعة في عامه الأوَّل. كما حقَّقت التَّرجمتان الإنجليزيَّة والألمانيَّة نجاحًا باهرًا. وقد قرأ إيمانويل كانط عن الرُّوح في ترجمته الألمانيَّة، وبوسعنا أن نعتقد أن نقد العقل العمليّ وفي الأقلِّ ميثافيزيقا الأخلاق يقترحان بعد بضع سنوات بالضبط نقيض الفلسفة النِّفعيَّة والمتعيَّة لدى الفيلسوف الفرنسيّ. وما زال هلفتيوس حتَّى يومنا هذا يعمل عمل ترياق قاسح ضدَّ كانط...

11

الأعوام العشرة الأخيرة. سافر هلفتيوس إلى إنجلترا أوَّلًا، وكانت

تعتبر نموذجًا: فقد أوجدت حريّات دستوريّة، وصحافة حرّة، والنّاس فيها يمارسون النقاش الدّينيّ بشكل علنيّ، وقوّة التّجارة والصّناعة تعوّض قوّة السّلطة السّياسيّة، والأحزاب المنظّمة تتنافس باستقلاليّة في السّباق نحو السّلطة، وقد أحبّها فولتير ومونتسكيو، وفرنسيس بيكون وجون لوك من أبنائها، وكذلك توماس هوبز وإسحاق نيوتن. فكيف لا يتطهّر هناك من الشّتائم الفرنسيّة والويلات التي عاشها بعد قضيّة الكتاب المتهمّ؟

ثمّ سافر إلى بروسيا ثانيًا، لدى الشّهير فريدريك الثّاني، الملك الفيلسوف، وجامع القمم الفلسفيّة في بلاطه. في بوتسدام، دعا وليّ نعمة لا ميتري سابقًا هلفتيوس وزوجته إلى قصره، ولكنّ الفيلسوف رفض، فكلّفه الملك بمهمّة دبلوماسيّة لدى الدّوق دو شوازول، لأنّ العاهل البروسيّ يوّد تقريب بلاطه من بلاط فرساي. ولا ندري درجة ضلوع الفيلسوف في تلك المهمّة.

في الأثناء، كان هلفتيوس يسجّل ملاحظات، ويقرأ ويفكّر. قد نستصغر الألم الذي ولدته قضيّة عن الرّوح ولا سيّما تبعاتها، لأنّ هلفتيوس لم يكشف عن خفايا مشاعره، ولم يشتك، بل ظلّ متحفّظًا نسبيًا وفضّل السّكوت عن الموضوع، ولكنّه تألم ألمًا كبيرًا. فهل نضع بالتّوازي عنف ردود الأفعال - الكنيسة، الصّحافة، العُصبة الفلسفيّة، السّلطة السّياسيّة - وحال الكآبة الواضحة التي صار عليها؟

يُنسب موته في العادة إلى «صعود نقطة»⁽¹³⁴⁾. فما المقصود بذلك؟
 أوّلاً، أن بوله كان مخلوطاً بالدم، وقد تكون تلك علامة على
 الإسراف في الشرب. ثانياً، أن تلك الإصابة المؤلمة تسبب الخناق،
 والرمد والمغص في المعدة أو الأمعاء والتقيؤ وميل إلى
 الغشيان والعطب الدماغيّ والنزف الفجائي واختلاجات
 وإحساس بالاختناق، واضطراب في القلب واليوريميا⁽¹³⁵⁾ -
 ولعلّ سبب موته الحقيقيّ: نوبة يوريميّة.

من 1759 إلى 1769، انهمك هلفتيوس في تأليف كتاب لما بعد
 وفاته: **عن الإنسان**. وقد صدر بعد وفاته بستين، أي عام 1773.
 ولا مجال هذه المرّة للتحفظ كما هو الشأن في **عن الروح**، والتعمية
 والمواربة والتّحليل أحياناً، واللّجوء إلى احتياطات خطائيّة في
 الاستهلال، والإعلان بأنّ هذا القول أو ذاك إن خدش أحداً فهو
 عن غير قصد: ذلك أن طبع كتاب بعد الوفاة يضمن حرّيّة مطلقة.
 عندما يؤكّد ألا شيء يوجد بعد الممات، فهو لا يخشى أحداً، ولا سيّما
 الرّقباء والقضاة وعلماء اللاهوت وسائر أدوات السّلبية.

كان هلفتيوس يعاني عند الكتابة والتّأليف. وكتابه الضّخم الثّاني
 بدا أنّه تكثيف لكتابه الأوّل. ليس من جهة التّكرار، بل من جهة
 التّدقيق والتّوسّع والمواجهة الصّريحة للأعداء المعتادين: الكنيسة
 ورجال الدّين والبابا والجنسينيّين واليسوعيّين والفلاسفة

(134) يقصد به تَبَوُّلُ الدَّم Uricémie، وهو مرض يتميّز بتراكم الحمض البوليّ في
 الدّم.

(135) Urémie: نسقم الدّم بالبوّلة.

السَّكُولائيين والمتزمتين والرَّقابة والقساوسة وعلماء اللاهوت والطَّغاة والرَّهبانة... كان يعرف أنَّ جسده، حين يقرأ النَّاس كتابه، سيكون في قبر - وبما أنَّه يعلم أنَّه حرٌّ، فقد تمتَّع بتلك الحرِّيَّة. العبارات التَّمهيدية لكتاب عن الإنسان تظهر أنَّه مجروح. وبين هذا الكتاب والكتاب الأوَّل، نلاحظ نقصًا في الطَّرافة والتَّحذلق والمُلح، وزيادة طفيفة في الغضب، فقد استبدل النُّضال الجادَّ بالبساطة. قدَّم هلفتيوس رأيه في القرن: فرط ديماغوجيَّة، رغبة في حيازة الإعجاب، غياب الميل إلى الحقيقة، عودة قويَّة للتزمت والتَّعصُّب والشَّعوذة والانحطاط - وإن لم يستعمل العبارة، فإنَّه أعلن أنَّ فرنسا ماضية إلى الهلاك، بسبب حكومة مؤذية، وعرض تشخيصه: لقد دخلنا عهدًا من الاستبداد.

يشكو المصنَّف الضَّخم ذو الـ 976 صفحة من تركيب مهزوز بل من غياب التَّركيب... نتخيَّل أنَّه مكتوب عمدًا على عجل، فهو نوع من يوميات فلسفيَّة حبرها حكيم مكتئب، محوَّك، مليء بالنَّدوب، مشتوم بوفرة، مرهق. نلاحظ ثرثرة، وتكرارًا، والحكايات الصَّغرى تحتلَّ مكانًا كبيرًا، أمَّا الفكرة التي تستحقُّ توسُّعًا، فهو يكتفي بذكرها، ببساطة وإيجاز دون دليل أو برهان. كأنَّ هلفتيوس يتكلَّم وحده، في كواليس صالونه، فنسمع صوتًا حزينًا لرجل مجروح.

في 26 ديسمبر، توفيَّ هلفتيوس في فندقه الخاصَّ بنهج سانت آن، قرب أصدقاء، من بينهم دولباك. خلال بعض الوقت الذي كان فيه

صاحياً، رفض الأسرار الأخيرة⁽¹³⁶⁾ وحضور كاهن. في تلك اللحظات الأخيرة، حرص على العودة إلى رسائل عدوله العلني التي أخذت منه عنوة، وندم عليها، وأكد مواقفه، وتمسك بأفكاره. أي أن مظاهر الاضطهاد والإذلال حتى النهاية خلال صدور عن الروح ظلت تعذبه. وبالرغم من ذلك فإن قبرة موجود في كنيسة سان روك. لقد رحل في السابعة والخمسين من عمره، أي السن المثلث لاستهلال عمل فلسفي جليل.

12

مفكر نفعي. إن لم يكن هلفتيوس ينحصر في الكليشيه المعتاد للمادّي الملحد، فما قولنا في فلسفته؟ هو تأليهي، لا غنوصي في المسألة المادّية، ولكنه يندرج على نحو أفضل في صفات جديدة أكثر ملاءمة يمكن الرجوع إليها في نصوصه: **حسوي** مثلاً، **تجريبي** أيضاً، **متعي** طبعاً، وأخيراً **نفعي**. تستحضر حسّوية هلفتيوس الأطروحات الكلاسيكية لجون لوك أو توماس هوبز في الموضوع. لم يكن هلفتيوس مثاليّاً ولا مادّيّاً، بل كان يعمل عمل عالم ينظر ويلاحظ ويجرب ثم يستخلص استنتاجات عمّا عاين. فلا حكم مسبقاً لديه ولا ميتافيزيقا، وإنما فيزياء أحاسيس ومشاعر وانفعالات وإدراكات وانطباعات. ليست منهجية سكولائية بل براغماتية تجريبية.

فهو يقول ويعيد: الحواس الخمس هي وحدها التي تقدّم معلومات مفيدة وضرورية للفهم، وإدراك حدث أو وضعيّة. فهي

(136) الدّعوات التي يتقرّب بها المشرف على الموت إلى الربّ.

جسد وملكات مرتبطة بالدماغ: الشَّم، الذَّوق، اللَّمس، الرَّؤية، السَّمع ولا شيء غير ذلك. نفهم أنَّ المتمسِّكين بالملكات المدركة بالعقل، والمدافعين عن اللامادِّية النشطة في المادَّة، يحوِّلون أثر الفيلسوف إلى مصنَّف لهوب ملحد ومادِّي. بيد أنَّ جون لوك، والأب كوندياك من بعده، يبيِّنان أنَّ حسَّويًّا يمكن أن يدافع عن هذا الموقف الفلسفي وهو يؤمن برَبِّ لامادِّي.

خلافًا للتقاليد الفلسفيَّة، يؤكِّد هلفتيوس أنَّ الحواسَّ لا تخذعنا! هذا الموقف ينحو عكس الإدانات المعتادة: أبراج نوتردام لدى مونتاني، العصا المكسورة لدى ديكارت، وصور أخرى لدى باسكال أو مالبرانش وكانوا كلَّهم يطنبون في استحضار تلك اللّازمة الفلسفيَّة المجترَّة من عهد أفلاطون: الحواسَّ تخذعنا، والرَّوح وحدها، لكونها جزءًا من النَّار الرِّبانيَّة فينا، هي التي تسمح لنا بمعرفة الحقيقة التي هي من نفس ماهيتها. قطعًا لا، يؤكِّد هلفتيوس: مادِّية الواقع تُدرك بفضل مادِّية جسدٍ يجرب العالم باستخدام حواسِّه.

والخطأ، إن وُجد، لا علاقة له بالحواسَّ، بل بالحكم. الأهواء تربكنا، والجهل يجعلنا على حافة الحقيقة، ولكن من السَّخف وغير المجدي أن ندين الأحاسيس. إن أخطأنا الاستنتاج فالذَّنب في سوء استخدام عقلنا الذي يتَّضح أنَّه أداة غير مناسبة لأنَّ التَّربية والتَّعليم لم يجعلاه حسن الأداء. أن تحسَّ هو أن تحكم، وأن تحكم هو أن تحسَّ. لم يتراجع هلفتيوس عن موقفه، بل راح يطرِّق تلك الفكرة في

مناسبات عديدة. لا توجد لدينا ملكة حكم تتميز عن ملكة الإحساس.

الفكرة موجودة عند لوك، الذي لا يقصّر هلفتيوس في مدحه: «لوك عبقرى»، كتب يقول في عن الروح. عندما يفكر في برنامج تربوي مثالي، يؤكد بشكل موجز ونهائي أنه يكفي أن ندرس فكر هذا الفيلسوف الذي يحدث ثورة في الفلسفة منذ أن ترجم ببيير كوست مقالة تخص الإدراك البشري إلى الفرنسية عام 1700، إذ إن استعمال نظريته التجريبية في نقد أفكار ديكارت الفطرية جزأ الميتافيزيقا الغربية إلى جزأين. وفي كامل أوروبا إبان القرن الثامن عشر، صار لوك، ذلك الذي أوقع مؤلف خطاب في المنهج، يهدي أو ينفر، يفتن أو يُشيطن، ذلك أنه ألغى المثالية، وقلل من قيمة الروحانية، وهو ما يشبه الأفلاطونية من قريب أو بعيد. وفي الوقت نفسه، فتح طريقاً ملكية للتقاليد المادية والمتعة والإلحادية والآلية والحسوية، وقد سار هلفتيوس على هذا الدرب مثل سمكة في الماء.

13

المؤسسة المتعة. انطلق هلفتيوس لاكتساب أخلاق بوسائل منهج تجريبي، فوجد فكرة قاعدية بنى عليها كل منظومته. تلك الفكرة البسيطة هي الوقوف على التفكير السليم، الذي أهمله الفلاسفة واحتفى به أبيقور، والذي يفترض أن البشر كلهم دون استثناء يسعون إلى المتعة ويتجنبون الكدر، يذهبون إلى الرضا ويهربون من الألم والعذاب. حقائق متواضعة لا محالة، واكتشافات بسيطة بطبيعة

الحال، ولكنها عائق هامّ أمام إمكانيّات فلسفيّة جديدة، فالمتعيّة تجد نفسها في قاعدة رؤية للعالم وتوفّر معمار عقل دنس.

كان هلفتيوس يحبّ أخلاقاً مبنية كعلم لا يُدخّص، قائمة على ما لا جدال فيه. فيمَ يشترك البشر كافة، تحت كلّ السّماوات، وفي كلّ العصور؟ في الإنسان العاقل الأوّل (هومو ساينس) وبعث الصّالونات الفلسفيّة في قرن الأنوار؟ في النّساء والأطفال، في السّود، في الأغنياء والفقراء، في النّاس الأصحّاء والمرضى؟ في ذلك الميل الطّبيعيّ: كلّ واحد يريد أن يتمتّع. وأوّل حقيقة تجريبيّة لهذا العلم الجديد هي الإيثيقا.

«تلك الرّغبة في المتعة» (عن الإنسان 1. 4) هي محرّك العالم. كلّ الحركات الفيزيائيّة والنفسانيّة والأخلاقيّة والسياسيّة والتّاريخيّة تخضع لذلك القانون البسيط والأوّل. ومعرفة تلك الحقيقة المؤسّسة تسمح في ما بعد بالإمساك، كما هو الشّأن في ردّ فعل متسلسل، بالكيفيّة التي تترابط بها مختلف ترتيبات الواقع. تكبر، طموح، فخر، أمجاد، جبن، شجاعة، إرادة، إلخ...

ينكر هلفتيوس كلّ طبيعوية بشريّة: الإنسان شمع بكر ينتظر ختمًا كي يحمل محتوى. ومن ثمّ، لا يمكن الحديث عن طبيعة بشريّة متعيّة، فما هي سوى محض مسألة كلمات، كما سيقول لاحقًا. وما يوجد في كلّ إنسان منذ بداية الأزمنة، وحتى نهاية العالم، أليس الثّابت الذي يحدّده مفهوم الطّبيعة البشريّة؟

سيكولوجية كلية⁽¹³⁷⁾. عيب على هلفتيوس انتحال أفكار غيره دون أن يكون له أفكار خاصة، لا سيما في مسألة نفسيته الصلّفة. فهو من ناحية يعرب عن تقديره للاروشفوكو، ومن ناحية أخرى يعرف البلاط جيّدًا ويلاحظ الناس، فكيف لا يتوصّل إذن إلى معارف ثابتة، قابلة للتثبت أو تمّ التثبت منها، عن الروح لدى البشر؟ نفس معارف المفكر الأخلاقيّ في القرن الأكبر لا محالة، ولكن كلّ ملاحظي الجنس البشريّ أيضًا، منذ إيزوبي أو تيوفرستوس⁽¹³⁸⁾.

تعجّ الأعمال الكاملة لهلفتيوس بالحكم والأقوال المأثورة التي تشكّل إذا ما أخرجت من سياقها مجموعة أفكار كلبية - بالمعنى الفلسفيّ القديم للكلمة. عن دوافع الجنس البشريّ والنّذالة والدّناءة والدّسائس والمكائد والتّحالف مع الشّيطان والنّوازع الخسيسة والخبث والدّور الكبير للحسد، عن الرّذيلة والفضيلة، وشتّى المواضيع الأخرى، كان هلفتيوس ينحت الألماس ويرصّع به جسد ورق مصنّفاته، على نحو لا نكاد نعثر عليه أحيانًا.

وبالمثال تتّضح الحال: «الحقد ينصبّ عمومًا على كلّ موهبة عظيمة»؛ أو: «من يستطيع تصنيف كتب جيّدة لا يتسلّى بنقد كتب الآخرين»؛ «العجز عن الأداء الجيّد يُنتج النّقد»؛ وإلّا: «لتجنّب

(137) Cynisme: مذهب فلسفيّ أسّسه أنتيستينيس، أحد أتباع سقراط، في القرن الرابع قبل الميلاد، وتتميّز برفض التّقاليد والسّعي إلى نمط حياة لامادّيّة.
(138) Théophraste (372 ق م - 288 ق م): فيلسوف إغريقيّ، تتلمذ على أرسطو وكان مدير أول مدرسة فلسفيّة في أثينا.

الإساءة إلى الناس، ينبغي ألا يكون لك سوى أفكار الجميع»؛ وحتى الحكمة الأخيرة، أو آخر حكمة: «لكي تحبّ البشر، ينبغي أن تنتظر منهم القليل». ذلك هو فنّ السّخرية الذي يرفع هلفتيوس إلى مصافّ شامفور وفوفنارغ وريفارول وجوبير، أولئك السّاخرين الكلبيين الذين يستكشفون قلب الإنسان - ذلك الفنّ الذي قال باسكال إنّه «أجوف ومليء بالقذارات». لا نستغرب حينئذ أن يحوز هلفتيوس إعجاب شخص يدعى فريدريخ نيتشه!

حيثما تلعب النّصرانيّة لعبة الرّوح الجميلة وتغلّف الأسباب الصّغيرة بمنطق كبير، وتحتفي بمتخيّلات محبّة القريب والكرم والإحسان والتّقاسم والشفقة وشتّى المشاعر النّبيلة، يهدّئ هلفتيوس اللّعب: لننظر إلى الواقع وجهًا لوجه، ولنكفّ عن التّعميم، والتّسّرّ والكذب على أنفسنا بخاصّة، فالإنسان يبدع في سوء النّيّة، وفي رغبته ألا يرى إلّا ما يناسبه، وفي الفنّ المنحرف، فنّ إعادة كتابة التّاريخ لصالحه وحده.

15

حتميّة الانتحاء الأنانيّ. بعد الدّرس الأوّل - الانتحاء المتعيّ بطبعه -، الدّرس الثّاني: الانتحاء الأنانيّ بطبعه. عيب على هلفتيوس قسوة تحاليله المشرطيّة: ولكنّ من يضع كلمات على السّلبية لا يخلقها، فتسمية الحماقة لا يجعلها تولّد. والقول إنّ الإنسان منكّب على ذاته بشكل مهووس لا يزيد عدد المغرورين. وكأنّنا نحمل الرّسول الخبر السيّئ الذي اكتفى بنقله.

النّظر من حولنا كافٍ لتأكيد هذه الحقيقة: كلّ فرد يضع نفسه في مركز العالم ويحيل كلّ شيء إلى ذاته. الفيلسوف يصف حقيقة، ويظهر حتميّة، لا يُسرّ بها ولا يلوم ولا يوبّخ أو يبارك. هو ينظر، يرى ويقول. ذلك كلّ خطئه. عندما يطارد عزّة النّفس، حبّ الذات، فهو يتصرّف بوصفه فيلسوفاً كليّياً - مثل ديوجينيس الذي كان يعرّي الأوهام.

كلّ فرد يفضّل نفسه على الآخرين، هذه حقيقة. ومعرفة ذلك يؤدّي إلى مزيد من وضوح الرّؤية. أن يعرف المرء من هو، وكيف تسير الأمور، وطبيعة الآليّات، كلّ ذلك يسمح بتصوّر الواقع في إهاب تراجميديّ لا يراه أسود أو ورديّاً بل كما هو. البشر ليسوا ملائكة، ولا بهائم، وإنّما ماكنات متبجّحة. إنّ علم السيّكولوجيا الكليّية، والأنثروبولوجيا الكليّية توفر موادّ لأجل بناء إيثيقي ثمّ سياسيّ.

القانون الأساس الثّالث: في صميم الآليّة الأنانيّة يوجد مبدأ بسيط: المصلحة تدفعنا باستمرار، في كلّ شيء ولأيّ غرض، في الأمور الجزئيّة أو العامّة، نحو حادث من حوادث المجتمع أو ملحمة وجوديّة كبرى. كلّ واحد يريد أولاً مصلحته؛ ومصلحته - راجع القانون الأوّل - ينحصر في شيء بسيط: أن يتمتّع و/ أو لا يتألّم. كلّ الأعمال التي توصف بالحسنة أو السيّئة توجد في ما وراء الخير والشرّ في سجلّ قوى ديناميّ: حركة نحو التّمتع، وأخرى للفرار من التألّم.

وهلفتيوس يتصرّف كأخلاقيّ، لا كواعظ. ولما كان كلّ واحد خاضعاً لذلك القانون البسيط والتّراجيديّ الذي يجعله يريد المتعة وتجنّب الكدر، فلنكفّ عن التّدمر ولنجعل من تلك الاكتشافات الكبرى ركائز تصرّف. تشريح سيكولوجيّة الكلبّيّ، وتقطيع الرّوح بالشّفرة الفلسفيّة يصلحان لهذا: بما أنّنا نعرف ما الإنسان، فماذا نفعل وكيف نتصرّف لبناء الابتهاج؟ الجواب: بترغيب البشر في أن يكونوا أفاضل.

16

تمارين تفكيكيّة. قبل المضيّ بعيداً، لنتمعّن في حالات «تفكيك» ملموسة تمت في عن الرّوح أو عن الإنسان. لنختر أكثرها دمويّة، تلك التي سبّبت له أكبر قدر من المثالب وسوء الفهم لأنّها لم تجامل ميثولوجيا الأخلاق المسيحيّة: الحبّ، الصّداقة، محبة الأطفال، الشّفقة. عندما نقل الفيلسوف نقده إلى تلك المجالات المعطّرة في العادة بهاء الورد، فإنّه أدّى بالفعل عملاً كلبياً حقيقياً. وليس مستغرباً أن اضطرّ إلى تحمّل جرائمه. مكتبة سرّ من قرأ

الحالة الأولى: الحبّ. نقاء؟ جمال مشاعر؟ مجانيّة؟ كرم؟ لنسقط تلك الأقنعة: خلف رجل يدّعي محبة خالصة، يختفي الأنانيّ الذي يهّمه أن تتمّ تلك الحكاية حسب رغبته وحدها. العشق؟ الشّغف؟ لقاء الرّجل بامرأة حياته، أو لقاء المرأة برجل حياتها؟ يجب هلفتيوس: دوافع اهتمام، وعود بالنّشوة، عزّة نفس محمودة، آمال في مكاسب رمزيّة أو مبتذلة بشكل ملموس...

الحالة الثانية: الصّداقة. ما حقيقتها؟ ليست قطعاً صيغة الروايات التي تجعل ذلك الشّعور تخييلياً وتغلّفه في أوضاع رومانية، وإنّما هي ترتيب مصالح متبادلة ومشتركة. الصّديق يخدمنا كما نخدمه. نحدّثه عن أنفسنا، نعرّف له، نتخلّص من مفازعنا وضيقنا ومخاوفنا، ونضع أنفسنا على الرّكح، لتتقمّص دور بطل أو إنسان متواضع، منتصرٍ أو ضحيّة، ولكن دوماً بغية الحصول على السّلوان والمحبة والإنصات والسّند. تجارة الصّداقة تفترض الأمل في مكسب ما. الحاجة هي الدّافع - وليست رفعة ونبيل شعور خالص.

فلماذا إذن ننتقد الشّخص الذي يذهب إلى امرأة أخرى لها اهتمام بهاله ويتحدّث رغم ذلك عن الصّداقة؟ الثّروة جزء من خصال الإنسان، في مستوى خصاله الأخرى: الجمال والشّباب والسّمعة والفضيلة، إلخ. قوّة الصّداقة تقاس دائماً بالمصلحة التي تجمع الصّديقين. وكلّما كانت الحاجة التي تفسّرها دنيئة، ازداد الأمل في متانة تلك الصّداقة.

إذا كان الصّديق «ذا قرابة من اختيارنا» (عن الرّوح 3. 14) فلنعرف ما هي الصّداقة: ليست حالة درس نظريّ عن رومانيّ فحل، أوديسة على طريقة مونتاني أو لا بويسي، ولا استحالة راديكاليّة، وإنّما ما تحدّده في ما وراء الخير والشرّ، في منطق خالص من الرّضا المأمول، والتّجارة المرغوب فيها من هذا الطّرف وذاك. يستخلص هلتبوس بحكمة: «يقول المرء لنفسه أصدقاءً كُثر ويعتقد أنّهم قلة»...

الحالة الثالثة: محبة الأطفال. هلفتيوس يتحدث عن تجربة. لنذكر أنه أنجب أربعة أطفال عاش منهم اثنان. ماذا يقول؟ على النقيض من الخطاب المسكن، يفكك الفيلسوف ذلك الشعور. ما الذي يحب من أطفاله؟ اسمه هو، وإمكانية ترك إرث مادي وإرث لقيبي – يطلق عليه النسب بعد المات⁽¹³⁹⁾، إمكانية أن يتحكم دون مخاطرة، ويكون مطاعاً يتمتع بمشهد سلطته؛ إمكانية أن يتسلّى بالمعنى الباسكالي، ويتجنب السأم؛ وأن تكون «اللعبة» طوع أمره باستمرار...

وإن ردّوا عليه بأنه يبكي موت طفليه؟ كنتيجة لملاحظة ذاتية (؟) أو مقترح مفهومي ناجم عن عواقب ضميرية لنظريته، يواصل هلفتيوس تفكيكه في هدوء وقسوة ووضوح رؤية: نشفق على مصيره، فالدموع لا تعبّر عن الأسف على رحيل الطفل بقدر ما تكشف عن حزن أفق الخواء والضجر الذي سيجد فيه الأب نفسه بعدئذ.

الحالة الرابعة وهي الأخيرة: الشفقة. محبة القريب لدى المسيحيين هي أولاً محبة المرء ذاته، ورغبته في بناء خلاصه، وما الآخر إلا تعلقة، سبب عرضي، وسيلة – وليس غاية. تخفيف الألم عن تعيس لا يخضع لأسباب أخلاق خالصة، بل لمصالح، هنا وهناك. أيها؟ الكف عن التأمّل لرؤية الآخر مهموماً؛ الانتشاء باستحقاق اعتراف الآخر بالجميل وتقبله؛ الابتهاج بقدرته على ممارسة سلطته؛ محبة النفس في

(139) Postéromanie: الحرص على نقل الاسم العائلي إلى الخلف.

دور من يفعل الخير الذي قيل لنا منذ نعومة أظفارنا إنه الفضيلة؛ تخفيف ذنوبه وطرده ألم الروح باستدعاء الندم؛ التحلي بمتعة نرجسية لظهوره في دور الفاضل البطولي؛ الابتهاج بالظهور في نظره ونظر جاره بمظهر الرجل الخير؛ وكلها أسباب دنسة يرفض المتزمتون الذين يرثى لحالهم رؤيتها، لكونهم مقتنعين بنبل دوافعهم ورفعة أرواحهم.

إن الأخلاق التجريبية تفترض إذن سيكولوجيا كلبية وقراءة العالم قراءة مثولية بشكل راديكالي. لا أفكار، ولا عالم آخر، ولا أدخنة أفلاطونية، أو مسوغات ميتافيزيقية أو قضايا ضميرية تيولوجية. هلفتيوس يتفلسف على نحو راديكالي، ينطلق من الواقع ويمكث فيه، ولا يقوم بانحرافات عبر الآليات الأونطولوجية للمثالية الأفلاطونية والمسيحية.

هو يريد لغة بسيطة واضحة، وبراهين قابلة للتثبت، وتأكيدات للحقائق. لا مجال لتعميمات فكرية وإنما ملاحظة متأنية للعالم، ثم استنتاجات نهائية. هو حسوي، تجريبي، متعي، نفعي، يتحرك على نحو براغماتي. واقتراحه الفلسفي مهّد لولادة لحظة أساسية في الفكر الغربي: فقد طرح بديلاً مضاداً للمثالية النموذج السائد. ضدّ مثالية أفلاطون والمسيحيين، سجّل حضوره وصار قبة سهام المثالية الألمانية، وفي مقدّماتها هجوم لا هوادة فيه من إيماويل كانط.

كونينسبرغ⁽¹⁴⁰⁾ ضدّ باريس. لقد قرأ كانط عن الرّوح في ترجمته الألمانية، ولم يحتفظ من ذلك الكتاب الموجود في مكتبته سوى بالطّرائف والملّح والحكايات الطّريفة. أمّا الفلسفة فلم يأخذها بعين الاعتبار، فمقدّمة نقد العقل العمليّ تمرّ بسرعة فائقة على التجريبيّة، بوصفها فكرة زائفة، لا يجدر حتّى بـ«صينيّ كونينسبرغ» (والعبارة لنيته) أن يخصّص وقتاً لإثبات زيفها!

وهو ما يعني أنّ أعمال كانط الكاملة، أي النقدية كلّها، هي التي تحاول إثبات علويّة العقل الخالص على كلّ مقارنة حسّويّة، وبالتالي جسدية، للواقع. تمّ دحض فكر هلفتيوس نقطة نقطة، ولو أنّ اسم الفيلسوف الفرنسيّ لا يظهر في الأعمال الكبرى، كالنقود الثلاثة على سبيل المثال، بل في هوامش كتب أقلّ قيمة - الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتيّة مثلاً، فقد ورد ثلاث مرّات، اثنتان منها لاستعادة طرائف تبين بغض كانط للمرأة...

يختلف الرّجلان في كلّ شيء على المستوى النظريّ: هلفتيوس يقترح سيكولوجيا كليّة، وأنثروبولوجيا تراجميّة، ويرى الإنسان كما هو، منجذباً إلى المتعة، مدفوعاً بالمصلحة وحدها، يقود عبر الانتحاء مكاسب محسوبة؛ أمّا كانط فيندرج في المنطق المسيحيّ لرجل دمغته الخطيئة الأصليّة - «الشّر الراديكاليّ» حسب كتاب الدين في حدود مجرّد العقل - ويرى فيه فلسفة تقترح خلاصاً عن

(140) Königsberg: الاسم القديم لعاصمة بروسيا الشّرقية، استولت عليها روسيا عقب الحرب العالميّة الثّانية وصارت تعرف بكالينغراد.

طريق الفضائل اليهودية المسيحية، المعلمة والمصوغة في اللهجة الفلسفية للمثالية الألمانية.

ينظر هلفتيوس إلى الإنسان في مثوليته الراديكالية، دون أن يزوده بلامادية تفيده في بسط الهيمنة الدنيوية والميتافيزيقية والأونطولوجية، فقد كان علمانياً، أما كانظ فكان مسيحياً. كتاب عن الروح يعلم أن لا وجود لأعمال ليس وراءها مصلحة أخلاقياً، أما ميتافيزيقا الأخلاق فيعرّف الأخلاق بكونها الفعل المنجز دون أن تمازج ذلك ذرة من المصلحة.

هلفتيوس، بوصفه تأليهياً، يطلق على الربّ ما لا يزال يصمد أمام العقل التفكيكي، وهو موقف يجعل من الممكن على المدى البعيد أن يكون وراءه ذات يوم خيار إلحادي حقيقي. الكائن الأسمى موجود لعدم توافر الأفضل. أما كانظ فهو يشغل مذهبه النقدي، ويجد نفسه على شفاهاوية ميتافيزيقية، وكان يمكن أن يفجر الميتافيزيقا الغربية، إذ فعل كلّ شيء لأجل ذلك، غير أنّه تراجع واكتفى باعتبار وجود الربّ مسلّمة - إلى جانب خلود الروح ووجود الحرية. من جهته، يؤكّد هلفتيوس في كتابه عن الروح هيمنة الضرورة ومادية الروح.

النفع يقود العالم، والخير والشر لا وجود لهما في حدّ ذاتيهما، لا يوجد سوى «حسن» و«سيئ» حسب القرار الارتجالي للسلطة الدنيوية لعصر أو مرحلة ما، في علاقة بالأرباح المكتسبة اجتماعياً؛ وبوصفه أفلاطون قرن الأنوار، يتمسك الفيلسوف الألماني بـ«خير» مطلق مثالي أزلي لازمني لاتاريخي صالح كونياً وإلى الأبد. أحدهما

يُدمج التاريخ في فكره، والثاني يتأمل وهو جالس على سحب سماء لا تُدرَك بالحواس.

عن الروح يريد أن ينظر إلى الأخلاق كفيزياء تجريبية، ويلغي كل إمكانية ميتافيزيقا - اشتقاقياً: كل إمكانية فكر بعد الفيزياء. كتب كانط مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تطرح نفسها كعلم لينقذ الميتافيزيقا من هجوم غلاة الأنوار؛ سوف يجعل هلفتيوس الفلسفة الوضعية ممكنة في القرن الموالي؛ أما كانط فسوف يمسك بجوهر ميتافيزيقا أفلاطون المثالية وينقذ بذلك الجذور السحرية للنصرانية. الأكبر سنّاً - فكانط يصغره بتسع سنوات... - يحتفي بالحواس، وبالأهواء وهو الأدهى لدى الزمرة المتفلسفة. بجرأة، جعل عنوان أحد فصول عن الروح (3. 8): «يصبح المرء غيباً فور توقّفه عن الهوى»... فيما الأهواء لدى الأصغر، كما هي عند أفلاطون، تعرقل العقل وتمنع التفكير وتُربك الحكم، فهي أثر الخطيئة في الجسد. في الأنثروبولوجيا، كتب كانط: «الأهواء غنغرينة للعقل الخالص العملي»...

كان هلفتيوس يدافع عن الجسد في شتى أشكاله: الحواس إذن، ناقل لا غنى عنه للمعرفة التجريبية، والمشاعر، والحماس؛ ويسخط على الحذر، ويبين أنّ غياب الأهواء يولّد فينا التبلّد التام، ويدعو إلى استخدام المرء جسده بحرية - ترتيبات حسية ومتعة باحتشام... - ، ويسخر من الزواج - «لوحة منكودَي حظّ التقيا معاً كي يخلقا تعاستهما بشكل متبادل» - ، ودعا إلى عقود متعة تقوم على المصلحة

المتبادلة، هنا وهناك...

في الأثناء، كان كانط يعظّم «الخمول الأخلاقيّ»، وهي حالة كان مجّدها في نظريّة الفضيّلة، إذ يفترض الاستقلال المطلق للعقل العاقل والمعقول عن كلّ تشويش وكلّ لوثّة انفعاليّة، أي جسديّة؛ ويستهل لأجل حلول المتسامي المحض - لا نعلم عن هذا الشّيء في حدّ ذاته سوى أنّه «يوحد المختلف في الحدس المحسوس»! ويتولّى في نظريّة القانون الدّفاع دفاعاً لا مثيل له عن الزّواج - «علاقة شخصين من جنس مختلف يريدان لحياتهما كلّها الامتلاك المتبادل للمكاتهما الجنسيّة»، مبهج! هنا وهناك، مرّة أخرى...

وهلفتيوس، بوصفه أليفاً للعجوز فونتينيل (وكان هذا الخليع النورمانديّ يتردّد على صالون نينون لائلكو، ويخالط سان إفرمون، وما زال يخطر في عهد لويس السّادس عشر، وفي سنّ السّابعة والسّبعين افتتح مرّة أخرى حفل الكرنفال في بيت آل هلفتيوس وجنفييف أديلاييد، ابنته ذات الأربع سنوات...)، أخذ عنه نظريّته في الكذب: نحن لا نكذب حين نخفي حقيقة، بل حين نخفيها عمّن ندين بها له. ولم يجد بنجامان كونستان⁽¹⁴¹⁾ ولا ألان⁽¹⁴²⁾ حرجاً في نسب هذه الأطروحة إلى حسابها دون ذكر المصدر.

نعرف نصّ كانط الشّهير عن الحقّ المزعوم في الكذب بدافع إنسانيّ، الذي يدحض أطروحة فونتينيل من خلال بنجامان

(141) Benjamin Constant (1767-1830): روائي ومفكّر ورجل سياسيّ فرنسيّ.

(142) Émile-Auguste Chartier الشّهير بـ Alain (1868-1951): فيلسوف فرنسيّ.

كونستان الذي استولى عليها في ردود أفعال سياسية. فكانط يرفض كل تبرير للكذب، أيًا ما تكن الأسباب: ينبغي أن نقول الحق دائمًا، دون اعتبار المخاطب، إذ ينبغي أن نفعل الخير لذاته، ونقول الحق لأن قول الحق واجب مطلق. لا تهمّ العواقب (حتى وإن كانت مأساوية: أن نقول إنَّ يهوديًا يختفي في أحد الأقبية للنَّازي الذي يسألنا عنه...): لأنَّ الكذب يجرّد مصدر القانون. بمعنى آخر، إذا كذبنا مرّة، فلن يصدّقنا بعدئذ أحد...

18

جينالوجيا الاستبائية. هلفتيوس وكانط، كما نرى، هما الماء والنّار. بصرف النّظر عن المشاكل الشخصيّة، ثمة تصوّران للعالم، وبالتالي للمستقبل والفلسفة، متعارضان: أحدهما مثاليّ، روحانيّ، فكريّ، يظلّ خاضعًا بوداعة للميتافيزيقا والتّيولوجيا، أي خاضعًا في النّهاية لروح الدّيانة المسيحيّة؛ والثّاني براغماتيّ، نفعيّ، ملموس يحرص على الدّمامة: تصوّر يتعلّق بالتّفكير لأجل الحياة، الحياة على نحو أفضل، الحياة بشكل مختلف، وليس التّفكير في تمرين أسلوبيّ، كالّداعي إلى الفنّ للفنّ. لم يكن هلفتيوس يمارس الفلسفة لأجل جمال الحركة، وإنّما بغية إنتاج آثار في الواقع.

يقوم فكره على ما نسميه بلغتنا الحديثة استبائية. يعني؟ تتساءل النّظرية الاستبائية - هلفتيوس والنّفعيّون - عمّا يحدث إن اخترنا هذا بدل ذاك. الخير يوجد نسبيًا حسب تبعات خيار أو فعل. مثلاً: الكذب ليس خيرًا ولا شرًّا في حدّ ذاته، وإنّما حسب ما ينجّر عنه: إن

كذبت لتجنب شاب الموت، فالكذب إذن خير وحسن؛ وإن قلت الحقيقة وتسببت بذلك في موت إنسان، فالحقيقة إذن سيئة، وقولها شرّ. تعتقد نظرية الأدبيات المهينة - كانط والمثاليون - أن الحقيقة حسنة دائماً، والكذب سيئ دائماً، بغض النظر عن العواقب.

لا يقبل الأمر المطلق الكانطيّ أيّ استثناء؛ أمّا الأمر المطلق النّفعيّ، الافتراضيّ، فيحتمل تصوّر الفرضيّة أوّلاً. كلّ أخلاق لا تندرج في مسار مفهوميّ يمكن إدراكه، بل في منطق اسميّ ملموس، مثليّ وبراعماتيّ. في عن الإنسان، يصوغ هلفتيوس الأمر المطلق. ما هو؟ وإلام ينبغي أن يهدف؟ «أكبر فائدة عامّة، أي أكبر متعة وأكبر سعادة لأكثر عدد ممكن من المواطنين». الحقيقة؟ المنفعة العامّة التي ينبغي أن نضحيّ لأجلها بكلّ شيء، بما في ذلك، وهذه جزئيّة هامّة، «إحساس الإنسانيّة» الضروريّ جدّاً... حيث نكتشف أن الإيثيقا والسياسة لا تنفصلان، بل تشكّلان نمطين لهما نفس الكيفيّة التي بها نكون ونفعل.

19

ديانة كافر. مجمل قولنا: ربّ هلفتيوس يوافق الكائن الأسمى الذائع الصّيت خلال القرن الثامن عشر، تلك القوّة غير المعروفة التي تنظّم العالم - المشرّع السّماويّ - لا تكتسي طبعاً أيّ شكل أو تُظهر أيّ شعور بشريّ؛ الدّيانة المسيحيّة وخدمها - البابا والقساوسة والكهنة واللاهوتيّون والسّكولائيّون واليسوعيّون والجنسينيّون، إلخ. - يحوزون أهمّ نقود الفيلسوف؛ بيد أن لطافة

الأخلاق الإنجيلية تناسبه؛ والبروتستانتية تبدو له أكثر قابلية للدفاع عنها من الكاثوليكية، وأقل تكلفة للأمة، وأقل إطلاقاً للكاذب الفلسفية، وأقل إنتاجاً للسياسات المؤسفة؛ إن تاريخ النصرانية يعج بالخرافات والتعصب - من الحروب الصليبية إلى الإبادة الإثنية لهنود أمريكا مروراً بسان بارتيليمي⁽¹⁴³⁾ أو محاكم التفتيش؛ التزمت يولد الجور، خصوصاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

هلفتيوس يجمع ذلك كله تحت عنوان «ديانة زائفة». من الواضح إذن أن ثمة ديانة حقيقية. ما هي؟ لننظر أولاً من جهة البروتستانتية. الديانة التي تم إصلاحها لها تميز حقيقي عن الديانة الكاثوليكية. الصناعة مزدهرة، في كل البلدان التي تعيش على مبدأ لوثر وكالفن، ووفرة الثروات والخيرات شاهدة على ذلك، والحريات موجودة، وفقر الشعب يبدو أقل. ما هي الأسباب؟

أولاً، لأن هذه الديانة المنظمة، المطهرة، تحتوي على قدر أقل من الأركان العقائدية - الأمور الغامضة التي تتمنع على العقل - والأسرار. والحال أن الجسد الكهنوتي يعيش على تلك الكلام، والخرافة تغذيها - انظر التعميد، سر الميرون، سر القربان المقدس، الزواج، المسحة الأخيرة، سر التوبة، وغيرها من الممارسات الباهظة في مجملها. ثانياً، لأنها لا تعول كثيراً على كره الجسد والرغبات والأهواء والمتع. لا تحتفي تماماً بالمثل الأعلى الزهدي الكاثوليكي.

(143) Saint-Barthélemy: مذبحه رهيبة اقترفها الكاثوليك ضد آلاف البروتستانت في 24 أغسطس 1572، الذي يوافق عيد القديس بارتيليمي. بدأت في باريس، ثم امتدت إلى أكثر من عشرين بلدة إقليمية خلال الأسابيع والأشهر التالية.

وأخيراً، لأنّ استعمال الجحيم لترهيب المؤمنين أقلّ تداولاً لدى المصلّحين.

الدين الوحيد الذي لا يُحتمل هو الدين المتعصّب. والمشكل ليس مرده إلى الدين، الذي لا يعترض عليه هلفتيوس إطلاقاً، بقدر ما يُردّ إلى التعصّب، الذي يخصّه بتحاليله الأكثر عنفاً وتكراراً. ما يزعج الفيلسوف في الدين المتعصّب هو عدم التسامح، لا الديانة في حدّ ذاتها، فلا شيء يبرّر الدّفاع عنها حين تمنع وتأمّر وتحظر وتعيق وتصادر. الدين الذي يعلم الصّالح العامّ والتّسامح ومحبة السّلام وحبّ المعرفة والتّعلّم والشّغف بالأنوار وكره الظلاميّة ومقاومة الاستبداد والتّزمت، ولا يستغلّ النّاس، ولا يساهم في تفجيرهم، يحوز موافقة المفكّر.

وعلى غرار جان ميليه، الذي لم يكن يدعو على الرّاهب بالويل والثّبور في المطلق، بل يصدر حكمه حسب آثار تعليم الرّاهب في المجتمع - وهو موقف استتباعي -، يعتقد هلفتيوس أنّ الإكليروس يمكن أن يساهم في الصّالح العامّ بنشر فحوى ديانة مدنيّة. وهل قال دعاة الخروج من النّصرانيّة غير ذلك حين دعوا الإكليروس، خلال الثّورة الفرنسيّة، إلى أداء قسَم مدنيّ عام 1791؟

20

دين المصلحة العامّة. يعود هلفتيوس في كلّ أعماله إلى هذه الفكرة: يوجد الاستبداد حين تنتصر المصلحة الخاصّة لدى الحاكم. ولئن تعلّقت تحاليله بوزراء الشّرق وسلاطينه، أو خصّ بها على نحو دقيق

الديوان - المنظومة الإدارية والجبايئة الإسلامية - فإنّ القارئ يفهم أنّ الدلائل تخصّ أيضًا ملكيّة عهد لويس السادس عشر.

ومن ثمّ، ما أكثر ما نجد بقلمه ملاحظات حول: «السّعادة العامّة»، «الملك العامّ»، «السّعادة الشّاملة»، «الخلاص العامّ»، «سعادة الإنسانيّة»، «المنفعة العامّة»، «المصلحة العامّة»، «سعادة المجتمع»، «المصلحة الشّاملة»، «السّعادة الوطنيّة»، «المنفعة الوطنيّة»، «الهناء العامّ»، «المصلحة الوطنيّة». مشروعه السّياسيّ ليس خافيًا، فهو نفعيّ يؤسّس سياسة متعيّة شعارها «هناء السّواد الأعظم».

الكنيسة الكاثوليكيّة لا يهتمّها الملك العامّ، فهي تدّعي اهتمامها بالمصالح الرّوحانيّة وحدها، ولكنها تُظهر منذ بداية تاريخها إلى أيّ حدّ يحوز الدّنيويّ لديها الأولويّة. هذا الخلط بين الرّوحانيّ والدّنيويّ ضارّ، فالرّوحانيّ ينبغي أن يخضع للدّنيويّ الذي ينبغي أن يخضع بدوره للقانون، لأنّ القانون سُنّ لأجل الصّالح العامّ وسعادة السّواد الأعظم.

يختلف البابا والأمير حول ما ينتظران من البشر. في الواقع، الكنيسة تتمنّى أفرادًا بلهاء، أغبياء، أميّين، يسهل غرس العقائد في أذهانهم وإخضاعهم والسيطرة عليهم بالميثولوجيا المسيحيّة أكثر من سواهم. سرعة التّصديق تحصل بشكل أسهل مع رعيّة ترزح تحت النّير الذّهنيّ ممّا تحصل مع رعايا تعلّموا الحكم حكمًا صائبًا بفضل عقل سليم حرّ. الكاهن يخرب الدّنيويّ باسم الآخرة، يدمّر الحياة

والأهواء وطاقة البشر، والحال أنّ تلك القوى توفّر وقود الأمة، وأنّ الأمير قد يحكم بشكل أفضل لو يتوافر له رعايا مستنيرون متعلّمون واعون عاقلون فضلاء. فكيف إذن نوفّق بين ذينك الانتحاءين المتعارضين؟

أولاً، البدء بقطع القروض عن الديانة الكاثوليكيّة. وقد دوّن جابي الضرائب الأسبق، في مذكرة بالغة الأهميّة، ثمن الديانة الكاثوليكيّة في ما يخصّ المكوس والضرائب والاقتطاعات الإجباريّة والنظام الضريبيّ الكهنوتيّ - العُشور، أي عُشر المحصول ... -، إتاوات دينيّة مختلفة. كلّ ذلك لدفع أجور الكهنة، وصيانة مبانيهم، وتعهّد الكنائس، وتغذية الرهبان والرّاهبات العاطلين، والإبقاء على أصحاب المراتب العليا في نعيم، وتيسير الأبّهة والحفلات الفاخرة!

ثانيًا، بإعادة توزيع المال الذي سرقه الكهنة على المزارعين المنهويين، لوضع حدّ للشّفقة حتّى يسود العدل. بعد استرجاع الإدارة العامّة لذلك المال الذي استولى عليه الإكليروس، تُصادر أيضًا ممتلكاته وأراضيه. هذا المال يفيد عمّال الحقول في الحصول على قطعة أرض كي يؤمّنوا معاشهم - ففيما يأكل الكهنة حدّ الشّبع، يهلك رواد كنائسهم حقًا من شدّة الجوع.

إذا لطّفت الديانة من غلوائها، وعدلت عن تهديد المؤمنين باللّعنة، وكفّت عن التّمع بخيرات الدّنيا بعد أن حرّمت على الآخرين التّمع بها، وصارت فقيرة، ولكن أمنيّة، متسامحة، خيرة، فاضلة، متخلّقة، حقّ لها أن تنعم بالحقوق التي تكفلها قوانين البلاد. عبادة

الكائن الأسمى - كُتبت تلك الصفحات قبل الثورة الفرنسيّة بنحو خمس عشرة سنة...-، بكهنتها ومعابدها، بشرط أن تخضع للمبدأ الأساس، «تمجيد الصّالح العامّ»، يمكن شرعيّاً أن يكون لها وجود في الأُمّة...

21

«صرخة البؤس». في قضية عن الرّوح، تلقّى هلفيتوس عنف نظام سياسيّ لا يتسامح مع الفكر الحرّ؛ كان جابي ضرائب لدى الملك في شبابه، وشهد في الأرياف الفقر المدقع الذي تعاني منه المناطق الدّاخليّة؛ وكان مديرَ خدمٍ عاديّاً لدى الملكة، ولاحظ بذخ قصر فرساي؛ وفي بلاده النورمانديّة، رأى النّاس يعملون ويشقون ويتألّمون ويموتون من مشقّة العمل والمجاعة. ولما تخلّص من أوهامه، وحرّر مقدّمة كتابه المنذور للنّشر بعد وفاته، كتب تشخيصه: «وطني تلقّى أخيراً نير الاستبداد».

ما الاستبداد؟ كلّ سلطةٍ فرديّة تستهين بالصّالح العامّ والمصلحة العامّة، في الدّيوان الشرقيّ أو تحت ظلّة قصر فرساي الكبيرة؛ كلّ ممارسةٍ سياسيّة ألغت التّمييز بين العدل والظّلم، بين النّزوة الشّخصيّة والقانون العامّ؛ كلّ نظام يمنع حرّيّة الكلام والتّعبير والنّشر؛ كلّ نظام يتحكّم في نشر الأفكار وتوزيعها وتنقلها؛ كلّ إدارة تحتكر الثّروات في أيدي حفنة: الملك، بلاطه، حاشيته، مقرّبوه، عشيقاته، أسناده السّياسيّون. هذه التعريفات لا تزال تصلح حتّى يومنا هذا...

بمصطلحات ماركسيّة، كان هلفتيوس قد عاين الإفقار والصّراع الطبقيّ: الفقراء، وهم الأغلبية في البلاد (بنسبة الثلثين حسب قوله) يعملون بلا توائٍ ولا يملكون وسائل العيش. وفي الوقت نفسه، يسلّط الأغنياء العاطلون على أولئك البؤساء الضّرائب ويعيشون من ريعهم. لا يقدّم هلفتيوس دروس أخلاق وعظيّة، بل يؤكّد، كمفكّر مهتمّ بالاقتصاد، أنّ تركز الثّروات، وتناقص عدد الأغنياء، وفي الوقت نفسه تنامي ثرواتهم وحرمان السّواد الأعظم، مخالف للمصلحة العامّة وخير الأمّة. يتحدّث هلفتيوس عن «صرخة البؤس»، ويسمّعها، ويضخمها.

22

راديكاليّة إصلاحية. ما العمل؟ الثّورة؟ لا أحد يفكّر فيها حقّاً... الملكية المشتركة؟ التّعاضد⁽¹⁴⁴⁾؟ التّشاركيّة المحليّة؟ إلغاء الملكية؟ بعضهم يؤمن بذلك، مثل جان ميليه كما أسلفنا، وكذلك موريلي وكتابه قانون الطّبيعة أو الأب مابلي⁽¹⁴⁵⁾، وبعضهم لا يؤمن، مثل هلفتيوس، لأنّ الفكرة بدت له عصيّة على التّحقيق. ليس لكونها خرقاء، وإنّما لأنّها يستحيل أن توضع موضع التّطبيق. فما جدوى النّضال لأجل ما لا يُمكن تطبيقه؟

إلغاء المال؟ كلّاً، يقول الفيلسوف، ويقدّم براهينه باقتراح يوتوبيا

(144) Collectivisme: مبدأ اشتراكيّ يقول بسيطرة الدّولة أو الشعب على جميع وسائل الإنتاج والأنشطة الاقتصادية.

(145) Gabriel Bonnot de Mably (1709-1785): فيلسوف فرنسيّ، أخو الفيلسوف كوندياك.

تأملية: ماذا سيحدث في مثل هذه الحالة؟ فقر، بؤس، إفلاس ومجاعة. والأغنياء والمتعودون على البذخ والمُلاك ورجال المال والمقاولون سوف يغادرون البلاد جمعًا بثرواتهم. وبنزيف المواهب التجارية والصناعية، وأصحاب البنوك ورجال المال، لن يبقى في البلاد سوى الجوعى العاجزين عن تأمين أبسط حاجاتهم. وإذا ضعفت الأمة ووهنت، صارت تحت رحمة أوّل جار يستحوذ على التراب الوطني، في غياب أدنى مقاومة - لأنّ الجيش يفترض مألًا لتأهيله وجعله على أهبة التّحرّك.

إذن؟ لا نحتاج إلى الثورة بل إلى الإصلاح - ولكن بشكل راديكاليّ. ينبغي تغيير الأمور بأنّاء، ولكن بثقة، وتحسينها، والحدّ من المظالم. هلفتيوس يدعو إلى تغييرات منتظمة، متواصلة، متدرّجة. هو ينكر الأيديولوجيا ويرفض قانونًا عامًّا يعمل عمل وصفة سحرية. فلا مجال لاقتصاد مخطّط، ثابت، أو قرارات دولية قومية قهرية.

ولكن، بوصفه براغماتيًّا، يتصوّر تحويلات منتظمة لنقاط محدّدة في حالات ملموسة. وبوصفه اسمائيًّا، غير مثاليّ كشأن كلّ أيديولوجيّ، يرى أنّ من الواجب التّفكير في أمة بعينها، وحال تقدّمها، وتأخّرها، وميزاتها الخاصّة، ومعطياتها الإحصائية: حال صناعتها، أرقام تجارتها، نتائج عمليّاتها المالية، إلخ. كلّ تشريع ينبغي أن يَنَتِج عن حالة عملية مرتقبة. ثمّ يسمح القانون بتغيير الأشياء.

23

«متساوون في السّعادة». يبدو مشروعه السّياسيّ بسيطًا: جعل

البشر «متساوين في السّعادة». («المساواة في المتع» التي نادى بها اللّامتسرولون عام 1793!) لئن بدت الشيوعيّة وإلغاء المال بلا منفذ، فلنتصوّر بالأحرى توزيع الثّروات على أكبر قدر من الأيدي. أن نريد نهاية الثّروة الوطنيّة لا يفيد في شيء إذا كان المشكل يفترض إعادة توزيع متساوٍ وأكثر عدلاً. للذهاب في هذا الاتجاه، ينبغي للعاهل أولاً تخفيض الإتاوات، وفرض الضّرائب على المواطنين لغاية وحيدة هي التّفقات العامّة الضّروريّة لتحقيق الهناء الوطنيّ. كلّ جباية ضرائب غير مبرّرة بخطّ ميزانيّ مقيّسٍ على المصلحة العامّة تُعدّ سرقة.

قبل ذلك، ولتخفيف الضّغط الجبائيّ على دافعي الضّرائب، لا بدّ أن نعطيهم وسائل مراكمة الحدّ الأدنى من الثّروة الذي سيخضع للضّريبة! فهلفتيوس، بوصفه ابن عصره عارفاً بنظريّة الفيزيوقراطيّين، يؤمن بفضائل العمل، وبالصّناعة والمبادرة والملكيّة الخاصّة والتّجارة والبذخ والمبادلات. فكيف نريد مساواة في السّعادة إذا لم نخلق أولاً فرص السّعادة؟

ومن ثمّ، كان هلفتيوس يدافع عن الوصول إلى ملكيّة الأرض للجميع، ويوم عمل لا يتجاوز سبع أو ثمانيّ ساعات - نحن في أوج القرن الثّامن عشر... -، وإنتاج الثّروات لغرض وحيد هو تمكين كلّ فرد من تأمين حاجات معيشه اليوميّ، ودفع الضّرائب التي تفيد الدّولة في تأمين التّراب الوطنيّ وحمايته، والدّفاع عن العدالة - الجنود، القضاة، الشرطة.

تنظيم الأمة يتم عبر نشر فكرة جديدة: النظام الفيدرالي. لا تحتوي أعماله الكاملة على براهين أوسع، فالفكرة لم تظهر إلا في مناسبتين وفي بضع كلمات فقط - «رابطة فيديرالية» و«جمهوريات فيديرالية» -، ولكنها موجودة فيها: ضدّ الماكنة الدّوليّة، القوميّة، المركّزة، تلك التي حمّست اليعاقبة المنتصرين للمركزيّة، دافع الفيلسوف، الذي يعرف الجهات والمناطق الدّاخلية وتنوّعها، عن المبدأ الفيدراليّ العزيز على قلوب الجيرونديّين⁽¹⁴⁶⁾... في الواقع، نقول هذا عرضاً، ينقض هلفتيوس السّلطة المتراصة للدّولة الملكيّة ويدافع عن مبدأ جمهوريات صغيرة يراها الأقدر على تحقيق المصلحة العامّة لمواطنيها.

24

فلسفة الأخوات التّسع. كان هلفتيوس ماسونيّاً، منخرطاً في غرفة الأخوات التّسع⁽¹⁴⁷⁾. الآن وقد حان توديعنا لهلفتيوس شخصاً وفيلسوفاً، لا شيء يمنع من تقديم فرضيّة أنّ جملة أفكاره ومشاريعه وقراءته للعالم تنحصر في هذا الاقتراح: في حياته وأثره، نظريّاته وأفعاله، فكره وسلوكه، ينطق هلفتيوس بالمثل الأعلى الماسونيّ.

بمعنى؟ بناء الذات، الإنشاء الوجوديّ، وضع جملة من الجهود والطّاقات في خدمة هذا المشروع لخلق إنسان جديد. ولكن كذلك: ممارسة فعل الخير، الحرص على المصلحة العامّة، الرّغبة في إصلاح

(146) Les Girondins: الجيرونديّون هم أعضاء حزب سياسي نشأ أثناء الثّورة الفرنسيّة، معظم قادته من مقاطعة جيرونْد (Gironde). كانوا يفضّلون التّخلص من الملكيّة في فرنسا وإنشاء جمهورية فيديرالية.

(147) غرفة ماسونيّة في محفل الشّرق الكبير بفرنسا، تأسّس عام 1776 وكان له تأثير خاصّ في تنظيم الدّعم الفرنسيّ للثّورة الأمريكيّة.

اجتماعي وفكري، جعل الأخوة قاعدة ذهبية. تأليهته لا تمنع ذلك، ولا احتفائه بديانة مدنية ومواطنة، بالعكس. أخيراً، الدور الذي يسندُه إلى التربية والتعليم وبناء حكم يتيح تلك الفرضية.

ذلك أن هلفتيوس يقترح «علم تربية» وهو ما تنحصر فيه في النهاية راديكاليته الإصلاحية. إن قبل بالثورة، فهي ثورة الفرد الوجودية لا محالة، وكذلك ثورة الأمة. أمام ذلك الكمّ من المشاريع السياسية، وضخامة المهمة، فإنّ للتربية ميزة توحيد كلّ المشاريع. ذلك أنّ الاشتغال على الأشياء يبدو أكثر نجاعة إذا انصبّ على الجذر. والجذر هو السنّ الأولى - السنّ الأولى للإنسان، والسنّ الأولى للأمة.

25

بناء كائن. «لا نولد أبداً (...) بل نغدو ما نحن» يؤكد كتاب عن الإنسان. أنثروبولوجيا هلفتيوس تجريبية تماماً. عند الولادة، يكون الفرد لا شيء، والتربية تستطيع كلّ شيء وتفعل كلّ شيء. خلافاً لروسو الذي ما انفكّ يعارضه في هذا المسألة، يؤمن هلفتيوس بحياد وجوديّ للولادة: الإنسان لا يولد خيراً؛ ولا يولد شراً، بل يولد محايداً...

خبث البشر؟ مسألة شكل تسير، وتربية سيئة، وتعليم خاطئ، وتهية فاشلة للأطفال، أثر منحرف لترويض يُعهد به إلى الكهنة وزمرتهم خلال السنوات الأولى. طبيتهم؟ الأمر نفسه: نتيجة تربية سليمة، وقدوة حسنة منذ نعومة الأظفار، وفضل «معلّمين» علمانيّين

تكوّنوا كي يكونوا فلاسفة بدلاً عن ظلاميّة رجال الدّين،
والمتافيزيقيّين أو السكولائيّين.

علم التّربية - يكتب أيضًا «فنّ التّربية» - يفترض بناء أفراد سعداء
تساهم سعادتهم الذاتيّة في السّعادة العامّة للأمة. الجواهر الفرديّة
تشكّل بلدًا منيرًا، والأفراد الذين وُهبوا العقل يشكّلون أمة سليمة
وقويّة ومزدهرة. والمهمّة الدّائمة للهناء الوطنيّ يفترض ورشًا
صغيرة دائمة يستطيع النّاس فيها، وهم يعملون لأجل حرّيتهم، أن
يساهموا أيضًا في العمل لأجل حرّية المجموعة. لا يمكن أن تعتبر
المصلحة الخاصّة منفصلة عن المصلحة العامّة، بل لا بدّ أن تكونا
متضافرتين.

على التّربية أن تأخذ بعين الاعتبار المعطيات الأساسيّة لهذا العلم
التّجريبيّ أي الأخلاق النّفعيّة: كلّ واحد يسعى إلى المتعة؟ الجميع
يرفض الألم؟ كلّ فرد يعمل في بداية الأمر لمصلحته الخاصّة؟ لا يهمّ.
المربّي يضع في حسابه تلك الحقائق ويستثير روح التنافس بين
التّلاميذ، ويحبّبهم في المعرفة، ويرغبهم في الثّقافة بجعلهم يفضّلون
بعض الحركات على الحركات الأخرى. ما يُرغب فيه ينال الثّواب،
وما لا يُرغب فيه ينال العقاب - وهو منطق بلغ ذروته لاحقًا مع
النّفعيّين الإنجليز، وفي مقدّماتهم بنثام.

26

حوادث طفيفة وأسباب لا تُدرّك. إذا كانت التّربية تستطيع كلّ
شيء، فهي لا تستطيع أن تنتج عباقرة - ملاحظة لاذعة من روسو.

صُنِعَ هذا النوع من الأفراد يخضع لقوانين لا تزال غامضة حتّى الآن. التّربية تستطيع أن تنتج أفرادًا مستنيرين، عقلاء، يفكّرون تفكيرًا سليمًا، ويتأمّلون تأمّلًا صحيحًا، ويحلّلون تحليلًا صائبًا، في منعة من التّرهات الدّينيّة أو العاجزة عن المقاربات الأيديولوجيّة. وهذا في حدّ ذاته كثير، كما يقول...

لماذا لا نعرف كيف نصنع عباقرة حسب الطّلب؟ لأنّ التّربية، وإن كانت علمًا وفنًّا في الوقت ذاته، لا تستطيع أكثر ممّا تقدر عليه. أي أنّها لا تحدّد نسبة مائة في المائة من الفرد بل الجانب الأكبر فيه. وما يبقى غير مفهوم يُنتج الفارق: هنا العبقريّ، وهناك الإنسان العاديّ. ذلك أنّ في كلّ تربية «أسبابًا عصيّة على الإدراك»، «حوادث بسيطة»، «مصادفات صغيرة» تولّد آثارا هامّة في انعطاف مصير الفرد: كلمة، قراءة، محادثة، مقابلة، حادث أطلق عليه هلفتيوس اسم «صدفة».

استعمال هذه الكلمة مكدّر وخطير بسبب الخلط الممكن بين استعماله البسيط العاديّ، وبين المعنى الذي يضيفه عليه هلفتيوس. صحيح أنّ الفيلسوف غالبًا ما حدّده بانتظام ودقّة بكونه «تسلسل آثار نجهل أسبابها»، أو «تسلسلًا مجهولًا لأسباب كفيّلة بإحداث هذا الأثر أو ذاك»، وأيضًا «تسلسل ظروف» وحتّى «تسلسلًا مخالفًا للأحداث والظّروف والمواقع التي يوجد فيها سائر البشر». ولكنّ ذلك غير كاف، فيما يبدو، إذ كيف نفهم، وصاحب إيميل في المقام الأوّل، أنّ التّربية لا تستطيع أن تصنع حسب الطّلب أفرادًا مُهيّئين للمصلحة العامّة.

فالتربية يمكن التحكّم فيها، أما الصدفة فلا. لنكفّ إذن عن الإنذار بخطر تربية وطنية متسلّطة يُخشى أن تنتج أفرادًا منزوعي الأدمغة. إنّ الاقتراح النفعي للفيلسوف لا يفترض مصنع عباقرة، بل أمة مليئة بمواطنين سعداء بوجودهم هنا حيث هم، قادرين على بناء سعادتهم الذاتيّة والمساهمة في تشييد صرح سعادة المجموعة.

27

روبسبير، نابليون والبقية... كان يمكن لهلفتيوس أن يشهد السّاعات الأولى من الثورة الفرنسيّة، ففي عام 1789، كان يمكن أن يكون عمره فوق ثلاث وسبعين سنة بقليل... إلّا أنّ موته صغيرًا نسبيًا - سبع وخمسون سنة - لم يسمح له بحضور طلائع الحدث. كوندورسيه، أحد قدماء مرتادي صالون السيّد هلفتيوس، دافع عن أطروحاته عن الثورة عبر التّعليم في نصوص رائعة - خمس بحوث في التّعليم العامّ - وثقته في تقدّم الإنسانيّة - عليكم بقراءة أو إعادة قراءة تخطيط للوحة تاريخيّة في تطوّرات العقل الإنسانيّ.

في السّاعات الأولى من الثورة، وفيما كانت الأرملة تدفن المال في الحديقة - لن تجده...-، تمّ اعتبار ابنتي الفيلسوف من «بنات الأُمّة». أمّا كوندورسيه، الذي عارض إعدام لويس كايه، في خلاف مع هيئة الإنقاذ العامّ حول هذا الموضوع، فقد اختفى. وُجد متحرّرًا في مخبئه ببور إيغالييتي (بور لا رين سابقًا!). انتصار العنف السّياسيّ على المثل الأعلى الفلسفيّ.

في جلسة الأربعاء 5 ديسمبر 1793، أمر روبسبير بتحطيم

التمثال التّصفيّ لكلّ من هلفتيوس وميرابو⁽¹⁴⁸⁾، بتهمة تواطئهما قبل وفاتهما مع المّلاك، وبوصفهما مضادّين للثّورة ويتّميّان لنفس الطّبقة (البورجوازيّة) ووصوليّين... هلفتيوس، الذي كتب في صفحاتٍ عن الإنسان الأخيرة أنّ «سعادة الجيل القادم لا يرتبط البتّة بتعاسة الجيل الحاضر»، كان سيجد صعوبة بطبيعة الحال في التّعامل مع التّزيه المزعوم. في ذلك الوجه الشّرير كان سيتعرّف فوراً على الطّاغية المرسوم بمهارة تحت إهاب شرقيّ...

وما دمنا بصدد الحديث عن الطّاغية، فلتحدّث عن بونابرت الذي سيزور لاحقاً السيّد هلفتيوس في معتكفها بضاحية أوتوي. عندما استغرب الكورسيكيّ ضيق الحقيقة، كان ردّها: «أنت لا تعرف، أيّها الجنرال، مدى السّعادة التي نجدها في ثلاثة فدادين». درس في الحكمة لذلك العسكريّ الذي لا يشبع أبداً...

في صالونات الأرملة كان يلتقي فلاسفة يتمنّون إصلاح الأخلاق والأفكار عن طريق تشريع جديد وتربية ملائمة. وكانوا كلّهم يقترحون السّعادة للجميع والمنفعة المشتركة. أنطوان ديستوت دو تراسي، جورج كابانيس، الكونت فولني، جاك أندري نيجون، جان فرنسوا دو سان لامبير، دومنيك جوزيف غارا، بيير دونو... كانوا لفترةٍ رفاق بونابرت قبل أن يرفضوا اتّباع نابليون⁽¹⁴⁹⁾، فجعل

(148) Honoré Gabriel Riqueti de Mirabeau الشّهير بميرابو (1749-1791): كاتب وصحافيّ ورجل سياسيّ فرنسيّ.

(149) نابليون بونابرت: يفصل بعض المؤرّخين الفرنسيّين بين بونابرت، العسكريّ الذي اغتتم اضطرابات الثّورة ومجازرها للوصول إلى السّلطة، وبين نابليون الذي نصّب نفسه إمبراطوراً عام 1804 بحضور البابا بيوس السّابع، للدّلالة على مرحلتين

حياتهم مستحيلة. والتاريخ الرسميّ عمومًا يتجاهل أولئك الذين يُنعتون بالأيديولوجيين.

عندما قدّم باربييه⁽¹⁵⁰⁾ للإمبراطور قائمة الأعمال التي تصلح لمكتبة أحد الخواصّ، اغتاظ الإمبراطور وشطب اسم هلفتيوس. رجل يثير سخط مزوّد المقصلة وجزّار ساحاتٍ وغى الإمبراطورية لا يمكن أن يكون سيئًا تمامًا! وإذا أضفنا أنّ اليسوعيين والكهنة والمثاليين والمسيحيين والكانطيين والهيغلّيين والجامعيين والتّيولوجيين ومؤرّخي الفلسفة الرسميّين يكتّون للرجل نفس الاحتقار، أمكن لنا أن نُقرّ بسُموّه...

مختلفتين.

(150) Jacques Louis Barbier (1752-1824): كولونيل فرنسيّ رافق نابليون بونابرت في حروبه.

(III)

دولباك⁽¹⁵¹⁾

و«فنّ الانتشاء»

1

بارون نكد. رأى دولباك النور يوم 8 ديسمبر 1723 في إيديشايم بفيديرالية راينلند بالاتينات الألمانية، في العام الذي أثار فيه الهولنديّ ماندفيل⁽¹⁵²⁾ فضيحة بـ خرافة النحل، كتاب ذاع صيته بسبب تمجيده الرذائل الخاصّة التي تولّد الفضائل العامّة! وهو العام الذي وُلد فيه أيضًا آدم سميث - نال شهرته عن ثروة الأمم أكثر ممّا نالها عن نظريّة المشاعر الأخلاقية أو عن نصوصه الجمالية -، الذي سيدعوه البارون إلى صالونه الشّهير مع ثلّة من مشاهير القرن الأوروبيّين.

الأب لا ذكر له⁽¹⁵³⁾. وخاله هو الذي سيتولّى تربيته. في الثّانية

(151) هكذا ينطق الفرنسيّون اسمه: Paul Thiry d'Holbach (دولباك) وهكذا ينطقه الألمان Paul Heinrich Dietrich von Holbach (هولباخ).

(152) Bernard de Mandeville (1670-1733): طبيب وكاتب هولنديّ، حصل على الجنسيّة البريطانيّة عام 1690. حاز شهرته عن تلك الحكاية الشّعريّة على لسان الحيوان، وكان قد نشرها أوّل مرّة عام 1705، ثمّ أعاد نشرها في إنجلترا عام 1723.

(153) Johann Jacob Tiry (1672-1756): لا يعرف عنه سوى أنّه أمّيّ يوقّع اسمه

عشرة من عمره، أطلعته خاله على باريس حيث تعلّم الفرنسيّة. فيما بعد، أي عام 1744، تلقّى دراسات جادّة في جامعة لايدن بهولندا. وكان للخال لقب نبالة حديثة حصل عليه في عهد الوصاية على العرش عام 1722، بفضل ثروته التجاريّة الباريسيّة. عند وفاته عام 1753، ترك ممتلكاته وحرف إضافته⁽¹⁵⁴⁾ للفيلسوف الذي كان قد بلغ الثلاثين.

في الثالث من فبراير 1750، أي عند بلوغه سنّ السادسة والعشرين، تزوّج دولباك ابنة عمّه بازيل جنفيف سوزان دين، وحصل في هذا الزّواج الرّسميّ الذي تمّ حسب القواعد المسيحيّة على تزكية من البابا. في 26 يونيو 1753، صار أباً، ثمّ أرمل في 27 أغسطس 1754، فقد توفّيت زوجته في سنّ الخامسة والعشرين، وتركتّه حزيناً كئيّباً، فحاول أن يجد السّلوّى في رحلة طويلة، ولكنّه لم يذهب بعيداً، ولم يُطل غيابه، إذ عاد إلى وكره.

بعد مضيّ سنتين، تزوّج شارلوت سوزان دين، أخت زوجته الأولى، فأنجبت له ابنتين وولداً. وامتدّ بها العمر إحدى وثلاثين سنة بعد وفاة زوجها. بعد خمسة أشهر على وفاته، أي عام 1789، باعت اللّوحات والمكتبة ومكتب التّاريخ الطّبيعيّ ولاذت بعزلة لا يقطعها شيء أو أحد. ولما ماتت بدورها عام 1820، نقل صديق دولباك الوفيّ جاك أندري نيجون إلى العموم قائمة كتابات البارون المنشورة

بعلامة قاطع ومقطوع.

(154) من عادة النّباء أن تكون أسماءهم مضافة إلى مكان أو جهة أو منطقة بأحد الحروف التّالية: de, du, de la, des

باسم مستعار في حياته. وبدأت حياته الفلسفية تخرج إلى الهواء الطلق.

حسب ما نعلم، لأن سيرة دولباك الذاتية لا تحفل بالتفاصيل، كانت حياته العاطفية والغرامية كلاسيكية. في كل أعماله، يحتفي بالزواج، كعقد عاطفة وحب بين الزوجين، وقد كتب أسطرًا صارمة عن الخيانة الزوجية - زحف حقوق شخص آخر يدمر وحدة الزوجين-، ويمدح خصال الأسرة. الإيتوقراطية تحدّد موقفه: يودّ أن تمنع القوانين الزواج المبكر، تلك القوانين التي تستعمل عادة لتوحيد الثروات، ولكنها مضرّة بسعادة الأفراد؛ ويتوق إلى تشريع يحظر الفوارق الاجتماعية المشطّة بين أسر الأزواج؛ ويتمنى ندرة العزوبية، التي تغري بالخلاعة والرذيلة والفسق، فضلًا عن كونها غير منتجة اجتماعيًا؛ وفي الوقت ذاته، كان يدعو إلى تسهيل الطلاق، لكونه يفيد في فكّ الزيجات السيئة وربط علاقات زواج جديدة أكثر ملاءمة للتفتح. وفي مكان آخر، خصّصه للكهنة، ناضل لأجل زواجهم حتّى يتمكنوا هم أيضًا من تكوين أسر. سوف تتذكّر الثورة الفرنسية ذلك...

لا شيء إذن في هذا النموذج من الملحد الراديكالي يشي بأنه خليع، ماجن كسائر الماجنين الذين تزخر بهم التّبالّة الفرنسية في ذلك الوقت. عندما نظّر في نظام الطبيعة، بعد بير بايل، للملحد الفاضل، رسم نوعًا من البورترية الذاتي. مناهضو الإلحاد والمادّية هم وحدهم الذين يؤمنون بأنّ إنكار الرّب يجعل الأخلاق مستحيلة: حياة

دولباك وآثاره تثبت العكس.

يوصف بمزاجه العكر - وهو دليل في الغالب على طبع حقيقي في نظر من يعدمه؛ ويقال عنه أحياناً إنه كئيب؛ ويركزون على غضبه العنيف، ويتوقفون عند اندفاعه العابر وفضاظته؛ ويتحدثون عن تقلب مزاجه؛ ويلحّون على قلة صبره في اللعب؛ ويلاحظون أنه لا يغيّر رأيه بسهولة - وذلك عيب في نظر المتقلّبين.

فهل هو مزاجي أم ذو طبع؟ مكتئب أم حسّاس؟ منفعل أم ثابت في مواقفه؟ لاعب سيئ أم عارف بما يفعل؟ ثابت في قناعاته أم وفي لعاداته؟ هذا العقل القوي، كقولنا الكحول القوي، لا يتردّد في الدّفاع عن أفكاره، ولم يحدّ قطّ عن خياراته الأساسيّة: هو ملحد، مادّي، حسّوي، تجريبي، نفعي، لا يخاتل ولا يتحالف مع خصومه. هو من نوع العدو المثالي للمتزمّتين والدّجالين في كلّ الكنائس.

2

كنيس ومخبزة. كان دولباك يعمل بكّد وجدّ. كان غولاً فلسفيّاً. آلاف صفحات مقروءة، آلاف مكتوبة، آلاف مترجمة، آلاف منشورة. لا مجال لنصف الحلول: إن كتب في الموسوعة، فليس على منوال السّقيم الأب إيفون⁽¹⁵⁵⁾، ممزّق أوصال الملحدّين في ثلاث مقالات، وإنّما طيلة ثماني سنوات قضّاها لإعداد قرابة أربعمئة مذكرة حصراً في مواضيع علميّة وجيولوجيّة وعدائيّة - أحفور، ركام مجلّدة، بحر، جبل، زلازل، مناجم، إلخ.

(155) Claude Yvon (1714-1789): عالم لاهوتيّ وكاتب وصحافيّ فرنسيّ.

وإن ترجم وأصدر ونشر نصوصًا تأليهية، وحلولية، وإلحادية أو علمية، فبشكل ضخم: ثلاثة عشر مجلدًا من البحوث والكتب العلمية الألمانية. من بين تلك الكتب الصارمة فنّ صناعة الزجاج، بحث في الكبريت، مدخل إلى علم المعادن، كبريتور الحديد... وكان صديقًا أليفًا لديدرو – ما زال الجامعيون يتهارشون لعزل ما يرجع من نثر البارون لابن السكاكيني، فقد عملا معًا طيلة خمس عشرة سنة في ذلك المشروع، أيقونة قرن الأنوار.

يقوم صالون البارون مقام شخصية مفهومية: موضع فلسفي ومصطلح في حدّ ذاته. ثروة مالكة تسمح بمكان ثقافي عالي الشأن، وأكل فاخر، وشراب رقيق، وقهوة رفيعة ونقاش من أذكى ما يوجد في أوروبا. فلنتخيل أنّ في نفس الفضاء، أي الفندق الخاصّ بشارع روايال سان روك، يوجد فولتير وروسو، ديدور ودالمبير، كوندورسيه، هلفتيوس وشيزاري بيكاريّا، هيوم وبوفون، آدم سميث وموريلّيه، غريم وفرديناندو غاليلاني⁽¹⁵⁶⁾ وعدد من محرّري الموسوعة. وفي ريف غراندفال، كان الفيلسوف يستقبل الضيوف أيضًا.

حتّى وإن كان دولباك يتمنّى، حسب عبارة غاليلاني الجميلة، ألا يكون في صالونه سوى «مدير خدم الفلسفة الأوّل»، فقد كان أكثر من مضيّف رائع، ببلورة ما تحمله أوروبا في ذلك الوقت من الطّاقات الأشدّ روعة وراديكالية. الجميع يعلمون أنّ البارون يؤلّف

(156) Ferdinando Galiani (1728-1787): عالم اقتصاد إيطالي.

كتبًا باسم مستعار، في تلك الظّهيرة، جرى النقاش حول مواضيعها – الإلحاد، المادّية، التّأليهيّة، الحسّويّة، التّجريبية، إلخ. - غير أنّهم تظاهروا كلّهم بجهلهم بأنّها من تأليفه. كانوا يحمونّه، فالحذر واجب، وقد يعرّض المرء حياته للخطر إذا فكّر خارج الدّروب التي حدّدت أبعادها السّلطة والكنيسة الكاثوليكيّة.

كان دولباك يستقبل في نهج رويال سان روك من عشرة أشخاص إلى خمسة عشر شخصًا ليومين في الأسبوع، الخميس والأحد، من السّاعة الثّانية بعد الظّهر إلى السّابعة أو الثّامنة مساءً. وفي بقيّة أيّام الأسبوع، يستضيف أيضًا، ولكن بعدد أقلّ. كان يعمل في الصّباح، ويتمشّى بعد الظّهر في الرّيف برفقة هذا أو ذاك، وفي المساء يحضر العروض الفنّيّة - التي يدين جانبها اللاّخلاقّي في كتابه الإيتوقراطيّة! - أو المادّب الواجبة مع عليّة القوم.

كان غريم - وآخرون يقولون بل هو ديدرو - يسمّي ذلك الصّالون «الكنيس». تارة يقدّم أحدهم عرضًا ينصت إليه الجميع ثمّ يناقشونه، وطورًا يضع موضوعٌ رفيع شخصين في مواجهة، ولكن بلباقة دومًا، واحترام لآداب الحوار. يتحدّث ديدرو عن الفنّ والفلسفة والأدب؛ ويتحدّث الأب راينال عن التّجارة في المستعمرات؛ ودارسيه⁽¹⁵⁷⁾ عن الجيولوجيا؛ وروسو عن الموسيقى؛ وبيكّاريا عن الحقوق والأحكام والعقوبات؛ وآدم سميث عن الاقتصاد والأخلاق والجماليّات.

(157) Jean Darcet (1724-1801): كيميائيّ ورجل سياسيّ.

فهل ينبغي أن نرى في المناظرة الخطائية المشفوعة بالبراهين، والمهارات الفكرية اللامعة، والقيمة الفلسفية العالية، والاستدلال من النوع التلمودي، وممارسة نوع من الكرم الباريسي، والتجمع الخفي بما سُمي «العُصبة الدُولبَاكِيَّة»، بعض أسباب ذلك الاسم الغريب: «الكنيس»؟ لا ندرى...

ولكنّا نعرف لماذا سُمي ذلك «الكنيس» أيضًا بـ «المخبزة»... فقد نشر البارون عام 1761 **النصرانية مكشوفة، تأمل في مبادئ الديانة المسيحية وآثارها** باسم مستعار هو بولانجيه⁽¹⁵⁸⁾. وهذا الاسم استعمل أيضًا استعارة للنّاشِر. نفس الاسم يُطلق أيضًا على كاتب حقيقي، مهندس في دائرة الطّرق والجسور وموسوعيّ نشر البارون مخطوطاته. وتلك أسباب لإغراق السّمكة⁽¹⁵⁹⁾ في «المخبزة»...

وساء أمان كنيسًا أم مخبزة، عُصبة دولبَاكِيَّة أم صالونًا أوروبيًا، فإنّ نهج روايال سان روك كان يجتذب ذكاء الأنوار ويشعّ في ما وراء مرحلة ما قبل الثورة وحدها. ففي تلك الأماكن، مثل صالون دولباك وصالون هلفتيوس - تقاطعت وجوه أصيلة سوف تروي عمّا قريب تيّار الأيديولوجيّين. وهي كوكبة من الأسماء - كابانيس، ديستوت دو تراسي، فولني، بينيل⁽¹⁶⁰⁾، غارا، ساي⁽¹⁶¹⁾ - انخرطت

(158) Boulanger: خبّاز.

(159) أغرق السّمكة: تعبير مجازي في اللغة الفرنسيّة يعني عدم تناول ثيمة محظورة أو موضوع صعب جهرًا، وإخفاؤه تحت كومة من التّفاصيل.

(160) Philippe Pinel (1745-1826): عالم وطبيب اشتهر بوصفه طبيبًا عقليًا aliéniste ورائدًا في طبّ الأمراض العقلية وعلم الحيوان.

(161) Jean Baptiste Say (1767-1838): أهمّ رجل اقتصاد فرنسيّ في تلك الحقبة.

في مرحلة بونابرت، ثم نابليون - الذي انقلب عليهم وأذاقهم الويل -، وممارسة تربية وطنية وعموميّة، واشتغال على اللّغة، والنّظر في ولادة الأفكار، والحسويّة الماديّة النّشيطة، وكلّها خطوات خطّتها تلك الحساسيّة الفلسفيّة في منعطف القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

برفقة صاحب بحوث في التّعليم العام⁽¹⁶²⁾، نجد أيضًا عند البارون دولباك كابانيس الذي نشر عام 1802 علاقة جسد الإنسان بأخلاقه، فيما ألّف فولني بحثًا بعنوان حول ملكة التّفكير، وهما نصّان يبيّنان كيف يمكن للمرء أن يكون مريدًا ممتازًا بالانضمام إلى أساتذته ثمّ تجاوزهم، مع الاعتراف بدين الأثر الذي كان سببًا في أثره هو نفسه وتسجيله في التّاريخ العامّ للأفكار.

توفيّ دولباك يوم 21 يناير 1789، بعد أربع سنوات بالضبط من قطع رأس لويس السّادس عشر، عشية المجلس العامّ، عن سنّ تناهز السّبعين عامًا - تمّ دفنه في كنيسة سان روك حيث سبقه بخمس سنوات صديقه العزيز ديدرو. بقي دولباك حيًّا فكريًّا وخاصّة لدى كوندورسيه والجيل الأوّل من الأيديولوجيين. هو الذي لم يكن يحترم سوى هذا النوع من الخلود ويسخر من ذلك الخلود المتخيّل لأتباع الرّبّ وأتباع المسيح، كان يؤدّ أن يواصل العيش وخدمة المصلحة العامّة وحيويّة الفلسفة الفرنسيّة.

(162) المقصود كوندورسيه.

آثار الغول. من بين كتلة العمل التي أنجزها دولباك، لترك الآثار العلمية للمتخصصين في مباحث العلوم ولنتوقف عند النصوص الفلسفية. في كمية الكتب المطبوعة، يمكن دون إضرار كبير أن نعزل ثلاثة أطوار نظرية بشيماتها الخاصة: تفكيك النصرانية، إعداد مادية حسوية وإلحادية، اقتراح سياسة سعادة ونفعية. المجموع يشكل أوسع برنامج لفلسفة الأنوار جدير بهذا الاسم - أي برنامج صراع ضد الخرافات الدينية والفلسفية والمثالية والروحانية والميتافيزيقية.

الطور الأول: تفكيك الدين بعامة والنصرانية بخاصة. بدأ النزاع مع النصرانية مكشوفة عام 1761 (بتاريخ مسبق: 4 مايو 1758). عقبه عام 1767، بالتعاون مع صديقه نيجون، نظرية محمولة، أو معجم مختصر للديانة المسيحية، نوع من التبشير قدم في شكل أبجدي بطريقة ساخرة. على سبيل المثال، جاء في شرح مفردة «ببغاء»: «حيوانات مفيدة جداً للكنيسة، دون أن تعطي معنى ذكياً ودقيقاً لما تسمع، تردّد بوفاء كبير كل ما يراد تلقينها. راجع: تبشير، ومسيحي، وتربية». يتواصل الهجوم مرفوع السلاح مع العدوى المقدسة، أو التاريخ الطبيعي للخرافة عام 1768، وهما نصّان عن اليهودية، والآراء المسبقة، وحياة القديس بولس وكتابات، وتاريخ نقدي للمسيح أو تحليل حجاجي للأناجيل عام 1770، ولوحة القديسين في العام نفسه. أي سلسلة من الرّشقات المقدوفة بغير انقطاع في أقل من عشر سنوات...

الطّور الثّاني: إعداد المادّيّة الإلحاديّة. الكتاب الأهمّ في تلك الدّورة؟ نظام الطّبيعة، أو عن قوانين العالم المادّيّ والعالم الأخلاقيّ (1770) في جزأين يمسخان 366 صفحة و 408 صفحات. بتوقيع ميرابو⁽¹⁶³⁾. هذا الكتاب الضّخم كُتب دون مفردات الحرفة، بتعريفات واضحة، ودلائل سلسلة، ولكن ببناء هزيل، وتكرار كثير، وكلام بطرف القلم أو اللّسان كما هو الشّأن مع هلفتيوس. كأنّه دفتر تدوين مناقشات صالون نهج روايال سان روك أو حديث مع ديدرو أثناء جولات في الرّيف القريب من باريس.

نصّ موجز، مباشر، بلا استطراد، حسن البناء - مائتان وست فقرات قصيرة ومركّمة -، لعلّها بغير قلم دولباك، يقترح، عام 1772، جميعه هذا الوحش الفلسفيّ الذي هو النّظام تحت عنوان الرّأي السّليم أو أفكار طبيعيّة معارضة للأفكار الخارقة للطّبيعة. هذا الكتاب الذي عرف خلال مدّة طويلة بعنوان الرّأي السّليم للرّاهب جان ميليه، رغم أنّه لا يتحدّث إطلاقاً عن الرّاهب الأحمر، ظنّه الجميع من تأليف ديدرو، ولكن لا أحد دافع عن تلك الفكرة. من تأليف نيجون؟ ممكن.

أخيراً، الطّور الثّالث: سياسة السّعادة والتّفعية. الكتاب المركزيّ؟ النّظام الاجتماعيّ أو مبادئ طبيعيّة في الأخلاق والسياسة، مع تأمل في تأثير الحكومة على الآداب العامّة (1773)، ثلاثة أجزاء بأكثر من نحو ستمائة صفحة... يمكن أن نضيف إليها السياسة الطّبيعيّة أو

(163) Mirabaud اسم مستعار، غير Mirabeau الذي تمّ التعريف به أعلاه.

خطاب في المبادئ الحقيقية للحكم، في مجلدين من أكثر من خمسمائة صفحة... بعد ذلك بثلاث سنوات، نشر دولباك الأخلاق الكونية أو واجبات الإنسان القائمة على طبيعته (1776)، ثلاثة أجزاء، بحوالي ألف ومائتي صفحة... لتتقدّم بشكل أسرع، لنقول إنّ بحورتنا جميعة عنوانها الإيتوقراطية أو الحكومة القائمة على الأخلاق (1776)، نصّ قصير لأنّه أقل من ثلاثمائة صفحة...

قلتُ غول؟ بيدولي، لأنّ دولباك في تلك الفترة، الممتدة من 1761 إلى 1776 - أي خمس عشرة سنة فقط - نشر قرابة 6500 صفحة... وهو ما لم يمنعه في الوقت نفسه من ترجمة في طبيعة الأشياء للوكريسيوس (1768)، ويسحب منه نسخاً باذخة بورق جميل وحواشٍ عريضة، مع طبعة شعبية، ثمّ نقل إلى الفرنسية أيضاً كتاب توماس هوبز عن الطبيعة الإنسانية عام 1772. دون ذكر ترجمة أعمال إنجليزية أخرى فلسفية وتأليفية وألوهية وحلولية تقارب الثلاثين كتاباً...

4

الأثر العظيم. في هذا السيل من الكتابات، يطفو كتاب يشملها كلّها تقريباً: نظام الطبيعة. نجاح كبير وفوريّ. والدليل انتشار مقالات هجائية وانتقادات لاذعة من كتاب من الدرجة الثانية يرغبون في تسجيل حضورهم بأحقادهم المتضخّمة. الأب نيكولا سيلفستر بيرجيه، الذي لم يرسخ اسمه إلّا بسبب تطفله، كاتب رديء حبر أكثر من خمسمائة صفحة، وآخر فاق الألف، وكلاهما كان

يجهد في الاعتراض على نجاح الكتاب. وبالرغم من الثمن الباهظ لذلك الأثر العظيم، طبعت منه عشر طبعات متتالية. بطبيعة الحال، رفع مجلس الإكليروس الفرنسي شكوى إلى السلطة السياسية، التي أحالت القضية إلى البرلمان، المتواطئ والمطيع، فحكم على الكتاب بالحرق، مثلما حكم على العدوى المقدسة، والنصرانية مكشوفة وعلى كتاب خطاب في المعجزات لولستون⁽¹⁶⁴⁾ نشره البارون.

فولتير (ذلك العزيز فولتير الذي اعترف، في رسالة إلى سوران⁽¹⁶⁵⁾) بتاريخ 10 نوفمبر 1770، بتبنيّه الكامل لهذا البيت: «إن لم يكن الربّ موجوداً، فلا بدّ من ابتداعه»⁽¹⁶⁶⁾ حرّر ستاً وعشرين صفحة تحت عنوان الربّ، ردّ على نظام الطبيعة كي يضيف قيمة على خردواته التأليهية المعهودة. لا يفوتنا أن نلاحظ أنّ التأليهيين أصابتهم الخيبة هم أيضاً من كتاب دولباك، لأنّه يجعل من ذلك الموقف من الربّ نوعاً من «الإجهاض» الفلسفي، ولأنّ التأليهيين قاموا تقريباً بما يلزم دون التخلّص من ربّ صار بصراحة غير مجدٍ...

(164) Thomas Woolston (1733-1669): لاهوتي إنجليزي فصل من جامعة كامبريدج بسبب آرائه حول معجزات المسيح، وألقي به في السجن حتّى وفاته.

(165) Jacques Saurin (1730-1667): قسّ بروستانتني فرنسي، وداعية بارع، قابل الأرثوذكس دعوته إلى التسامح بكثير من الانتقادات.

(166) يُنسب هذا البيت خطأً إلى فولتير، الذي يزعم مثل كثير غيره أنّه ورد في كتاب مجهول المؤلّف عنوانه "رسالة عن الدّجالين الثلاثة". ولئن قام دولباك بنشره عام 1768، فإنّ الفيلسوف الفرنسي المعاصر جورج مينوا، أكّد في كتاب صدر عام 2009، عنوانه "رسالة عن الدّجالين الثلاثة، كتاب الكفر الذي لم يوجَد قطّ"، أنّ الحديث عن ذلك الكتاب المزعوم بدأ منذ القرن الثالث عشر، وكلّ ما قيل عنه محض افتراء، وما نشره دولباك هو مخطوط ملفّق لمقالات عديدة مجهولة المصدر. أي أن فولتير كان ينتقد كتاباً لا وجود له، ولا لمؤلّفه.

كان عجوز فيرني (فولتير) في وضع مناسب للسخرية من دولباك، المتلبس بتهمة الإعلان عن الجليل العفويّ في مطلع النظام حيث أكد أنّ اختصار الطّحين يولّد الدّود، ومن ثمّ، وبفضل مسار كيميائيّ، نمرّ من المادّة الجامدة إلى المادّة الحيّة. هو خطأ علميّ لا محالة، ولكنّ الرّبّ كسبب للحَيّ هو أمرٌ لا يبدو أكثر فطنة! على أيّ حال، يبدو الخطأ العلميّ (من دولباك) أفضل من حماقة تيولوجيّة (ولو كانت من فولتير).

5

المنذر بعلم الإلحاد. لتفحص جيّدًا على التّوالي الأطوار الثلاثة التي تولّف خطوط القوّة في تلك الأعمال، وأولها تفكيك النّصرانيّة. إذا كان جان ميليه قد وضع معالم الفقه الإلحاديّ، فإنّ دولباك طوّرها بكيفيّة آليّة، عن طريق كتب خاصّة بمسائل محدّدة: يسوع، القدّيس بولس، الدّين، النّصرانيّة. وفي مناسبات عديدة، كان يوجّه سهامًا ضدّ «أتباع الرّبّ»، تلك العبارة العزيزة على كاهن إترينيني. وبوصفه غولًا، هنا أيضًا، فقد جنّد عملَ قراءة هائلًا للنّصوص التّوراتيّة، التي يعرفها أكثر من معظم ناس الكنيسة. وفي أثناء ذلك، أشار إلى أنّ المسيحيّين يجهلون في الغالب السّرديات المؤسّسة لميثولوجياهم ويؤمنون بالاستنتاج الفكريّ أو الاعتقاد المفهوميّ أكثر ممّا يؤمنون عن عادة خالصة وتقليد عائليّ وقوميّ.

منهج هذا الفقه بسيط: قراءة العهد القديم والعهد الجديد كما نقرأ حوليات تاسيتوس أو الحروب الغاليّة لقيصر... لا أكثر ولا أقلّ.

ومن ثمّ، والقلم في اليد، والعقل مشغول، دون اعتبار لمنطق ببغائية الكنيسة، يمكن أن نقارن، ونوازن ونقرأ آية في ضوء آية أخرى، ونُخضع لنار التّقد مقترحات كتب موجّهة إلى شعب بسيط، إن لم يكن أبله، ينبغي إقناعه وتنصيره بفضلٍ عجيبٍ غريب يتأثر به هذا النوع من الجمهور.

لو نكتشف، ونحن نقرأ تاسيتوس، أنّه يقدّم صيغة في هذا الفصل، وصيغة أخرى في فصل لاحق، وصيغة ثالثة في ما بعده، متناقضة كلّها، فسوف نستخلص عن حقّ غياب صدقيّة قوله. ولو نقل حدثاً يخالف أبسط قوانين العقل السّليم ويضفي عليه مصداقيّة، فسوف نقول حقاً إنّهُ لم يعد جاداً. ومن ثمّ، لو سمحت قراءة الأناجيل باكتشاف صيغ متعدّدة، أو حكايات مشطّة، فلا بدّ من استخلاص نفس النتائج والتّأكيد أنّ العهد الجديد يعيش على مقاربات عجيبة، وأنّه يحتوي على تناقضات وخرافات بالجملة.

ينطلق دولباك من مبدأ بسيط يأخذ المسيحيّين بكلامهم. التّوراة في رأيهم كتاب مقدّس، ألهمه الرّوح القدس. فليكن. حينئذ، لا نكاد نتخيّل أن الرّوح القدس يخضع لقانون العقل البشريّ البائس، ويتعرّض في أخطاء حديثة أو ينهزم أمام حجج بشريّة تافهة. بالنّسبة إلى المسيحيّ، يقيم الرّوح القدس علاقة مباشرة مع الحقيقة، ويجهل الخطأ، بوصفه عقوبة الذّكاء الأرضي!

لنقبل منه التّنبؤ: التّوراة، بإلهام من الرّوح القدس تعبر عن الحقيقة. التّرابط الملزم: لو نجد سهواً، خطأ، تناقضاً، لا اثنين ولا

عشرة ولا مائة، واحدًا فقط، فإن الكتاب حينئذ لا يصدر عن معجزة خارقة للطبيعة، بل من تحرير مبتذل جدًا لبشر من لحم ودم. ودولباك يشير إلى عدد لا يصدق من الأخطاء في كل مرويّة... إذن، الاستنتاج الواجب، الرّب لا علاقة له بكتابة تلك الحكاية. إنّها التّوراة عمل سرديّ لأفراد من طينة تاسيتوس وتيتوس ليفيوس وسويتونيوس. كتاب صنعه البشر، لبشر آخرين.

في تاريخ نقديّ للمسيح أو تحليل حجاجيّ للأناجيل (1770)، تسلّى دولباك بجدولة كمّيّة من الأخطاء يقرّها كلّ قارئ حسن الطّويّة. بعض الآيات تعارض آيات أخرى؛ مرويات تتناقض مع أخرى لنفس الحكاية؛ وعثر على «أخطاء فادحة» و«خرافات» و«قصص معيبة» و«مغالطات منطقيّة» و«استعارات» و«قوانين سخيفة» و«تناقضات»، وختم بقوله: الأناجيل؟ «رواية شرقيّة» أو، في مكان آخر، «رواية أفلاطونيّة»... اذهبوا، لقد قيل القدّاس.

6

وثائق إثبات. في دراسة مكثّفة، صفّى دولباك حسابه مع كلّ ركائز البنيان المسيحيّ. كلّ حسب مقامه: الرّب. كلّ الصفات التي تُلحق به تلغيه. وقد كتب البارون عدّة صفحات يتناول فيها تلك الصفات الواحدة بعد الأخرى: متسامح ومنتقم، كبير وغضوب، طيّب ومغتاض، عادل ولا يعرف الشّفقة، لطيف ومحارب، غفور وحقود، إلخ.. ليثبت أنّ الرّب لا يمكن أن يكون الشّيء ونقيضه في الوقت ذاته دون مخالفة فادحة للمنطق. الرّب؟ تشكيلة عجيبة من الصفات

المتناقضة، أي استحالة منطقية.

يسوع؟ «دجال من الخليل»، كاذب ماكر، يدّعي السّحر، ويختلق خرافة نبّي، يقوم عمله على استنساخ ما جاء في العهد القديم لكي يوهم البسطاء، جمهوره، بأنّه هو المسيح المنتظر. ملفّق يعلن عن نبوءات لم تتحقّق منها واحدة. أشهرها؟ مئة على الصّليب لإنقاذ البشريّة، وشراء خطايا العالم، ومحو الخطيئة الأصليّة. والحال أنّ الصّلب تمّ، ولكنّ الشّر لا يزال منتشرًا في الأرض...

الوحي؟ كلّ الأديان تزعم أنّها موحى بها، وكلّها تدّعي أنّها نزلت مباشرة من الرّبّ ومن كلمته المسموح بها. لا يسلم من القاعدة أحد منها. المعجزات؟ قصص العصور القديمة تزخر بها. ولكن كيف نصدّق أنّ شيئاً ما في الطّبيعة يخالف قوانين الطّبيعة؟ فما تمّ لا يمكن أن يحدث إلّا بأمره. الخارق يفترض استكمالاً فكريّاً من الخارج خالياً من أيّ أساس. استحالة القربان⁽¹⁶⁷⁾؟ مجرد «عبادة للخبز» - ميلييه مرّ من هنا... القرايين المقدّسة؟ «حفلات صبيانيّة سخيّة».

ولما كان دولباك وفيّاً لقراءته العقلانيّة، ومسعاه الذي أعلن عنه في شبه العنوان «تحليل حجاجي»، فقد وضع سرديّات «الرّواية الشرقيّة» في موازاة السّرديّات الشرقيّة المدرّجة في الأدب غير المقدّس. أي أنّه يكشف عن المصادر الوثنيّة للديانة المسيحيّة، وإعادة التدوير الكاثوليكيّ لممارسات ديانات قديمة. وقد أحدث المنهج المقارن فتكاً ذريعاً وأوهى الديانة المسيحيّة إلى مرتبة معتقّد من بين

(167) تحوّل خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه.

مئات المعتقدات الأخرى منذ بدء الخليقة. النصرانية؟ ديانة من بين
عدّة أديان...

الماء المقدّس؟ تغيير اسم الماء المطهّر القديم. التّعميد؟ ممارسة
مأخوذة من عبادة ميثرا⁽¹⁶⁸⁾ قاتل الثور. الانبعاث؟ فكرة بابليّة.
المطهر؟ حلم أفلاطونيّ، راجعوا محاوره فيدون. سرّ القربان
المقدّس؟ شعوذة شرقيّة. الملائكة؟ الشّيطان؟ التّجسّد؟ ميثولوجيا
قديمة قادمة من الشرق. الخلاصة: النصرانية مسألة بشريّة؛ تخضع
للقوانين التي تخضع لها سائر الأديان؛ وهي صادرة عن البشر وليس
عن إرادة الرّبّ.

7

جينياولوجيا الرّبّ. من أين أتى الرّبّ؟ والأديان؟ يقترح دولباك
جينياولوجيا واضحة لا تشوبها شائبة. البشر هم الذين ابتدعوها
لأنّهم لا يريدون الموت: لا تروقهم فكرة الزّوال المحتوم نهائيًا من
الأرض، وإعادة تأهيلهم في تنظيم جديد للمادّة في كلّ كبير من
الطّبيعة. وإنكارًا لهذه الحقيقة الوجوديّة، ابتكروا جانبًا خالداً، أي
الروح، التي لها نفس صفات ذلك الرّبّ: أزليّة، خالدة، نزيهة،
لامادّيّة، تؤدّي الوصل مع العالم الخارق، وتؤمن بقاء ممكناً إلى الأبد.
ثمّ استولى الدّين على شروط إمكانيّة ذلك الخلود بتقديم طريقة
استخدام تضمن للإكليروس كلّ السّلطات على البشر ليصبحوا في

(168) Mithra: إله زرادشتي ويمثّل في الزرادشتيّة حامي الحقّ وحارس الماشية والزّرع
والمياه. أخذه الرّومان عن الفرس وأسّسوا الديانة الميثرائيّة، وصارت عندهم ديانة
باطنيّة ترتكز على عبادة ذلك الإله.

يقترح دولباك جينيالوجيا ثانية عن الرّب. إضافة إلى إنكار الموت، يشير أيضًا إلى إنكار غياب المعرفة: البشر لا يقبلون ألا يعرفوا، لا يحتملون سؤالًا بلا جواب ويفضّلون حلًا خاطئًا على سؤال معلق. كبرياء المؤمن ترضى بخرافة دينيّة: عن كلّ سؤال فلسفيّ مطروح (من أين أتى العالم؟ إلى أين يمضي؟ من نحن؟ ما مصيرنا؟ ما هو منطق الواقع؟ من أين تأتي المادّة؟ هل خلق العالم أم هو موجود على الدّوام؟ ماذا يفعل الإنسان بوجوده؟ إلخ). يجب تابع الرّب الجواب نفسه دائمًا: مشيئة الرّب، قدرة الرّب، إرادة الرّب، مشروع الرّب، سبيل الرّب، سرّ الرّب، عظمة الرّب، فينتج الجهل بالطّبيعة وقوانينها الرّب.

بيّن البارون أنّ الدّين رأى النّور عندما ابتكر، باسم الرّب، قوانين كفيلة بقياد كلّ فرد إلى خلاصه، أي إلى الحياة الخالدة. والجحيم، المطهر، الجنّة، تقوم مقام الثّواب المُجْزى أو العقاب المسلّط من طرف ناس الكنيسة بحسب الطّاعة، ليس للرّب، بل للإكليروس الذي يزعم تمثيله، ويؤكد أنّه المؤتمن على كلمة الرّب وتديره وقانونه.

كذلك نمّر من نكران الموت ونكران غياب المعرفة، ومن الرّب نصل إلى الدّين، ثمّ بأيّ كفيّة يتمّ انزلاق الدّين إلى السّياسة، والملكيّة، وفي أغلب الأحيان إلى الاستبداد والطّغيان. فعلم اللاهوت، وهو محض علم كلام، رديف للسلطة الدّنيويّة. ومن ثمّ، نفهم كيف أنّه، في سبيل فرض سلطته، يقاوم بالظّفر والنّاب عقل

الفلاسفة، الذين لا يهدفون إلى استعباد الشعب، بل إلى سعادته.

8

آلة حرب ضدّ المسيحية. يُعدّ دولباك آلهة الحرب ضدّ المسيحية بالاهتمام أيضًا بتاريخ عصور المسيحية الأولى. كيف استطاعت تلك الطائفة التي يوجد منها الكثير في ذلك الوقت أن تصبح ديانة كونية؟ بأيّ كيفية استطاع «دجال الخليل» ذاك أن يفرض إرادته على إمبراطورية مترامية الأطراف؟ ولمدة طويلة؟

الكنيسة تقدّم روايتها الرسميّة، التي ما زالت صالحة إلى اليوم! كان الوقت سانحًا لظهور المسيح؛ جاء، واستقرّ، فتمّ الانتقال من الوثنية بسهولة، بطبيعة الحال. دولباك يبيّن العكس: كانت أعمال الإكراه والعنف والاضطهاد المسيحية ضرورية، ولكن قبل ذلك، كان لا بدّ من التنصّر المُرثي والانتهازيّ لقسطنطينوس⁽¹⁶⁹⁾، وقبله أيضًا الجنون الهائج لأوّل مسيحيّ عنيف: بولس الطرسوسيّ.

ألمّ الفيلسوف بطبيعة بولس - ووصفه بكونه سريع الغضب - وخصّه بكتاب عام 1770، دراسة نقدية لحياة القديس بولس وكتاباته. وأعاد الكرة بإلحاح في مقالة عن القديس بولس، بتوقيع بولانجيه دومًا. تحمّس الحواريّ الثالث عشر لنشر كلمة المسيح، إضافة إلى اعتناق الإمبراطور قسطنطينوس مبادئ تلك الديانة

(169) قسطنطينوس الأوّل (272-337): إمبراطور رومانيّ بسط سيطرته على الشرق والغرب، وأسس القسطنطينية التي اتخذها عاصمة للإمبراطورية البيزنطية، وكان أوّل من اعتنق المسيحية.

الطائفية، ونشاط مختلف المجامع الدينية، ولا سيما مجمع نيقية⁽¹⁷⁰⁾، لوضع مدونة أيديولوجية وتثبيت النصرانية سياسيًا، كل ذلك شُفع بوضعه في خدمة الدنيوي وسلطات الدولة كافة. ذلك هو تفسير المصير الكوني لتلك الطائفة. الديانة طائفةٌ نجحت.

ضدّ فرضية روح قدس يمسك قلم مختلف مؤلفي النصوص التي قيل عنها مقدّسة، يطرح دولباك فرضية غنية بالاحتمالات لكل دراسة تاريخية مستقبلية في هذا الموضوع: يؤكّد وجود «تدليس ورع» نظّمته السلطة كي تتخیر من مدونة عشرات الأناجيل الأربعة التي تشكّل صورة نهائية للكنيسة الكاثوليكية، بابوية رومانية. روح قدس؟ كلا، بل رجال، بشر، آدميون جدًّا، آدميون فوق اللزوم.

9

تجارة الإثم. اشتغال النصرانية يفترض الطاعة، والخضوع، ولين العريكة: ولا يتسامح مع نقائضه، أي الفلسفة والتأمل والتحليل. ولكن لو شغلنا أسلحة الفكر التقليدية، فسوف نكتشف أن تلك الديانة تقترح غايات لا تُدرَك أبدًا، غير إنسانية إطلاقًا، ولا اجتماعية البتّة. فكيف نغفر لمن يشتموننا؟ من الذي يحبّ أعداءه؟ هل ينبغي أن نفر من الجسد، ونكره الرغبات إلى هذا الحدّ؟

ومن عجب أنّ هذه الديانة تدين الانتحار، وتحرم أن يتصرّف الإنسان في حياته بدعوى أنّها ملك للرّب، وأنّه هو وحده من

(170) Nicée: هي إزيق التركية حاليًا، وكانت من قبل مدينة إغريقية، لها مكانة هامة في تاريخ المسيحية لاحتضانها المجمع النقي الذي تنسب إليه أغلب العقائد المسيحية.

يتصرّف فيها، ولكن في الوقت ذاته، تدعو إلى «انتحار بطيء» في تفاصيل الحياة اليومية، عن طريق التخلّي عن سعادات الوجود البسيطة، تلك التي يمكن أن يحوزها كلّ واحد دون أن يسيء إلى نفسه أو إلى الآخرين. إن كان الرّب موجودًا، فكيف يجد المتعة في ذلك البتر الذاتي، الراديكالي الدائم؟ ماذا يكون هذا الإله الذي يزود البشر بالقدرة على التمتع ثمّ يمنعهم منه منعًا باتًا؟

يهاجم دولباك أيضًا الديانة المسيحية مُظهرًا أنّ عددًا من الممارسات ليس لها من وظيفة سوى تأكيد السيطرة على وعي البشر، وبالتالي جسدتهم وحياتهم. كذلك الاعتراف السماعي، فبدعوى الإصغاء إلى أخطاء كلّ فرد وذنوبه وآثامه لتبرئتها عن طريق آليّة بسيطة لتوبة آليّة - صلاتان أو ثلاث صلوات كافية، مع ندم صادق محتمل.

كذلك شأن المسحة الأخيرة، ذلك السرّ الأخير الذي يسمح لمن كان على أشفاء الموت بالتّصالح مع ذاته كي يستحقّ السّماء. يمكن أيضًا، عن طريق التلوّيح بالعذاب الخالد في جهنّم، ابتزاز قليل من المال، عددًا ونقداً، في مقابل حلّم يقوم مقام تأمين على الحياة في الآخرة. نفس الملاحظة بخصوص المطهر، مكان التردّد بين الجنة والنّار، تردّد يمكن أن يكون محلّ تعزيم أو زوال عن طريق صلوات وقدايس طلبًا للغفران. مدفوعة الأجر.

يرتكز الدّين إذن على الخوف من الموت، ويستثمر الرّعب، والخوف من الآخرة، ويولّد الشّعور بالذّنب إذ يخلق بالتأكيد جزعًا أمام الفارق الأبديّ بين ما نفعل وما ينبغي أن نفعل، بين القانون

المسيحيّ والحياة اليوميّة. واستحالة الممارسة بالنسبة إلى المسيحيّ، نظرًا لوجود تلك الإيثيقا التي تفوق طاقة البشر، تفرز حالة ذهنيّة مذنبّة تصلح للإلكيروس كي يتحكّم في البشر، بالتواطؤ مع الملوك والأمرأ.

10

امرأة لعوب. تعلّم الكنيسة أنّ مريم عذراء أنجبت بفضل الرّوح القدس، دون مساعدة والدٍ بالرّغم من وجود زوجها يوسف. يقوم المؤلّف من جهته بقراءة مثوليّة جدًّا لتلك الحكاية المتخيّلة ويؤكد أنّ المرأة، في غياب زوجها، لم تتلقّ زيارة ملك بل شابّ محتمل، جنديّ عابر ربّما، وذلك ما سبّب إنجابها. فأيّ ضرورة، لأجل ولادة استثنائيّة، أن يدوم الحمل تسعة أشهر، أي المدّة المعتادة لامرأة خدعها مجهول. ولكي تنقذ الظّواهر وتخفي خيانة زوجيّة بسيطة، كان اختلاق ملكٍ وحمل لامنويّ ولجوء إلى الخرافة والعجيب والغريب.

هذا الطّفل العاديّ، من لحم ودم، ادّعى فيما بعد أنّه المسيح. كلّ حكايته عيشت على نحو يُعطي انطباعًا بأنّه ذلك الذي ينتظره النّاس. ومن ثمّ، صار مستقبل يسوع مكتوبًا في نصوص العهد القديم، لأنّ حاضر المسيح ينبغي أن يكشف عن تحقّق النّبوءة. وبمكر، وضع يسوع وأتباعه خطّة وفق الكتابات المقدّسة ثمّ سعوا إلى الإيهام بأنّ وجود المسيح وأفعاله وأعماله وأقواله تُحقّق القانون.

كلّ الحلقات البيوغرافيّة في حياة يسوع لا يعود مصدرها إلى مبدأ

اعتقاد بمجيء المسيح بل إلى خداع. المسيح الزائف يغير مشاهد مبتذلة إلى لحظات من مشروعه الربّانيّ المزعوم. من ذلك مثلاً الحلقة الشهيرة ليسوع وهو يطرد التجّار من المعبد: ليعيد نقاء المكان الذي لوّثته التّجارة، ويعيد الاعتبار للهيكل المقدّس الذي دنّسه البيع والشّراء، تقول الرواية الرّسميّة للكنيسة. كلّاً، يردّ دولباك محتجّاً: الغاية كانت خلق الفوضى واغتنام الجلبة للحصول على بعض مال يفيد في تمويل جماعة الحواريين - إذ لا يمكن أن نضاعف الخبز والسّمك كلّ يوم!

يشفع الفيلسوف عمله التّأويليّ إذن بنزع القداسة عن العجيب. فدولباك يحطّم الخرافات ويقوّض الأساطير ويضع حدّاً للحكايات الغريبة ويقترح العودة إلى قراءة عقلانيّة. يمارس المبدأ الشّهير «العقل السّليم» الذي غالباً ما يلجأ إليه ليبدّد المجاز. حياة يسوع نسيج من الحماقات. والاستعمال الصّحيح للعقل، بالمعنى الموروث عن ديكرت، كافٍ لتبيان دوايب تلك الرواية التي كُتبت كي تجلب إليها بؤساء تلك الفترة، المهتمّشين، والبسطاء الذين هم أكثر حساسيّة من الفيلسوف للخطب الخلّابة والفكر السّحريّ.

11

ضدّ غريزة الموت المسيحيّة. لإنهاء تفكيك تلك الدّيانة، يؤكّد دولباك طابعها الاجتماعيّ، بل اللاّاجتماعيّ. في أزمنة النّصرانيّة الأولى، يدعو الخطاب الصّارم إلى تخليّ الإنسان عن كلّ خيرات هذا العالم، ورفضه جسده، وانتزاع نفسه من الواقع، والفرار من الدّنيا

للفوز بالآخرة. ولكن لا يمكن أن نبني حضارة على محرقة العالم تلك. قد يوافق إغراء الصّحراء الرّهبان الموعودين بها، ولكن ما شأن المسيحيّين بناء الإمبراطوريّة؟ آباء الكنيسة جهدوا لجعل ذلك الزّهد الرّاديكاليّ وممارسة العالم متلائمين.

ولكن في الفترة التي كتب فيها دولباك نظام الطّبيعة، ما زالت آثار قويّة لمدائح التّخليّ عن العالم، مدائح تضرّ بصحّة المجتمع وديناميّة السّكان، وامتنياز السّياسة، وازدهار الاقتصاد والتّجارة لدى أمة ما - بعبارة أخرى، تضرّ بسعادة بلد. ديانة تمتدح مزايا ذلك «الانتحار البطيء» الدّائم لا تفضي إلى شيء خيرّ ذي بال لفائدة الدّولة.

الإنسان يذهب نحو سعادته بشكل طبيعيّ؛ ولكن ثقافيّاً تدعوه الدّيانة إلى العكس. هذا الالتواء الوجوديّ ينتج عنه استياء عميق. نحن نريد إشباع رغباتنا، والكنيسة تدعونا إلى التّقشّف، والألم المخلّص، والعذاب الذي يفتدي. العبادة تُركع الإنسان وتحوّله إلى ذات خاضعة تلتمس الرّحمة، وتجعله مثل دمية تثير الشّفقة.

كذلك الصّوم، فهو يُضعف القوى الحيّة في بلد ما، ويخصي ويُتعب العمّال الذين يجب أن يتمتّعوا بكلّ مواردهم وكلّ قواهم لتنشيط الماكينة الاجتماعيّة، والعمل في الحقول أو المصانع. كيف يمكن تصوّر ازدهار أمة إذا كانت القوى الحيّة التي تشكّلها جائعة.

كذلك الصّدقة، فهي تمنع العدل. تلك الفضيلة المسيحيّة تكرّس النّظام الاجتماعيّ: الفقراء من جهة والأغنياء من جهة أخرى. النّظام الاجتماعيّ أراده الرّبّ، لأنّ كلّ شيء من مأتاه، يقول القدّيس

بولس. من حين إلى آخر، يعطي الغنيّ للفقير، ليكفر قليلاً عن ذنوبه، أو يفوز بنصيب من الجنة، ولكن مرة من بين فرص كثيرة وحسب رغبته. أمّا العدل فيشترط أن يعود لكلّ شخص ما ندين به له. والمجتمع مدين كثيراً للفقراء.

نفس الشيء بالنسبة إلى الرجاء: حين نؤجل إلى الغد أمراً عادلاً لا يأتي أبداً، وحين نؤجل إلى آخره متخيلة فرضية حياة سعيدة لطيفة، فنحن نمنع سيادة عدالة البشر في الدنيا. نحظر كلّ مطالبة اجتماعية، ونمنع كلّ تقدّم سياسيّ، ونكرّس الأمر الواقع. العوالم الأخرى الباسمة التي يبيعها الكهنة تقتل إمكانية عالم سعيد هنا والآن.

كلمة أيضاً عن الأخلاق الجنسية، ولا سيما عن العذرة، والتّرويج للدعّة أو التّبّتل، ومثلها من الدّعوات اللّبقة التي سوف تحدّ من الحضور البشريّ لو تطبّق بحذافيرها، ثمّ تمحو الأحياء تماماً من وجه الأرض. والحال أنّ التّكاثر السّكانيّ الذي يسمح بتجدّد القوى الحيّة لبلد من البلدان أمر ضروريّ لقيام ازدهار اقتصاديّ، كشرط أساس لتحقيق سعادة الشعوب.

ثمّ يهاجم دولباك ذلك الخلق المسيحيّ عن عدم العنف الذي يفرض محبة العدو، والصّفح عن الغير، وإدارة الخدّ الآخر، ويحظر حرفة السّلاح ويجعل بذلك السّيادة الوطنيّة زائلة. بلا جنود ولا شرطة ولا جيش، وهلفتيوس يرى الشّيء نفسه، تضع البلاد نفسها تحت إمرة الأشدّ عنفاً، والأكثر عجرفة، ولن يلبث قانون الغاب أن يسود. الأمّة التي تتبنّى هذا المبدأ يتمّ التهامها بسرعة ثمّ هضمها...

ختامًا، التّقد المسيحيّ للعال، ومديح الفقر والعري، والدّعوة إلى تخلص الإنسان من كلّ خيراته، ذلك كلّه إيثيقا يمارسها المنصتون إلى يسوع، العراة من كلّ شيء، الذين يوعظون بامتياز وضعهم البائس! ولكن هنا أيضًا، لو نجعل تلك الحكمة كونيّة، ويعدل كلّ واحد عن التّمكّك، فما الذي يحدث؟ عودة إلى الوضع الطّبيعيّ حيث ينتهي كلّ واحد إلى العيش مثل حيوان...

كلّ تلك المقترحات غير منتجة اجتماعيًّا، فهي تعمّم الفقر، فيما النبلاء والقصر والملك وبطانته، وأهل الكنيسة أيضًا، وفي مقدّمهم الرّهبان، يسخرون من تلك الدّروس المسيحيّة التي تُلقن للغير، ويعيشون عيشة بذخ وفسق ونفقات كماليّة. كيل بمكيالين: أخلاق زهد للسّواد الأعظم من الرّعايا الخاضعين، ولاخُلقيّة متبجّحة للواعظين بفضائل مسيحيّة، ذلك هو ما يفسّر حالة البؤس في تلك الفترة.

حلّ هذا المشكل، يبدو الحلّ سهلًا: الجهل بقوانين الطّبيعة هو سبب ابتداء الرّبّ، ثمّ الدّين، وخاصّة في شكله الكاثوليكيّ؛ ولذلك فإنّ المعرفة بقوانين الطّبيعة سوف تُنتج تقويض الرّبّ، والدّين، بما في ذلك شكلها المسيحيّ. إنّ تفكيك النّصرانيّة، كطور أوّل في البنيان الدّولباكيّ، يشفعه طور ثانٍ هو تهيئة مادّيّة الحاديّة.

12

حقيقة المادّيّة. يقترح نظام الطّبيعة العرض الأكثر اكتمالًا للنّظريّة المادّيّة في القرن الثّامن عشر. من تشكّل المادّة إلى حركة الكواكب،

من الصّغر غير المحدود إلى الكبر غير المحدود، من الجهد (nisus) النّاشط في البلّورات إلى وهن (collapsus) الهزّات الأرضيّة، مروراً بالضرورة التي تقود العالم، نفي حرّية الاختيار وعواقبها، كلّ تطوّرات «النّظام الحتميّ» موجود فيه، بما في ذلك التّناقضات المحتملة، وحتىّ إخراجات⁽¹⁷¹⁾ مثل هذا الاقتراح.

الاقتراح الأساس: لا توجد غير الطّبيعة، ولا يوجد شيء خارجها، وهي مادّيّة. ومن ثمّ لا وجود لأيّ إمكانيّة خارقة في ما وراء الطّبيعة. لا يستعيد دولباك الذّريّة الإواليّة الأبيقوريّة، فلا وجود عنده لأيّ انحراف في الذّرات، ولا نظريّة شعريّة لتناسق الهباءات، بل ميزة طاقية: المادّة تملك حركتها في ذاتها، وانتحائها الطّبيعيّ يتمثّل في المواظبة في كيانها. للدّلالة على قوّة الكائن في الكائن تلك، يلجأ الفيلسوف إلى مصطلح «نيزوس».

في بحث في الإدراك البشريّ لديفيد هيوم، يميّز هذا المصطلح الجهد العضليّ الذي نعيه، ويحيل الاشتقاق على «الاتّكاء»، و«الحركة بعد الجهد». تلك الطّاقة، لا يمكن أن نعرفها أو نتخيّلها بل نعاينها فقط. ودولباك يضيف على المصطلح مفهومه المادّيّ. في نظام الطّبيعة (I، فصل 2)، يتحدّد الـ«نيزوس» بالجهود المتواصلة التي تقوم بها أجسام على أجسام أخرى تبدو أنّها تتمتع بالرّاحة. نوع من الحركة البراونيّة⁽¹⁷²⁾ الخفيّة، المولّدة لكيان المادّة.

(171) Apories: الإخراج فلسفيّ هو وضع رأيين متعارضين حول مسألة معيّنة، لكلّ منهما حجّته.

(172) نسبة إلى عالم النّباتات والطّبيب الجراح والمستكشف الأسكتلندي روبرت براون

ذلك الـ «نيزوس» يسمح إذن بكيان المادّة، وتطوُّرها وتحركّاتها وأشكالها وتنسيقاتها وتوليفاتها. كيان المعدن وكيان النّبت أو الحيوان أو الإنسان تخرقها كلّها تلك القوّة التي تسبّب تجانّساً في اتّزان الطّبيعة: أن تحافظ على ثبات داخليّ. سبب ما هو كائن ولا يوجد إذن في مكان آخر، في الخارج، ولا في خارق سببٍ غير مُسبّب، بل في الدّاخل، في قلب المادّة. الميتافيزيقا وعلم اللاهوت يتركان مكانها للعلوم التّجريبية.

المادّة موجودة منذ الأزل، لم تُخلق قطّ، فهي خالدة، أبدية وفي حركة دائمة. وبوصفها ذاك، توجد في الزّمن، ولكنّ جوهرها يظلّ منيعاً، يتعذّر بلوغه. أمّا تنسيقاتها وأشكالها فهي تخضع لمتغيّرات، فالمادّة تعيش ولكن تنسيقاتها تموت. ذلك القانون ينطبق أيضاً على البشر، لأنّهم ليسوا ذروة الطّبيعة أو تتويجها، بل شظايا منها. إنّ قراءة العالم التي قام بها دولباك مثوليّة بشكل راديكاليّ، تتحاشى كلّ تسام.

وحدة الوجود المادّيّ تقوم إذن على مادّة واحدة محوِّرة بشكل مختلف. الرّوح موجودة طبعاً، ولكن ليست كما يتخيّلها الأفلاطونيّون والمسيحيّون ماهية لاماديّة، أبدية، غير حسّية، خالدة. فمؤلّف نظام الطّبيعة يناقض «الروايات الميتافيزيقية للاينتنس وديكارت ومالبرانش» ويسمّي جزءاً من الجسد «روحاً». دليله أنّ كلّ ما يصيب الجسد يصيب الرّوح، كذلك الشّأن عند السّكر

Robert Brown (1773-1858). وتعني حركة عشوائية لجزيئات داخل سائل أو غاز يُحدثها اصطدام تلك الجزيئات في ما بينها، فتغيّر كل جزيئة مصدومة اتّجاهها بسرعة.

ودولباك يعطي الدماغ دوراً رئيسياً: «ذلك الحشا هو المقرّ الحقيقيّ للشّعور». انطلاقاً من آثار غير مفهومة تصدر عن الدماغ (الأفكار، الفكر، المفهوم، التأمل، إلخ.) يستنتج بعضهم أنّ الرّوح لامادّية، لا يمكن الإمساك بها. والجهل بالسّببية العصبيّة يفسّر خلق روح مستقلة مضادة للمادّة. في الجهل الذي يوجد فيه العلم في فترة آليات الإنسان العصبيّة، لا يستطيع دولباك أن يعبر أفضل ولا أكثر من ذلك.

هذا ما قاله الفيلسوف: الدماغ، كحشا، هو مقرّ الأحاسيس والإدراكات المنظّمة، أي هو مقرّ الفكر؛ وأمّا اللمس والذّوق والشمّ والبصر والسمع والتأمّل والتذكّر والتخيّل والحكم والإرادة فهي تحويراته؛ فهو مادّة حصرياً؛ فيه تحدّد طبيعة التنسيق الإنسان أو الحيوان، الذكاء أو الغباء؛ واستعماله في التأمّل إن قليلاً أم كثيراً يحدّد حجمه. فلا وجود لفكرة فطريّة، إذ كيف نجد شيئاً سابقاً لكلّ معلومة متأتية من الخارج؟

13

رغبة الانتشاء والحاجة إلى المحافظة على الصّحة. البشر، بوصفهم شظايا خالصة من الطّبيعة، يخضعون للقانونين المنظّمين لكلّ الأكبر. أولهما: كلّ إنسان يحبّ المتعة ويسعى للهرب من الكدر؛ وهو ما يقوده إلى إشباع رغباته، وإلى المصلحة. وثانيهما: كلّ ما هو موجود، بما في ذلك البشر إذن، يميلون إلى الاستمرار في كيانه؛

الحركة الوحيدة تتمثل في تمديد كيانه وإدامته. عندئذ يصمد كل واحد أمام ما يجتري وجوده ويهدده. رغبة الانتشاء والحاجة إلى المحافظة على الصّحة هما مبدأ الآلة الإنسانية.

ذانك إذن قانونا الطّبيعة، مثل موادّ صالحة لبناء أخلاق. لا حاجة لأسس تيولوجيّة وجدران دينيّة لتشييد بناء أخلاقيّ. الخرافات المسيحيّة تفترض جسداً منفصلاً عن الرّوح، كماهيتين لا انتقاص منهما، ووجودَ عالم خارق وقوانين صادرة عن الرّب؛ أمّا الأخلاق الطّبيعيّة فتبنّي جسداً مادّيّاً، ووحدة طاقية، وواقعاً يقبل الحسّ، وقوانين مثوليّة ناتجة عن الملاحظة السيكلولوجيّة والاجتماعيّة والأنثروبولوجيّة.

الـ «نيزوس» يرغم على منطق: كلّ شيء ينجم عن سبب، ولا يمكن لظاهرة، بوصفها أثراً، أن تأتي دون سبب يمكن للذكاء أن يعزله ويدركه ويفهمه. الضّرورة تسود كليّاً. حرّية الاختيار وهم، خرافة. الحتميّة تنتصر. التّغير الدّائم، التّنسيق الجديد، وتلك الاستمراريّة تؤدّي إلى حركة العالم وأحداث مفردة.

ما نحن فيه رهين طبع يفسّره علم الوراثة، والآباء والأمّهات، والحياة داخل الرّحم، والرّبيّة، والتّدريبات، والغذاء، والهواء، والطقس، والمؤثّرات المختلفة، والمربّون. كلّ واحد ينبثق من بنى عاطفيّة، حسّيّة، ذهنيّة، فكريّة، مفهوميّة، بنيويّة. كلّ شيء مترابط في الكون: حركة صغيرة هنا تولّد كارثة فادحة هناك. يوجد العالم في محصّلة دائمة من مسبّات نعرف قلة منها ونجهل أكثرها.

لا وجود في الطبيعة لفوضى أو نظام، كل شيء ينبغي أن يتم. ما يحدث لا يمكن ألا يحدث. الإنسان يظن أنه حرّ في التصرف على هواه، والتفكير في ما يريد، وفعل ما يروقه، والحال أن الأمور ليست كذلك، ففكره وفعله ناجمان عن أسباب سابقة تفضي إلى نمط ما من الأفكار أو الفعل بدل نمط آخر. «نحن نتصرف بالضرورة». تسلسل كل شيء في الطبيعة يحوي الإنسان وحياته وأثره. ودولباك يسمي هذه الرؤية التراجيديّة للعالم «النظام القدري».

14

نظرية البواعث. إن كنا لا نختار، فكيف تجري الأمور؟ حسب نظرية تسمى **نظرية البواعث**، في دماغ الفرد ينصبّ عدد معيّن منها في شكل اقتراحات أفكار أو أفعال متناقضة: افعل كذا أو كذا أو سواه، فكّر في كذا أو كذا أو غيره. مبدئيًا، تبدو تلك الاقتراحات متعادلة. حسب نظريات الطبيعة، يكون الباعث قادرًا على إنتاج الرضا الأتمّ أو التسبّب في الاستياء الأقلّ أهميّة؛ ذلك الذي يعطي أكثر متعة أو أقلّ كدر يصبح هو الرّاجح ويحدّد الفكرة أو الفعل. أمّا البواعث الأخرى فتختفي... عندما يتعارض باعثن متعادلان في القوى المتماثلة والدفع المتساوية القوة، نجد أنفسنا في موقف الفرد الذي يترّوى قبل اتخاذ القرار. في نهاية المناظرة، يتفوّق أحد الباعثين. الشكّ هو أن يجرب المرء في ذاته عمل البواعث.

كي نكون أحرارًا، لا بدّ أن نختار بلا باعث. وهذا أمر غير مقبول في تصوّر المادّي للبارون. الرغبة في كلّ مكان، تريدنا، ولا نستطيع

أن نتصدى لقوتها أو نقاوم بأسها. لا نتحكم فيها، بل هي التي تتحكم فينا. الضرورة، الحتمية، القدرة، هي ثلاث كفاءات لتسمية القانون الطيعي الذي لا يسلم منه أحد.

يعترف دولباك بأنه يجهل تفاصيل آليات الضرورة. المسببات مسيطرة لا محالة، ولكن أيها؟ متى؟ لماذا؟ لا ندري. بل لا ندري سوى القليل. لماذا الزاهد الفاضل والخليع القاتل؟ ما الذي يبرر وجود بارون يهذب الأخلاق وماركيز سادي؟ نظام الطبيعة يبرز «أسباباً صغيرة»، يُطلق عليها «الذرات» أو «الأسباب اللاحسية» و«الظروف الهاربة» و«الحواجز الهيئة» وغيرها من المسببات الدقيقة المنتجة للآثار الهامة.

ولكن خير للمرء أن يعترف بجهله، بكل تواضع مادوي، عوض أن يقدم شروحا سحرية ناتجة عن كبرياء المؤمنين. الجنون المسعور ليس إرادة الرب، الغامضة والمؤكدّة، بل هو كامن في اضطراب الدماغ، وخلل في الأمزجة، وحادث في المادة. ماهي؟ في وضع تقدّم العلم، لا يوجد استخلاص ممكن، والإقرار بحدود العقل أفضل من التفكير الأخرق.

دولباك يعرف أنّ حرّية الاختيار بدعة مسيحية غايتها جعل الإنسان مسؤولاً، وبالتالي قابلاً للمحاسبة عن كلّ أفعاله، خيراً كانت أم شراً. ولا يفوته أنّ الإنسان الذي يتمتّع بحرّيته، ينبغي أن يكون قادراً على تقديم مبرراته لمن يسألونه عن الأسباب التي جعلته يختار الرذيلة على الفضيلة، والجريمة على اللين. وبذلك يُبرّر حكم

أرضيَّ أو سماويَّ، بالسَّجن أو قطع الرَّأس، بحياة خالدة أو لعنة إلى آخر الأزمنة. النِّظام القدريَّ (المادِّي) يناقض راديكاليًّا النظريَّة (المسيحيَّة) عن المسؤوليَّة.

ومع ذلك، نقرأ في نظام الطَّبيعة، وكذلك في المؤلَّفات السياسيَّة مثل الإيثوقراطيَّة، دفاعًا عن العقاب، ومديحًا للجزاء، وتبريرًا لمبدأ قرار العدالة، ويذهب حتَّى إلى التأييد الفلسفيَّ لعقوبة الإعدام... لا أحد يختار أن يكون ضحيَّة أو جلاَّدًا، لا أحد أراد الرَّذيلة بدل الفضيلة، الجميع يخضعون لقوانين الطَّبيعة والضَّرورة التي تجعل من كلِّ فرد قديسًا أو مجرمًا، فالفضيلة الدولباكيَّة والرَّذيلة السَّاديَّة تنشأ من لعبة عمياء من البواعث، والمسبَّبات المظلمة لا ترتبط بخراقة حرِّيَّة الاختيار، ورغم ذلك، يبرِّر دولباك قتل إنسان؟...

15

الاستباعيَّة والنَّفعية. ينقل دولباك قوانين الطَّبيعة الصَّالحة للإنسان إلى المجتمع كافَّة، وبذلك نمِرّ من الإيثيقا إلى السِّياسة: فالسِّياسة والإيثيقا ليستا عالَمين منفصلين، بل هما كيفيَّتان للعناية بنفس العالم. القانون الذي يريد أن نواظب في كيانه ونهدف إلى أقصى ارتياح ممكن، ينطبق على الفرد لا محالة، ولكنّه ينطبق أيضًا على المجتمع الذي يسعى إلى وجوده ودوامه بطريقة متعيَّة.

بيد أن رفاه أكبر عدد ممكن يفوق رفاه شخص واحد. تلك قاعدة سياسيَّة تسمح بحلِّ مشكلة الخير والشرِّ في الميدان المشترك للخاصِّ والكونيِّ. تانك الهيَّتان لا توجدان كصنمين كبيرين في مطلق سماء

الأفكار الأفلاطونية. الرّب لا يضع القيم وهو يقرّر بصفة نهائية، وعشوائية، أن هذا الشيء خير والشيء الآخر شرّ. مثال.

الحياة الجنسيّة؟ شيء سيّئ في حدّ ذاته، يقول المسيحيّون. يردّ دولباك: كلّاً، ليست في حدّ ذاتها، بل حسب الوضع: جنس من مع من؟ متى؟ لأيّ سبب؟ حسب أيّ مشروع؟ ووفق أيّ عقد؟ لنُجب أولاً عن هذه السلسلة من الأسئلة ثم نقرّر النسبة الإيثقيّة. دولباك يضع أسس الاستبعاية: خير وشرّ، جمال وقبح، فضيلة ورذيلة، عادل وظالم لا تقال في المطلق، بل بحسب الظرف، ولا سيّما العواقب المترتبة عن المنفعة الفرديّة أو الجماعيّة. النّافع هو ما يتيح الكينونة والدوام والرّضا بأن نكون.

لنعدّ إذن إلى مسألة عقوبة الإعدام. المجرم يستجيب لبواعث تحدّد جرمه؛ فهو خاضع للضرورة؛ وأسباب عديدة تقوده ذات يوم إلى ارتكاب حركة القتل - أبوان منحرفان، فترة عنيفة، تربية مختلّة، طفولة بائسة، نفسيّة معتوهة، و«أسباب صغيرة» أخرى يشير إليها الفيلسوف نظريّاً.

من ثمّ، يمكن أن نستخلص مسؤوليّة أب أو أمّ أو مربّ، أو معلّم، أو ناشط اجتماعيّ هامّ - راهب، جابي ضرائب، أمير، ملك، إلخ. ثمّ نعاقب ذلك الوغد. المجرم، كلعبة للحوافز الهيّنة أو «الظّروف الهاربة» من المفروض ألاّ يخضع لسيف الجلّاد. أمّا زمرة النّاس الذين كان بإمكانهم أن يجنّبوا تلك السلسلة من المسبّبات التي أدّت إلى الضّرر فينبغي أن تُحاسَب أمام الجلّاد. وبالرّغم من ذلك يشرّع

دولباك عقوبة إعدام المجرم...

استنادًا إلى أيّ مقاييس؟ المنفعة الاجتماعية. لا بدّ من وجود الثواب والعقاب في المجتمع كي يعلم الجميع أنّنا نعتزّ بجميل خادم الأُمّة والوطن، وفي الوقت ذاته نعيّب على الآخر سرقة وآثامه وجريمته وأعماله الخسيسة التي تضرّ بكيان المجتمع وديمومته وسعادته في الآن نفسه. فأما الأوّل فيساهم بأثرته في دوام المجتمع وتميّزه؛ وأما الثاني، فيحطّم بآثامه البنيان المجتمعيّ.

16

ضدّ عقوبة الإعدام، إلّا إذا... بناء عليه، اقترح دولباك في الإيتوقراطية نظريّة عقوبات عنيفة نوعًا ما. صحيح أنّ البارون، بوصفه صديقًا لبيكاريا - الذي ألف عام 1764 الرّسالة الرّائعة جرائم وعقوبات -، كان يرفض التّعذيب - بعكس ديدرو... -، وينكر نظريًا المعاملات اللاإنسانيّة المهينة، ويمنع العذاب وشده العقوبات، ولكنه يناقض نفسه بعد بضعة أسطر...

من ذلك مثلاً أنّه يدافع عن الأشغال الشاقّة، المضنية والخطيرة. لماذا نحرم أنفسنا من إمكانيّة منفعة اجتماعيّة من الجانح بالحكم عليه بالسّجن مدى الحياة؟ لا حاجة للعناية بالعاطل بين جدران أربعة - فالسّجن يكلّف المجموعة... -، إن كان باستطاعتنا تشغيله في المواقع الأكثر عرضة وخطورة في حظيرة حيث تُمدّد الطّرقات وتُحفر القنوات، وتُجعل المجاري المائيّة صالحة للسّفن، هناك حيث يبدو البارون سخيًّا كريماً يُشغّل الفقراء، العاطلين بالفعل، وبالتالي

مرتكبي جنح محتملين...

وسواء أكان البارون أفضل أم أسوأ، فهو يمرّ إلى سرعة أعلى ويسجّل ملاحظة لا تكاد ترى في أسفل صفحة من الفصل الثاني عشر من نفس الإيثوقراطية، ينوّع فيها إمكانيّات التعذيب المثيرة: قتل الملوك والوالدين والمسمّمون يمكن أن يخضعوا، على رؤوس الملاء، لسحق بكتلة من الحجارة، وخنقاً تعقبه تقطيع لأوصاله، إلخ. نتخيّل عنف النقاش مع بيكاريّا الذي كان يتردّد على صالونه...

ولكي نلطف قليلاً من عنف موقف الفيلسوف في هذا الموضوع، لتتوقّف عند جملة من نظام الطّبيعة (I، الفصل 12). كانت تستحقّ إفاضة أوسع، فقد تمرّ في تلافيف ستمائة صفحة دون أن ينتبه إليها القارئ... في تلك الجملة، يشير إلى أنّ للمجتمع الحقّ في العقاب إذا، فقط إذا وضع كلّ ما في وسعه لمنع أو تغيير البواعث التي تقود الفرد في العادة نحو الرّذيلة.

سذاجة؟ براءة طبع؟ سلامة نيّة؟ البارون يمكن أن يشكّ في أنّ المجتمع، بصرف النّظر عن كماله، لا يمكن أن يكون قد قام بأقصى ما يمكن من الوقاية التي تبرّر وتشرّع قمعاً مماثلاً... تبرير عقوبة الإعدام تُدخل شيطان حرّيّة الاختيار من النّافذة في الوقت الذي خال الفيلسوف أنّه طردها من الباب... سيف الجلاد يركّز على نوع من انحراف ذرّات نادر الوجود في روح الأنوار!

17

انحراف ذرّات ربّانيّ. في الواقع، ذلك التأكيد الميتافيزيقيّ بأنّ

الضرورة تنظم سيرورة العالم، وأنّ الحتمية تبسط هيمنها، وأنّ البشر لا يتمتعون بحرية الاختيار، وأنّ أعمالهم صادرة عن بواعث تحوّلهم إلى دمي متحركة بين يدي القدرية، وأنّ البشر، في الوقت ذاته، يمكن أن يُثابوا أو يعاقبوا عن أفعال خارجة عن إرادتهم، فقط لأنّ تلك التصرّفات تقوّي أو تضعف البنيان الاجتماعيّ، فتلك مفارقة غريبة. وحجّة المنفعة تلك هي انحراف ذرّات ربّانيّ غريب!

البارون طبعاً ليس غيباً، إذ يتوقّع الهجوم ويُعدّ الرّد. غير أنّ الرّد ضعيف. لنقرأ: «مع أنّي لا أجهل أن من طبيعة النّار أن تحترق، فلا أحسبني مستعدّاً لاستعمال كلّ جهودي لإطفاء حريق». بعبارة أخرى: كلّ شيء ضروريّ، حتّى رغبة جعل الضروريّ أقلّ ضرورة. أو: الحتمية تتحكّم في كلّ شيء، بما في ذلك مقاومة الحتمية. هل الحجّة مقنعة؟

نخطئ دائماً حين نفكر بطريقة القياس ونستدعي الحريق في حين أنّ مثلاً أكثر دقة قد يكون الأنسب - جريمة قتل مستمّدة من تغطية حقيقة لحوادث المجتمع مثلاً. فلو توقّفنا عند هذه الاستعارة، لوجدنا أنّها تفترض ناراً (مجازية) ورجل مطافئ (فلسفيّ) وظاهرة (فيزيائية) وحكماً (ميتافيزيقياً)، أي هيئتين متنافرتين تماماً في كلّ مرّة! والحال أنّ المجرم وقاضيه من نفس الميدان - هيئتان متجانستان... -، ونفس الخضوع لنفس الضرورة العمياء المنفصلة عن كلّ خلق.

دولباك يخلّ فيما يتعثّر جميع الفلاسفة المؤكّدين للسلطة الشاملة

للضرورة - من بينهم الرواقيون، وسبينوزا، ثم شوبنهاور فيما بعد، المدور الأكبر لنظرية البواعث، نيتشه المستهلك لشوبنهاور، إلخ... - كيف يمكن لي، إن لم يكن لي حرية الاختيار، أن أكون رواقياً بدل أن أكون سبينوزياً وشوبنهاورياً لا نيتشويّاً؟ إن لم يكمل لي الخيار، هل يمكن أن أصبح نصير هذا بدل الآخر؟ عودة إلى دولباك: إن كنت خاضعاً تماماً لسيطرة الضرورة، فكيف أتصرف للكفّ عن نصرانيتي وأنا مؤمن (أسوق هذا المثال عرضاً)...

من ذلك ما نقرؤه في نظام الطبيعة: حياة البشر هي «سلسلة متتالية لحركات ضرورية» (I، الفصل 6) وفي مكان لاحق: «كل واحد منا يمكن أن يكون جبلّته» (I، الفصل 9). فهل الإنسان ليس حرّاً في أن يكون غير ما هو، ويكون حرّاً في أن يكون آخر؟ لتجنّب الانغلاق المعهود الذي تسببه راديكالية موقف ميتافيزيقي حتمي خالص، يعيد دولباك إدخال انحراف ذرّاته، مسلمة خالص للعقل العمليّ يمكن أن نترجمها كما يلي: نحن حتميّون في كلّ شيء، باستثناء ما يخرج عن الحتمية. يعني؟

يقدم البارون بمهارة طريقة استعمال لذلك الطبع يمكن أن يجربها كلّ فرد. يكفي أن نتدخل في البواعث التي تكفّ فجأة عن أن تكون شديدة القوة. فما الذي يمكن أن يعرقل باعثاً قوياً غير باعث أقوى؟ ولكن من أين يأتي؟ من ذكاء، من عقل، من ملكة إدراك تصبح فعلاً أكثر قوة من الباعث الأول. دولباك يطرح قوة عقل مسير كما ينبغي كباعث قادر على إبطال بواعث أخرى. لنقل ذلك بعبارة أخرى:

يعمل العقل عمل ترياق ضدّ الحتميّة، التي تكفّ عندئذ عن أن تكون بالراديكاليّة التي توهم بها مئات الصّيغ في الأعمال الكاملة. ولكن لماذا لم يعبّر عن ذلك بوضوح في صيغة واحدة بعد أكثر من ستّة آلاف صفحة؟ في غياب توسّع أكثر دقّة، كان مثل ذلك الاحتياط كفيلاً بتجاوز التناقض ورفع الإحراج.

التدخّل في الأسباب يفترض أنّنا نعرف الطّبيعة و«نصحّحها» - والعبرة للبارون. البواعث تتدخّل إذن، ولكن يمكن التّدخل فيها أيضاً. خبر سارّ، وإلّا فما من فلسفة ممكنة باعتبار أنّ أيّ فلسفة تقترح دائماً وجوب كينونة كعلاج لكينونة. الكينونة المثاليّة والروحانيّة والمسيحيّة والتأليهيّة ولكن الكينونة المملّكيّة أيضاً، تلك كمّيّة من البواعث القابلة للتّصحّيح. الحتميّة، أي نعم، القدريّة لا محالة، الضّرورة، بالتأكيد، ولكنّ المادّيّة النّفعيّة، وفلسفة السّعادة الاجتماعيّة والإلحاد الفاضل تقدّم بواعث جديدة!

18

طريقة استعمال طبع. فهمنا أنّ الضّرورة تنتصر، ولكن لنقل ذلك في صيغة أبيقوريّة، لا توجد أيّ ضرورة للاستسلام للضّرورة إن كان بوسعنا التحرّر منها... بالفعل، يمكن أن نتحرّر منها قليلاً عن طريق التّربية والعادة والإرغام والقوانين. هناك حيث نجد مسلّمة الأنوار: الثّقة في الرّكائز السّياسيّة (بالمعنى النّبيل للكلمة: علوم المدينة وفنونها) لتغيير العالم بشكل جذريّ.

الطّور الثّالث إذن: سياسة سعادة. البشر بطبيعتهم ليسوا أخياراً أو

أشرازاً، فضلاء أو أزدال. ثم يغدون كذلك ثقافياً، حسب مقاييس إيثقية موضوعة في المنطلق. الأخلاق التولوجية تقدم ناسها، ونحن نعرفهم، ومصدرها الوصايا العشر، فيما الأخلاق الطيعية تقترح أشياء أخرى بطبيعة الحال ترتكز على منفعة فلسفة السعادة للفرد والمنفعة الاجتماعية للمجموعة. ولئن وجدت بالفعل حتمية بيولوجية، وضرورة فيزيولوجية، فهي أيضاً حتمية اجتماعية. دولباك لا يفرق بوضوح بين السجلين، رغم أن ذلك كان يمكن أن يساهم في توضيح كلامه.

سجل المجتمع يحدد مجال السياسة بوضوح أكبر. ونظام الطيعية يحتوي على فقرات سياسية واضحة، لأن البارون لا يفرق بجلاء بين العالمين. في الأسطر الافتتاحية لكتاب الإيثوقراطية، يدافع عن الفكرة التي مفادها أن الإيثيقا والسياسة تتمازجان. فتكوين الفرد هو تكوين المجتمع، والعكس صحيح. تربية الفرد وتعليمه يساهمان في بناء المجموعة. المدرسة تتدخل في شكل خلية قاعدية للدولة، والمعلم يحرك أول دولاب في الماكينة الجماعية.

وما دام الفرد يريد سعادته، فإن على المجتمع أن يهدف إلى نفس الغاية. سعادة الجميع؛ وفي الأقل سعادة أكبر قدر ممكن. والملك العارف بالسياسة ليس إذن القوة والغزو والإمبراطورية والهيمنة والاستعمار وإخضاع الرعايا، واستعباد المواطنين، بل السلم والازدهار وسعادة الأفراد في أن يكونوا معاً، والحرية والمساواة والملكية والأمن. إن المادية (الفلسفية) تفضي إلى متعة (إيثقية)

تتبعها فلسفة سعادة (سياسية).

وما دام الدماغ يمثل الوحدة القاعدية للذاتية، ويعتبر حشا المشاعر، وبالتالي الفكر، وسلوكيات مستقرة، فإن السياسة الجديرة بهذا الاسم تبدأ باقتراح «تربية قومية» والدفاع عنها وجعلها بين أيدي مربين لا يدرسون خرافات الديانة المسيحية، بل حقائق الفلسفة الطبيعية. بإخصاب الدماغ بمبادئ حقيقية، وإنارة الذكاء بقوانين عادلة، وتهيئة الوعي بقوانين جيدة، نخلق عادات، ونتدخل في البواعث ببواعث جديدة تدفع الأفراد إلى الرغبة في سعادتهم بدل تعاستهم، وبالتالي خلق مجتمعات تجعل نفسها مشرقة لا بائسة.

لا بد إذن أن ننير الشعب، والأمير أيضًا. لا يدعو دولباك إلى الثورة عن طريق الأسلحة وإلغاء الملكية ولا التهجّم على الأفراد، بل هو مثل صديقه هلفتيوس مصلح راديكالي. بالمعنى الماركسي للكلمة، يريد أن يغير الأشياء بعمق، بتحويلها من الجذر. تعليم أكبر قدر، بطبيعة الحال، ولكن أيضًا الملك المقبل أو الملك الذي بصدد ممارسة السلطة. إرسال الإيثوقراطية إلى لويس السادس عشر يشهد على ذلك. فدولباك يؤمن بملكية مستنيرة، وملك يتوق إلى سعادة رعاياه، ويرغب في ازدهار مملكته.

19

مبادئ حكومة فاضلة. القوانين الجيدة تخلق أفرادًا جيدين؛ والأفراد الجيّدون يخلقون قوانين جيّدة؛ وقوانين جيّدة وأفراد جيّدون يخلقون مجتمعًا جيّدًا. لا بدّ للملك أن يوقّع عقدًا أخلاقيًا مع

كلّ رعاياه. والقانون يحكم الملك الذي ينبغي أن يخضع له، لأنّه أداة القوانين الطّبيعيّة التي تفرض كينونة المجموعة الوطنيّة وديمومتها وصفاها، ويستمدّ شرعيّته الوحيدة من ذلك العقد مع القانون الطّبيعيّ. يتحرّك في حدّ مشترك بين قوانين الطّبيعة وشعبه، ويترجمها لأجله. الملك ينبغي أن يحبّ شعبه.

عندما نشر البارون كتاب الإيثوقراطية (1776)، كان البلاط يسوس البلاد بدسائسه وانتزاعه أملاكاً عامّة، وجهله بالصّالح العامّ، وحرصه اللّا أخلاقي على إثراء طبقته. وكانت النّبالة متكبرّة، معجبة بنفسها، تستنزف القرويين بقانون الصّيد وعدد هامّ من المكوس والضرائب. تعيش في بذخ مقيت، حيث تثري حفنة من النّبلاء على حساب تفكير بقيّة المجتمع. لا بدّ أن يتجاهل الملك تلك القلّة القليلة من رعاياه ويستعيد وجهة الشعب.

لأجل ذلك، ينبغي أن يختار من خارج النّبالة ممثلين عن الشعب، شرفاء، ذوي خلق، مستنيرين، يدفعهم الصّالح العامّ، ويشكّل «مجلس ممثلي الأُمّة» باستطاعته أن يجتمع بمعزل عن الملك. هذا المجلس يسنّ القوانين ويناقشها ويعدّها ويطلّها، مستفيداً ممّا تلقّاه من دروس النّفعيّة والسّعادة في الفلسفة المادّيّة. عندئذ يتقمّص الملك اسم الحقّ الطّبيعيّ.

عندئذ تصبح الأُمّة وليست نزوة الملك أو رغبته هي التي تقرّر الحروب الواجب خوضها لصالح رعاياه وحده، أي لمناعة المجموعة الوطنيّة، وليس للغزو أو توسّع الإمبراطوريّة. هي التي

تحدّد الضرائب وترصد النفقات العامّة الضّروريّة. هذا المجلس يمثل القوى الحيّة للشّعب، الذي يملك من جهته حقّ عزل ممثّليه في حالة إبطال عقد التّمثيل أو خيانة ثقته.

القوانين تحدّد الحرّيّة والملكيّة والأمن. حرّيّة المبادرة والنّشر والكتابة والسّخرية والهجاء وفلاحة الأرض وممارسة التّجارة؛ الملكيّة لأكبر قدر ممكن: حصر الثّروات بين أيدي قلة ينبغي أن يترك مكانه لتوزيع أكثر عدلًا؛ لهذا الغرض، يتمنّى البارون نهاية الأملاك الكبرى للأراضي وإعادة تقسيمها في شكل مزارع صغيرة حتّى تسمح بحياة كريمة للسّواد الأعظم.

لا يدعو دولباك إلى الشّيوعيّة والاشتراكيّة وتشجيع الممتلكات أو الأراضي، على غرار ميلبيه أو موريلي، ولا يتمنّى مساواة راديكاليّة، بل يدافع عن تفاوت طبيعيّ، دون شطط، صالح للمنافسة والمزاحمة والرّغبة في الإثراء، وكلّها محرّكات للبراليّة والفيزيوقراطيّين، وهو واحد منهم؛ وأخيرًا الأمن؛ حتّى يستطيع كلّ واحد أن يتمتّع دون خشية أو جزع بذاته وشخصه وممتلكاته.

ودولباك، الصّارم مع التّباله، يتمنّى أن تتحمّل نصيبها من المكوس والضرائب، ذلك أنّ البارون، في اللّحظة التي يكتب فيها مشروعه «حكومة قائمة على الأخلاق»، عنوان فرعيّ لكتابه الإيثوقراطيّة، لاحظ أن الضرائب تسلّط على الأفراد الذين لا يملكون شيئًا وتتحاسى من يملكون كلّ شيء. هؤلاء يتمرّغون في البذخ والمال والفراغ والبطالة والأبهة والوفرة، فيما أولئك يعملون ويتعذّبون

ويعوزهم الخبز وحتى العمل في الغالب.

والمفروض أن يكون للنّبلاء حقوق أقلّ ممّا يلزمهم من واجبات. لاسيّما واجبات فعل الخير، أي خلق مواطن شغل، والمساهمة في ازدهار الأُمّة عن طريق التّجارة والزّراعة ودفع إتاوات عن البذخ، وتقاسم خيراتهم حتّى يضخّ مال المداخيل الجديدة في الماكنة الاجتماعية لفائدة الأكثر عوزًا؛ فالفقراء والعاطلون يعيشون في عالم لا يبقى لهم فيه سوى السرقة والنّهب أو الانحراف لضمان بقائهم. إنّ المساهمة في جهد العدل هذا من شأنه أن يخلق في الوقت ذاته السّلم الاجتماعيّة والسّعادة المشتركة، والمساواة العامّة والعدالة الجماعيّة.

20

أكل لحم الكاهن؟ القانون ينبغي أن يحدّد أيضًا حقوق الدّيانة السّائدة وواجباتها. كانت مرحلة دولباك الأولى مضادّة للمسيحيّة بشكل عنيف. والإيثوقراطيّة لا تقترح إضرام النّار في الكنائس واغتصاب الرّاهبات وصلب الكهنة، إذ لا نجد لديه دعوات إلى مغامرات عنيفة لإلغاء النّصرانيّة. بيد أنّ البراون يتمنّى معركة عادلة بين المتمسّكين بالأخلاق التّيولوجيّة وأنصار الأخلاق الطّبيعيّة، بين المتحمّسين للخارق وعشاق العقل، بين الخرافة والتّأمّل. سلاحه؟ الإقناع والخطابة والتّربية والتّعليم والفلسفة والبرهان والتّفكير السّليم.

لا يعني ذلك أن يكون متعصّب الإلحاد لأنّ التّعصّب سيّئ على

الدّوام. ولا حاجة لممارسة عدم التّسامح إزاء من لا يتسامحون مع من لا يفكّرون مثلهم. ولطالما كان يدعو إلى التّسامح: إن كنّا نعرف آليّة الطّبيعة، لا نتعالى على الضّرورة، ولا نغضب ممّا ليس منه بدّ، فنحن نعرف الأمر ونعرف أنّه كذلك بالضّرورة، ومن ثمّ، فالاعتراض عليه غير مجدٍ. ذلك أنّ الإلحاد والمادّيّة، والقدريّة والضّرورة هي في الواقع مدرسة تسامح. مكتبة سرّ من قرأ

خضوع الكهنة للسلطة المدنيّة كافٍ. ضدّ التّعصّب المسيحيّ وعدم التّسامح الدّينيّ، يطرح دولباك الأخلاق والفضيلة، الفلسفة وقوانين الطّبيعة. وعلى غرار تفكير جان ميليه، لا يمنع دولباك الرّهبان من الوجود، ولكن يطالبهم بأن يتحوّلوا إلى «معلّمي شبيبة»، «واعظين فضيلة»، أي فلاسفة يعلّمون قوانين الطّبيعة وما نرغمنا عليه. وكحبة كرز شبقية على تورتة نظام الزّوجيّة يناضل دولباك حتّى من أجل زواجهم.

في المقابل، سوف تُغلق الأديرة أبوابها، فما جدوى تلك الأماكن التي يعيش فيها الرّجال والنّساء متطفّلين، يغنمون من عمل الفقراء الخاضعين بالجباية والضّرائب، ويعيشون عيشة بذخ مريحة في نوع من القصور حيث الصّلاة، أي لا نشاط ولا جدوى اجتماعيّة، تقوم لديهم مقام حاجز واقٍ؟ ففي تلك الأماكن، تُحوّش النّساء لأسباب خارجة عن نطاق الدّين. سوف يعمل الكهنة ككلّ النّاس، ويساهمون في الثّروات الوطنيّة، وسوف توزّع ممتلكات الكنيسة، بعد مصادرتها، على أكثر أسر المملكة فقرًا. ماذا سيقول الدّستور

21

الملحد الفاضل. لنلاحظ إذن أنّ عالماً بلا ربّ ليس عالماً بلا فضيلةٍ وواجباتٍ واهتمامٍ بالآخر. بالعكس، فالإلحاد يقَدِّم، في مجال الأخلاق الفرديّة أو الإيثيقا الجماعيّة، قانوناً ثقافياً وفلسفياً جديداً لأجل بَيِّنْشخصيّة⁽¹⁷³⁾ متعيّة تعتنق فلسفة السّعادة. أمّا العالم بوجود ربّ فهو بالأحرى عالم عدم تسامح، وتعصّب، وحروب، وجرائم، ومحارق، ومحاكم تفتيش. والتّاريخ شاهد على ذلك منذ نحو ألفي سنة مسيحيّة...

يدين دولباك الخيانة الزّوجيّة، ويحظر في الإيثوقراطيّة اللّعب والأفراح والمآدب والعروض والمسرح والأوبرا والرّقص ويعتبر الفراغ مفسدة، ويهاجم خمول النّباله، فكيف يُعدّ إذن في تاريخ الأفكار مثال الرّذيلة، ووحشاً يبرّر أبشع الجرائم، ونموذجاً لانعدام الخلق؟ والجواب، لأنّه لم يُقرأ، والذين ينتقدون بشكل مسبقّ الإلحاد يربطونه في الحقيقة بغياب الخلق.

في حين أنّ إنكار الرّب لا يعني إنكار وجود الآخر. بل إنّ الإيمان بالرّب هو الذي يعفي النّاس في أغلب الأوقات من الإيمان بالإنسان! والدّعاة والمتعصّبون والمؤمنون بالخرافة، المهووسون بالرّب وبدينهم، يعتبرون الإنسان غير ذي قيمة. أمّا الملحد، فهو يعتدّ بتلك الثّروة، لأنّه يعرف أنّها الوحيدة...

(173) Intersubjectivité: حالة اتّصال بين شخصين.

الخير والشرّ المسيحيّان لا يحدّدان وحدهما الفضيلة والرّذيلة. والرّواية الكاثوليكيّة ليست هي الفريدة، فالأخيار والأشرار موجودون أيضًا عند النّفعيّ المدافع عن أخلاق متأصّلة، من خلال البشر، ولأجل البشر وسعادتهم الدنيويّة. فهو لا يركّز على العالم الغيبيّ وخرافاتهِ وليس له ما يدعوهِ إلى الكذب (على نفسه) بتلك الخرافات، لأنّ الملحد ينبغي أن يتحرّك هنا والآن لأجل جنّة في الدّنيا.

لاستحضار ثيمة الملحد الفاضل، العزيزة على قلب بيير بايل صاحب أفكار وهميّة، يبدأ دولباك بالسّؤال منّ الملحد؟ ذلك أنّ اللفظة غالبًا ما تستعمل، ومنذ مدّة طويلة، لإلصاق نعت خاطئ بمن يؤمن بالرّب، ولكن دون احترام للقواعد، أي بطريقة محرّفة أو هرطقيّة. الملحد هو «إنسان يحطّم أوهامًا مضرّة بالجنس البشريّ، ليعيد البشر إلى الطّبيعة والتّجربة والعقل». هكذا قيلت الأمور بشكل واضح. إذن، عبارة ملحد ليست شتيمة، بل هي نعت يسمّي كلّ عمل فلسفيّ جدير بهذا الاسم...

ومن ثمّ، يوجد ملحدون فضلاء، وملحدون أراذل بطبيعة الحال. ولكن أن يكون المرء هذا أو ذاك لا علاقة له بالإلحاد. ففي هذه القضية، تنجم الفضائل والرّذائل عن الطّبع، وهو ما يفترض، كما أسلفنا، تنسيقات في المادّة ومسبّبات شتّى، ولكن لا شيء ممّا يمكن أن يكون في صلة مباشرة بإنكار الرّب. وكما لا يوجد ملحد منذور للرّذيلة، فهذا الطّرف يفترض مقابله، لا يوجد مؤمن فاضل، وكأنّ

الإيمان يُكسب صاحبه الفضيلة فوراً...

في الجوّ الجدليّ الذي فرضته المرحلة، قلب دولباك الأفق المعتاد وجعل من المؤمن الكافر الحقيقيّ - وهي حجة أبيقورية -، لأنّه يجعل من الرّب الذي يعبدّه وهماً - وهو التعريف الحقيقيّ للكفر. نظام الطّبيعة يحوّل كلّ علماء اللاهوت إلى ملحدّين، لأنّهم يدافعون عن فكرة الرّب الذي يدمّر نفسه حالما يشرعون في الاستدلال انطلاقاً من تعريفاتهم لشدة تنافرهما وتناقضهما وشطحاتها.

المفارقة أنّ كفر المؤمنين ذاك يُشفع بورع الملحد، لأنّ الورع معناه «أن يكون نافعا لأمثاله ويعمل على هنائهم». هكذا، وبتعريفات منسوجة لاحقاً لخدمة حجّته، ننتهي إلى تقويل الكلمات ما نريد.

ودولباك، الذي غالباً ما خاصم علوم الدّين والميتافيزيقا، بوصفها علوم كمات خالصة، يبيّن أنّه يستطيع هو أيضاً عند الحاجة أن يلوي عنق الثنائيات دوالّ/ مدلولات ويبرع في السّفسطة! الإلحاد لا يحتاج إلى خطابات سيّئة النّيّة، فلندع ذلك للمؤمنين.

يلاحظ دولباك أنّ عددَ الذين هم من دون ربّ في فرنسا في عهده قليل الأهميّة، لأنّ الإلحاد يفترض تفكيراً وقراءات وتأملاً، ووقتاً طويلاً في دراسة الطّبيعة، والمكاتب، والمناقشات بين أناس مؤهلين للقيام بتلك المبادلات الفكرية. إذن لا بدّ من قوت ومال وترويح، وهي أمور قلّ انتشارها بين الأهالي، فالعامّة بطبيعة الحال مُقصاة من ذلك المسار الفلسفيّ. يعتمد الإلحاد على الذكاء والتأمّل والاستنتاج والثّقافة. أمّا الإيمان فيفترض العادة والاستسلام للتقاليد والسّهولة

أضف إلى ذلك أنّ هذا الموقف الأقلّي يدلّ على شجاعة وجوديّة: الملحد ينظر إلى الواقع مباشرة ويتعامل مع الفضاظة التراجيديّة للمادّيّة القدريّة. أمّا المؤمن، فيتحدّر بالخرافات ويتدخّن بمرويات متخيّلة ويتعلّل بالأوهام. موقف خاطئ لا محالة، ولكنه أكثر راحة من وجهة نظر إنسانيّة. الملحد يعمل للأجيال القادمة ومستقبل الإنسانيّة.

ومن ثمّ نفهم غضب ناس الدّين على الملحدّين الذين يمزّقون حجاب الأوهام ويفضحون مهمّة تركيع الضّمائر والأجساد المتماذّة⁽¹⁷⁴⁾ إلى خلق أرباب وأديان. وضخامة غضبهم تعادل مدى إثمهم. الملحد يريد بشرًا أحرارًا؛ أمّا المؤمن فيريدهم خاضعين، مطيعين، ليني العريكة.

الإلحاد وحده يجعل السّعادة ممكنة للذّات وللآخرين وللمجموعة، كلّ المجموعة. المادّيّة أيضًا تيسّر ذلك. النّفعيّة والحسّويّة والتّجربيّة تساهم في نفس البنيان الإيثقيّ والسّياسيّ. الأمر المطلق لدى البارون يتلخّص في بضع كلمات: «تعلّموا فنّ الحياة سعداء»، وبمعنى أوجز: «تمتّع وأمتّع». مجمل المنظومة الدولباكيّة، أي أعماله الفلسفيّة التي تفوق ستّة آلاف صفحة، تفضي إلى هذه الفرجة التي سيشغلها عمّا قريب بعض نشطاء الثورة الفرنسيّة...

(174) Coextensif: صفة معنى مجرّد يمتدّ شموله إلى معنى مجرّد آخر بكامله أو إلى جزء منه.

الزّمن الثالث

الخلاعة الإقطاعيّة

(I)

ساد

و«متع القسوة»

مكتبة

t.me/soramnqraa

1

سيّد عظيم، رجل شرّير. الاشتقاق ينطبق على الأشياء بشكل غريب؛ قبل القرن السابع عشر، التاريخ الذي صارت فيه تلك الكلمة في خبايا النسيان، كان النّعت sade (ساد) يدلّ على شيء له طعم، ومذاق. ويعني مجازيًا حكيم، فاضل، ثمّ استقرّ الشكل الشعبي على sage (حكيم، راشد، عاقل)... في تلك الفترة، كان هذا النّعت يستعمل لوصف ما هو لذيد، وسائغ عند الحديث عن الأشياء، ولكن أيضًا الرّشيق والأنيق عند الحديث عن الأشخاص. حسب تلك الاعتبارات، أقلّ ما يمكن أن نقوله هو أنّ الماركيز دو ساد يبدو بالأحرى مكفهرًا⁽¹⁷⁵⁾...

الماركيز، في نظر الإنسان العاديّ، يزفر رائحة ما تُخشى عواقبه، فاسمه يترافق مع كلّ ما هو شيطانيّ وإبليسيّ وجهنميّ وقاسٍ. وما

(175) استعمل الكاتب عبارة maussade التي يحتوي مقطعها الثاني على اسم الماركيز.

يمكن أن نضيفه إلى هذه اللوحة أنّ قلّة تعرف اسم الكاتب، ولكنّ الناس أجمعين يعرفون نعت السّاديّة المتّصلة به؛ قليلون هم الذين قرؤوا فعلاً 120 يومًا في سدوم، الكتاب الذي اعتبره رواية فاشيّة كبيرة لو سمحتم لي بهذه المفارقة التّاريخيّة. هو أديب وفيلسوف، ومنحرف جنسيًا وعلائقيًا، وماركيز انتهازيّ، صورة من النّظام الإقطاعيّ الأكثر شراسة، وثوريّ أثناء الثّورة، بلا دين ولا خلق، يحظى بافتتان نادر، يصعب تفسيره، لدى عالم الآداب الضّيق، حيث يُعدّ على أصابع اليد الواحدة أسماء الواعين الذين يسلّطون على الرّجل نظرة مستبصرة: ريمون كينو، ألبير كامو، ماكس هوركهايمر، تيودور أدورنو، حنا أرندت، أي المعارضين البارزين للفاشيّة...

2

رياء واستخفاف وانتهازيّة. الماركيز دو ساد (2 يونيو 1740-2 ديسمبر 1814)، واسمه الحقيقيّ دوناسيان ألفونس فرنسوا، أصبح كونتًا عند وفاة أبيه في 30 يناير 1767، ولكنه حافظ على لقب ماركيز طيلة حياته. في زمانه، تمّ إيقاف والده لتحرش شاذّ جنسيًا في حديقة لي تويلري، ولما توفّي حزن عليه ابنه حزنًا شديدًا. لتجنّب التحليل النّفسيّ لروّاد المقاهي، ولكن لنشر إلى كرهه الشّديد لأّمه. كراهيّة ساد للنّساء، ونعته إيّاهنّ كلّهنّ بـ«كلمات»، وربطه جهازهنّ التّناسليّ وأنداءهنّ بأكثر الأشياء إثارة للتّقزز، واشمئزازه الدّائم من الحمل والوضع، واعتباره جماع الأمّ والإنجاب هوّلاً أونطولوجيًا. كلّ شيء يُظهر ماركيزًا تعذّب شجرة العائلة إلى الحدّ الذي يجعله لا

يُمتنع عن الإنجاب فقط، وإنما أيضًا يرغب في أن يدفن بعد موته في قبر لا يستدلّ إليه أحد، تحت سنديانة - من أجل البلوط الذي يشبه حشفة؟ - كي لا يترك أي أثر لمروره ويجد العدم الذي كان يتوق إليه بكلّ كيانه.

الحياة ساد مدخل كلاسيكيّ: أسرة من النبالة الفرنسيّة الكبيرة، دراسات عند اليسوعيّين في كولاج لويس لوغرّان، ملازم في فوج الملك، حامل علم الخيّالة في فوج كونت إقليم بروفانس، نقيب في فوج الفروسيّة بإقليم بورغوني، ضابط مدفعية في ساحة حرب الأعوام السبعة، زواج من رونية بيلاجي دو مونتروي، زوجة تامّة، خيانات زوجيّة خاصّة مع أخت زوجته، ولكن أيضًا مع عدد كبير من الممثّلات وعدد لا يستهان به من النساء الطائشات أو المومسات. ابن، ابنان، بنت.

في يوميّات سفر دأب على تسجيلها خلال رحلة إلى إيطاليا، صدمه مدى انتشار الشذوذ الجنسيّ في روما - هو نفسه يمارس الجنس من دبر؛ وأعرب عن أسفه من رواج البغاء في كلّ مكان - وهو الذي أفلس في تأجير نساء طائشات؛ واحتجّ أمام الجالدين⁽¹⁷⁶⁾ في نابولي - وكان ينتشي بأعمال الجلد المسلّطة دون موافقة المعنّين بالأمر. ثمّ إنّ هذا السيّد الكبير الخبيث يعبر عن سروره بحصوله على لقاء بابويّ....

(176) Battuti بالإيطاليّة، وهم مسيحيّون يطوفون شوارع نابولي يوم الجمعة المقدّس في نوع من الرّياح، يسوطون خلاله ظهورهم بأنفسهم تكفيرًا عن آثامهم.

الدّم الأزرق يدلّ على وفاءٍ لا يريم للملكيّة وانتهازيّة مفرطة خلال الثورة الفرنسيّة حيث فعل كلّ ما في وسعه لينقذ رأسه. عام 1791، ودّ الانخراط في الحرس الملكيّ، فهدّأت فارين⁽¹⁷⁷⁾ حماسه، فتحوّل إلى راديكاليّ تماشياً مع الوضع الجديد، وكتب «أيّها الفرنسيّون، مزيداً من الجهد إن أردتم أن تكونوا جمهوريّين»، حيث بدا داعياً إلى الفضيلة، مستقيماً سياسياً، فتخلّى عن حرف إضافته وجعل اسمه لويس (!) ساد، وانضمّ إلى فرقة البيك⁽¹⁷⁸⁾، وترقّى حتّى صار سكرتيراً للفرقة. وبالرّغم من اعتمازه القلنسوة الحمراء، واعتلائه المنبر خطيباً، ومزايدياً في المجال الثوريّ، فإنّ مبالغته في الاندفاع لم تكن كافية لتغطية تعاطفه مع نظرائه الأرسقراطيّين.

3

منحرف جنسيّاً وعلاقياً. تتبنّى إحدى شخصيّات حكاية جوليت خياراً فلسفيّاً قد يكون الأمر المطلق للماركيز: «افعلوا بالآخرين ما لا تودّون أن يفعلوا بكم». لا يمكن ألاّ نحبّ القديس بولس دون أن نعتقد في الوقت نفسه أنّ قلب القيم دون قيد أو شرط كافٍ لتشكيل أخلاق ثوريّة. إيثيقا الخاتل تلك لا تقترح شيئاً جديداً لكونها تعبّر عن الأخلاق الإقطاعيّة: قويّ مع الضّعاف، ضعيف مع الأقوياء.

(177) Varennes-en-Argonne: اقترن اسم هذه البلدة الواقعة في الأردن بمحاولة لويس السّادس عشر برفقة ماري أنطوانيت وعائلته المقرّبة الهروب، يومي 20-21 يونيو 1791، إلى حصن ملكيّ لتدبير ثورة مضادّة.

(178) فرقة ثوريّة نسبت إلى مقرّها Rue des Piques الاسم القديم لنهج لويس الأكبر Rue Louis-Le-Grand في الدائرة الباريسيّة الثّانية.

كان الماركيز يدفع أجرة ضحاياه، فيشتري النساء، ويستعمل خادمه في استدراج فرائسه في الأحياء الشعبيّة، ويقترح مبالغ ماليّة ضخمة، ويتهمّ على ضحايا النّظام لإرغامهنّ على أعمال خليعة يعلمها البوليس - الذي يحمي النّبلاء. بعض القضايا فقط كانت تصل إلى علم النّاس، أمّا القضاء فلم يستطع التّدخل لكثرة قضايا الغاصب. ثلاث جرائم جنسيّة - لنسمّها بأسمائها ولنصفها حسب النّظام القضائيّ - تلوّث بدم حقيقيّ لا مجازيّ أو أدبيّ، سيرة حياة الماركيز.

4

جرائم الفيلسوف. الجريمة الأولى: قضية جان تيتار. في اللّيلة الفاصلة بين 18 و 19 أكتوبر 1763 - وكان عمر ساد آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا -، أوقف الماركيز في الشّارع فتاة عاطلة عن العمل وحاملًا. أغراها بقطعتي لويز⁽¹⁷⁹⁾ - وتلك ثروة - كي تتبعه، وقادها إلى بيت مأجور، وأغلق عليها الباب. وبعد أن تأكّد من ديانتها المسيحيّة، جعل يقذفها بالشّتائم ويجد متعة في سرد حكايات كفر على مسمعها - استمناء في كأس، إيلاج خبز الذّبيحة المقدّس في فرجها. في غرفة مكسوّة بموجودات دينيّة، وصور ورعة، ولوحات داعرة، دعا ضحيّته إلى تسخين سوط من أسلاك الحديد على النّار وجلده به، ووعدّها بالشيء نفسه في المقابل.

(179) عملة ذهبية فرنسيّة Louis d'or، وكانت متداولة من 1640 إلى 1792 وسمّيت لويس (أو لويز كما هو شائع حتى الآن في بلدان المغرب العربيّ) باسم الملك لويس الثالث عشر، أوّل من أمر بسكّها.

وأمام رفضها، ثار ثائره فحطّم صليباً، واستمنى مسيلاً منيّه على الشّطايا المفروشة على الأرض، وأمرها بأن تمشي عليها، وهدّدها بالقتل وهو يمسك بسيفه ويشير إلى مسدّسين. ولما صمدت، قضّى اللّيل يقرأ عليها أشعاراً ماجنة ثمّ أطلق سراحها في الصّباح... لنَدع جانباً الهذر ومسرحة تهويماته، ولنحتفظ بالإكراه الجنسيّ تحت التّهديد بالقتل.

الجريمة الثّانية: قضيّة روز كيلر. في أحد الشّعانين (عيد الفصح) الموافق لـ 3 أبريل 1768، وكان عمر ساد ثمانيّ وعشرين سنة، وروز ستاً وثلاثين. كانت غزّالة، أرملة، عاطلة عن العمل ومتسوّلة. النّمودج الأمثل لتحقيق انتصار السيّد بمقابل ريال⁽¹⁸⁰⁾ واحد. قادتهما عربة خيل إلى ضاحية أركوي. تبعته للقيام بأعمال منزليّة، وتظاهر بالنّوم أثناء الرّحلة.

ولما وصلا إلى البيت، أغلق الماركيز الباب على روز كيلر، وطلب منها أن تخلع ثيابها، وهدّد بقتلها ودفن جثّتها في الحديقة إن لم تستجب. خلعت نصف لباسها، فأكمل الباقي وألقى بها على سرير، وأوثقها في وضع انبطاح، وقيد حركتها بمسند تحت قفاها وجلدها بعنف. ولما صرخت أخرسها بالتلويح بسكّين وتوعدها بالقتل، ومضى يضربها سبع أو ثمانيّ مرّات، ثمّ توقّف ليسكب في الجروح شمعاً مذاباً، ثمّ أعاد الكرّة وأحدث في جسدها اثني عشر شرطاً بالسكّين. كانت تريد أن تعترف لقسّ قبل الموت، فسخر منها

(180) Ecu: عملة فرنسيّة قديمة.

واقترح عليها الاستماع إلى ذنوبها. وفي النهاية، بلغ نشوته وهو يطلق صرخات مرعبة وعواء وحوش. قدّم لها الأكل، وحبسها، ولكنها فرّت من البيت باستعمال لحف ضفرتها. سُجّلت ضدّة نفس التّهم السابقة: احتجاز، إكراه جنسيّ، تهديد بالقتل، عنف جسديّ، آثار ضرب وجروح.

الجريمة الثالثة: مرسيليا في 27 يونيو 1772، وكان عمر ساد اثنتين وثلاثين سنة. استدرج له خادمه لاتور أربع فتيات من الشّارع لسهرة ماجنة. وكانت أعمارهنّ بين ثماني عشرة وثلاث وعشرين سنة. أرغم ساد فتاتين منهنّ على ابتلاع حبوب ذُراح⁽¹⁸¹⁾ معطّرة بأنيسون وتسمّى «أقراص ريشيليو»: ذلك المسحوق المستحضر من الذّباب والمهيّج للشّهوة الجنسيّة يفترض أن يُتناول بجرعات ضئيلة، وإلا صار خطيراً، وحتى قاتلاً. أمّا إذا أُحسن استعماله، فله خصائص دفع الرّيح من الأحشاء. وساد كان يعشق الضّراط في وجوه جلاسه - بعبارة رابليه -، لا سيّما (ربّما) إذا كانوا يحملون الرّائحة المعطّرة بأنيسون براحه الأصليّ... كانت الجرعات فوق اللّزوم، فتسمّمت البنتان وظلّتا يومين بين الحياة والموت.

وكان في العادة يقترح على النّساء المال - قطعة لويز - مقابل إتيانهنّ من دبر. وكان عقاب تلك الممارسة في تلك الفترة الإعدام، ولذلك كانت النّساء يرفضنه. وكان الماركيز يطلب جلده بسوط مزوّد بإبر معوّجة. وعندما يتلقّى الضّرب، كان يمسك الحساب

(181) Cantharidine: مادة سامة تستعمل في الطبّ.

بإحداث حروز على غطاء المدفأة: ليس أقلّ من ثمانمائة جلد... ثمّ يَضْرَب بدوره. وكان يلوّط بخادمه ويستمنيه في الوقت نفسه، كذلك الشّان مع النّساء المتمنّعات. دوافع جرائم نفسها مع محاولة تسميم فوق ذلك...

5

إفلات الأرستقراطيّ من العقاب. في قضيّة تيتار: نظريّاً يستحقّ الإعدام، ولكن بفضل تدخّل أقربائه المقرّبين من الملك، نالته رأفة حقيقيّة من القضاة بتواطؤ مع الشرطة التي أتلّفت الدّعوى - أبحاث وشهادات. وبعد ثلاثة أسابيع من الحبس، نجا الماركيز من المحرقة، وخضع للإقامة الجبريّة في قصر أصهاره بإيشوفور في محافظة الأورن.

وفي قضيّة كيلير: أخذت العائلة القضيّة بشراء صمت المدّعية. ولكن لم يكن في الإمكان تجنّب الفضيحة. لا إعدام هذه المرّة أيضًا، فقط خمسة أشهر سجنًا لطّفقتها الزيارات، ثمّ فرض إقامة جبريّة في قصر لاكوست. في تلك الفترة، كان يمكن أن يقضيّ البائس بقية حياته في الأشغال الشّاقة لمجرّد امتلاك كتاب ينتقد الدّيانة المسيحيّة...

أمّا في قضيّة مرسيليا فقد صدر حكم غيابيّ بالإعدام على ساد وخادمه إذ كانا قد فرّا إلى إيطاليا. تمّ تقطيع أوصال الماركيز، وشنق خادمه، ثمّ حرقها معًا، ولكن في هيئتهما الكرتونيّة فقط! في ما بعد، تظاهرت السّلطات بإيقاف الماركيز، مع تسهيل فراره، فالمال يُحْرَس

رجال الشرطة والحرس. ولما عاد إلى بيته، نجا من طلق نارِيّ من ربّ أسرة جاء ينتقم لشرف ابنته المفقود: رفع الماركيز شكوى! تظاهر جديد بالإيقاف، وهروب جديد. وصمت مطبق من سلطات جلّالته.

وبفضل رسائل مختومة⁽¹⁸²⁾، حصل أصهاره على حكم بسجنه لوضع حدّ لفجوره المتواصل، وجرائمه الجنسيّة المتكرّرة، وتهتكه باستعمال العنف ضدّ نساء غير راغبات. عندئذ، قضى ثلاثين سنة من عمره في السّجن، ولم يمنعه ذلك من ممارسة الجنس بمساعدة أمّه، التي أجزل لها العطاء، فجاءته بفتاة في الثالثة عشرة من عمرها، تسلّمها في زنزانته.

في ذلك الوقت، كان عمره ثماني وستين سنة ويعاشر منذ ربع قرن في السّجن امرأة في نصف عمره أنجبت له طفلاً. ولما مات يوم 2 ديسمبر 1814 في مصحّة الأمراض العقليّة بشارنتون، قام عالم بفراصة الدّماغ بفحص دماغ ساد، واستنتج متحمّساً أنّ الهالك مارس الطّيبة والحماسة الدّينيّة، وربّما كان راهباً من رهبان الكنيسة...

الآن، وقد وقفنا على هذه السّيرة المقرّزة، يمكن أن نستخلص أنّنا أبعد ما نكون عن الفيلسوف الذي حرّر الجنسانيّة، والبشير الذي حطّم الأغلال، ونموذج الأناركيّ الذي أشاد به السّرياليّون،

(182) Lettre de cachet: في ظلّ النّظام القديم في فرنسا، رسالة تستخدم لنقل أمر معيّن من الملك، ممّا يسمح على سبيل المثال بالحبس دون محاكمة أو النّفي أو اعتقال الأشخاص الذين تعتبرهم السّلطة غير مرغوب فيهم.

وضحيّة جور السّلطة الملكيّة، والأسطورة التي تعبدها الحداثة الأدبيّة والفلسفيّة في القرن العشرين. فما هو في الواقع سوى منحرف لا قيمة له، يهمّ شرطة الآداب؟ ليس إلى هذه الدّرجة!

6

الشّبق الألمّي⁽¹⁸³⁾ لمريض. لتذكّر فرضية موريس هين، أوّل كاتب سيرة ساد، وجلبير لولي، وريث تقليد الهوس الأحاديّ لدى الماركيز: ساكن قصر لاكوست يعاني من علّة جسديّة نفسيّة هي **الشّبق الألمّي**. فيزيولوجيّاً وسيكولوجيّاً وأونطولوجيّاً، لا يمكن للماركيز أن يعرف اللّذة إلّا مصحوبة بألم يسلّطه أو يخضع له. أي أنّ الماركيز جعل من الضّرورة فضيلة...

من أين جاءت هذه التّهيئة الوجوديّة؟ لا علم لنا. كتاب السّيرة يتوقّفون عند حلقة ذات عنف لا مثيل له، عنف مشهود، في فسحة لعب ساءت عاقبتها مع ترب من أترابه ذي نسب أميريّ، له ضعف سنّه، وكان ساد في الرّابعة من عمره. عنف الشّجار فاجأ الكبار. ولكن الحادثة لا تبدو مؤسّسة بقدر ما هي دالّة على طبع تأصل فعلاً.

ساد نفسه يذكر في **جوستين الجديدة**: ما يحدّد كائنًا في أذواقه الأكثر عمقًا يتمّ في بطن الأمّ، بصرف النّظر عن كلّ رغبة إنسانيّة. ولن تستطيع التّربيّة والتّعليم والثّقافة وإرادة البشر بعد ذلك شيئًا: فالفرد الذي لا تنفصل لديه المتعة عن العذاب ليس مسؤولاً عن خاصيّة كيانه تلك. الطّبيعة تسيطر كسيّدة مطلقة...

(183) Algolagnie: متعة جنسيّة مرتبطة بألم يحسّه الفرد أو يسبّبه.

ساد إذن كان ساديًا. ذلك أقلّ ما يقال! السّاديّة يرجع تاريخها إلى سنة 1834، وظهرت في قاموس بواس⁽¹⁸⁴⁾ بعد عشرين سنة فقط من وفاة الماركيز. ونحن ندين لطبيب الأمراض العقليّة كرافت إيبينغ⁽¹⁸⁵⁾ بتعريف طبّي لهذا المصطلح وضعه عام 1891 في سيكوباتيّة جنسيّة، ومعناه: «شدوذ مربع للفجور، منظومة بشعة ولا اجتماعيّة تغيب الطّبيعة». ومنذ ذلك الوقت صار النّعت يدلّ على كلّ نشوة تتاب الفرد من عذاب مسلّط. ومن ثمّ، فأثار ساد ليست إعلاء ولا تنفيسًا، أو مسرحة، أو مباحدة، أو تطهيرًا، أو نظريّة كما يؤكّد كلّ المتمسّكين بديانة النّصّ في السّنوات البنيويّة، بل اعتراف وتذكّرة وتحليل ذاتيّ وحتىّ تبرير ذاتيّ فلسفيّ.

صحيح أنّ كلّ فكر هو سيرة ذاتيّة، نعرف ذلك منذ التّحليل الرّائع لنتيشه في المعرفة المرحّة، وهو أيضًا اعتراف من المؤلّف: كلّ واحد يفكر بعجزه وثغراته وجروحه. ورغم ذلك لا يمكن أن نسكت عن عمليّة الكتابة عن الذات البادية في الآثار الأدبيّة والفكريّة. إنكار الذات المبدعة وحياتها وأثرها، وكره الكاتب القابل للتمثّل مع أنا واضحة يمكن الاهتداء إليها، والازدراء المعلن لسيرة الفيلسوف، كلّ ذلك يحبسنا في عبادة النّصّ وحده. ولممارسة نظريّة النّصّ الخالص تلك، يُجلى حملة المباخر سيرة الكاتب.

(184) Pierre-Claude-Victor Boiste (1765-1824): مؤلف قاموس الجغرافيا العالميّة وعدة قواميس للغة الفرنسيّة وآدابها، أشهرها القاموس العالمي للغة الفرنسيّة.
 (185) Richard von Krafft Ebing (1840-1902): طبيب أمراض عقليّة ألمانيّ نمساويّ، مؤسس علم الجنس.

رفاق درب الإقطاعية. بناء عليه، وفي مفارقة عجيبة مذهلة، يقارب كتّاب السيرة والفلاسفة وكتّاب المقالات والأدباء الذين يتحدّون مع ساد جرائمه الجنسية في هيئة شركاء للتّعسف الإقطاعي. أن نجد موريس هاین، وجلبير لولي، وجان جاك بوفير، وجان جاك بروشيه، وآني لوبران، وريمون جان، وبياتريس ديديه، وشنطال توما، وميشيل دولون، ولكن أيضًا جان بولان، وجورج باطاي، وجاك لاكان، ويير كلوسوفكي، وموريس بلانشو، وميشيل فوكو، وجيل دولوز، ورولان بارط، وفيليب سولّرز - وهم من هم... - إلى جانب المدافعين عن الاستبداد الملكي قبل الثورة الفرنسيّة، فذلك ما لا يكفّ عن إثارة الاستغراب...

أمام جرائم الحقّ العامّ، والاعتداءات الجنسيّة، وإلحاق الأذى بالضرب والجرح، والتّهديدات بالقتل، والاحتجاز، ومحاولة التّسميم، التي قد تكون أكثر تواترًا من الحالات الثلاث البادية من جبل الجليد السّاديّ، يتنافس رفاق الدّرب الإقطاعيّ القروسطيّ الحداثيّون في التّبريرات والسّفسطة التي تثبت مهارة مدرّس البلاغة، ولكنها لا تنبئ قطعًا عن إنسانيّة المؤلّفين. لقد كان سارتر محقّقًا عند الحديث عن ذلك الجيل الفلسفيّ إذ أشار إلى نكران مخصوص لديهم للتّاريخ - سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المرحلة.

منتخبات ذمّامة: أطراف تلك المغامرات الثلاث لم يكن سوى

مومسات، نساء يسهل بيعهنّ وشراؤهنّ أغراهم المال؛ فشهادة الضحايا لا قيمة لها، وهي مدعاة للشك، إذ لا يمكن أن يكون الفرد خصماً وحكماً؛ وأوضاعهنّ الاجتماعية ليست في صالحهنّ، كما هو واضح: أرملة، عاطلات، عاملات، أمّ عزباء، متسوّلات... أو لكونهنّ نساء، ببساطة؛ أخيراً، ما دمن فقيرات فهنّ اللاتي يحتجن الماركيز رهينة لابتزازه... كأننا نحلم!

في الأثناء، تهرّف العامة وتهذر وتضيف ما شاء لها أن تضيف، وقد وجدت فيها فرصة سانحة - لم نكن نقول في ذلك الوقت غوغائية وشعبوية... - للإيقاع بكبير، قويّ، ماركيز: فكيف لا نفهم عندئذ أنّ هذه القضية منشؤها غيظ شعبيّ، أو أنّ النساء راضيات، وهي لازمة مبتدلة لدى محامي الدّفاع الذّكور وغيرهم ممّن يُنسبون إلى القضاء - على أيّ حال هنّ قبلن المال؛ وفي مكان آخر: ساد لم يفعل أكثر ممّا كان يفعله نبلاء آخرون في تلك الفترة، فلماذا يلقي المضايقة؛ أخيراً: لم يمت أحد، فلم الشّكوى! صحيح، ولكنّ العظام التي وجدت في حديقة الماركيز، دون أن يفسّر مأثاها سوى بمزحة مزعومة مشبوهة قام بها أحد شركائه، وكانت تلك وثيقة نادراً ما أدرجت في الملفّ... ومن ثمّ، فإنّ ما حدث لم يحدث. في أزمنة أخرى سوف نتحدّث عن إنكار تاريخيّ.

أقوى من ذلك: أمام نفي الحقائق، هذه منتخبات من تأويلات نحو عشرة أدباء من المذكورين أعلاه: «ترّهات»، «مأساة صغرى نفسية جنسية صغيرة»، «حادث مجتمعيّ لا يدعو إلى الشّنع»، «ضربة

بالكفّ على الرّدْف»، «لعبة»، «تسليّة ذات أوجه متعدّدة تمتّح من فنون الرّكح»، «حكاية حلوى»، «أضحوكة»، «مغامرة عشق استثنائيّة»، «قضايا ضخّمتها الإشاعة»، «تهويم جماعيّ»، «أصدقاء»، «حركة رأي»، «حكايات»، «خرافات».

أحدهم ذهب إلى حدّ التّأكيد أنّ الخمس دقائق من «الأوجاع الحقيقيّة» - نقدّر نبل التّنازل! - التي أحسّت بها روز كيلر، «لا يمكن أن تنأى كثيرًا عمّا تكون عليه عيادة طبيب أسنان في القرن الثّامن عشر»! وقصب السّبق فاز به رولان بارط الذي تحدّث بكلّ جدّيّة عام 1971 في ساد، فورييه، لويولا عن مبدأ الرّقّة الذي كان في ما يبدو رائد النّشاط السّاديّ للماركيز. آه، ما أجمل تلك المرحلة البنيويّة...

في تقديم زاخر مازوخ، استحضر جيل دولوز أطروحة جورج باطّاي: الماركيز دو ساد ضحيّة... (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكيّ (1961) لميشيل فوكو يذهب في الاتجاه نفسه...) الدّليل؟ لغته هي لغة ضحيّة، لأنّ «الضّحايا وحدهم هم الذين يستطيعون وصف عمليّات التعذيب، أمّا الجلّادون فيستعملون بالضرورة اللّغة المنافقة للنّظام والسّلطة القائمين». حُسم الأمر. عرفنا دولوز أكثر إلهامًا، واستعمالًا لحجج أقلّ شبهة... لتتوقّف عند هذا الحدّ.

شَبَّوط فيلسوف، أرنب أرستقراطي⁽¹⁸⁶⁾. أعتبر ساد الفيلسوف مثالا لإقطاعية ما قبل الثورة. في حياته لا محالة، ولكن في أعماله أيضًا، كل أعماله بلا استثناء. انبهار الجيل البنيوي، وعماءه برفضه السخيف للفرد، وكرهه للمؤلف، وشغفه الديني بالنصر وحده، ونكرانه للتاريخ، وبالتالي للطرف، كل ذلك جعله يتحد في ديانة لغة مضرّة بالذكاء. لنغلق القوس، ولنقرأ ساد بمنظار جديد.

يحتج ساد ميزتين يمكن أن تلغي إحداها الأخرى: النبالة المعلنة، والأرستقراطية المحمولة كزاد مسافر، والدم النبيل الدال على علوية عرق الأسياد، والدفاع بالظفر والناب عن قيم الإقطاع القروسي، والموقف المحافظ، وحتى الرجعي، سياسيًا (تجنبوا الوقوع في انتهازية نصوص بالية لساد توصف بالثورية...) وفلسفة ملحد ينتقد بشدة الديانة المسيحية وأخلاق المثال الزهدي، والمادّي التراجيدي المتعاطف مع الحتمية الراديكالية والقدرية، والميتافيزيقي المظلم المنكر لحرية الاختيار، وواضع أونطولوجيا عزلية يائسة، ومريد الأنوار، والقارئ المعلن والنهم للا ميري وهلفتيوس ودولباك.

هو ثمرة مسخ من زواج بين شبوط مستنير وأرنب إقطاعي. فيلسوف طباقّي.

(186) من عادة الفرنسيين القول أخرس كسمك شبوط، ونهم للجنس كأرنب.

اقتطاعات الفيلسوف. ساد فيلسوف؟ قيل ذلك، ولكن غالبًا ما نكتفي بأن نرى فيه قارئًا مهتمًا بالماديين والملحدين الفرنسيين. ساد يتصرّف مع الفلاسفة تصرّفه مع بقية الناس: كحيوان كاسر يفتك حسب حاجته ونزوته ومشيتته. كان الإقطاعي يقطع عُشره من المؤلّفين الماديين في تلك الفترة - يضيف إليه تأملات في حالة الطبيعة أو نسيبة القوانين تشي بقراءة متأنية لروسو وصاحب روح القوانين.

باسم دولباك، يعترف ساد أنّه يحبّ أن يكون طائفياً حتّى التّضحية... ولم يُطلب منه ذلك القدر! خصوصاً أنّ معنى التّضحية لديه لا يذهب أبعد ممّا تقتضيه مصلحته. بطبيعة الحال، انضمّ تمامًا إلى أطروحات البارون: تميّز الأهواء التي لا يتمّ شيء من دونها؛ المصلحة كمحرّك لكلّ الأفعال الإنسانية؛ المنفعة بوصفها قاعدة كلّ عمل طيّب؛ المثوليّة الراديكاليّة للعالم؛ الماديّة الكاملة للواقع؛ نقد القيم والفضائل والرؤية المسيحيّة للعالم؛ الكون بوصفه شبيهًا بماكنة ضخمة تعبّرها طاقة تولّد تجانس الاتّزان فيه كلّها؛ الحتميّة والقدريّة وغياب حرّيّة الاختيار.

توجد مواقفه الفلسفيّة خاصّة في الفلسفة في المخدع وجوستين الجديدة. بين لثم في مواقع حسّاسة ومصّ للعضو وضرب بالسّوط وتلويط واستمنا، لا بدّ من الاستراحة. عندئذ يلقي الماركيز خطبًا مسهبة تقع وقوع الشّعري في الحساء، فيليبيّة ضدّ الرّبّ، عظة لبيّن بطلان العائلة والزّواج والإنجاب، خطبة لإثبات عدم

وجود الخير والشرّ، ذمّ لكل واجب، دفاع عن الطّبيعة، ثمّ يستأنف رياضته الشّبقيّة بين ضراطين، وثلاثة تغوّطات وسيل من الجماع.

عندما يتحدّث ساد عن التّضحية، فلنحذر تصديقه! إذ كان غالبًا ما يتخلّى عن دولباك، لا سيّما في المسائل الأساسيّة. حول كينونة العالم لا يختلف لا ميتري وهلفتيوس ودولباك كثيرًا، فقراءتهم المثوليّة للواقع لا تحتوي سوى على نقاط اختلاف قليلة. أمّا حول وجوب الكينونة الذي نشأ قياسًا إلى تلك الأنثروبولوجيا المادّيّة التّراجيديّة، فإنّ ساد لا يكاد يتبع أحدًا، باستثناء لا ميتري - الذي يتمثّل وجهه المظلم، والصّيغة الجهنميّة.

أولًا، هلفتيوس: يوافق ساد إذن على مراجعة أونطولوجية دقيقة لمؤلّف عن الرّوح وعن الإنسان، ولكنه يستبعد سيّد فوري الذي يؤمن، رغم جبروت الحتميّة، بإمكانيّة تغيير جذريّ عن طريق التّربية. وساد يرفض هذا التّخيّل المتفائل الذي يناقض المنطق القدريّ: نحن نخضع للقدريّة، وبطن الأمّ يقرّر كلّ المصائر، ولن تقدر التّربية والتّعليم والبيداغوجيا أن تغيّر من الأمر شيئًا.

ومن ثمّ، فإنّ اهتمام هلفتيوس بالشّعب والبؤساء وضحايا المنظومة الإقطاعيّة، ورغبته في تلطيف حياة المستضعفين والمهانين، يبدو أن لساد أثرًا من آثار الفضائل المسيحيّة عن الرّأفة والعطف والشفقة والإحسان التي يستهين بها كتاب الفلسفة في المخدع - لكونها عراقيل لقوّة الأقوياء.

ثانيًا، دولباك: قد نغضّ البصر عن القراءة الإلحاديّة والمادّيّة

والنّفعيّة للعالم، ولكن لا نغضّه عن مفهوم المثال النّفعيّ، أي السّلم والازدهار والنّظام والانسام المجتمعيّ. فنظام الطّبيعة الذي يحبّه ساد يمتدّ إلى الأخلاق الكونيّة، والسياسة الطّبيعية، والإيثوقراطيّة، الأعمال التي دعا فيها دولباك إلى ميثاق اجتماعيّ مكوّن من التّخلي عن الأنانيّة المركزيّة لكلّ فرد بغية تشكيل مجموعة متعيّة.

ساد اختار العكس: فبوصفه عدوّاً للقوانين، كارهاً لكلّ إكراه، حاقداً على المجتمع، لا يؤمن سوى بالجبوت المدّمّر للفرد القويّ الذي يودّ دولباك نزعه في سبيل بناء مجتمع مرتاح الضّمير، لا يستطيع أن يوافق على تفاؤل البارون الاجتماعيّ، وغايته السّياسة الكبرى التي تهدف إلى أكبر قدر من السّعادة لأكبر قدر من البشر. ذلك أنّ ساد يريد المتعة الأعنف له وحده، مهما كلّف ذلك المجموعة.

10

ساد، لا ميتري شيطانيّ. مادّيّ، أي نعم، ملحد، طبعاً، ولكنّه بالتّأكيد ليس كليانيّاً⁽¹⁸⁷⁾ أو تقدّمياً مثل هلفتيوس أو دولباك. المجموعة؟ تلك أشدّ ما يكره الماركيز، الحريص على مزايا مركزه الطّبقيّ. يضحيّ من أجل قضية دولباكيّة؟ لم تكن سوى عبارة طائشة بريشة الإقطاعيّ. يتضامن مع قضايا الرّعاع؟ ثمّ ماذا أيضاً...

(187) الكليانيّة Holisme: نظريّة تقول بأنّ الإنسان كلّ لا يتجزّأ، ولا يمكن تفسيره بمكوّناته المختلفة (الجسديّة والفيزيولوجيّة والنفسية) بشكل منفصل.

في هذه المرحلة من التحليل يمكننا أن نفهم لماذا أساء لا ميتري إلى هلفتيوس ودولباك إلى ذلك الحدّ. في هامش من نظام الطّبيعة، يعيب دولباك على لا ميتري «تناوله الآداب العامّة مثل مسعور حقيقيّ»، أي إنكاره إمكانيّة كلّ أخلاق، وبالتالي كلّ سياسة، بمنظومته القدريّة المشطّة.

نجد فعلاً في أعمال طبيب سان مالو كتابة قدريّة وتشاؤميّة طبقاً للأصول الواجبة. رؤية العالم تلك أعجبت ساد، ولكنها في الوقت نفسه ساءت متفائلّي العقل، أي هلفتيوس ودولباك، اللّذين كانا متعثّرين وغير مقنّعين تماماً حين حاولا جعل حتميّة كاملة تتعايش مع إمكانيّة التّدخل في سيرورة العالم...

ومن ثمّ، صار لا ميتري في نظر ساد الفيلسوف الرّمز. صاحب المضادّ لسينيكّا والإنسان الآلة يتقاسم مع هلفتيوس ودولباك نفس نكران حرّيّة الاختيار، ومديحاً متماثلاً للأهواء، ودعوة متشابهة إلى اتّباع الطّبيعة، وقراءة مثوليّة للعالم متطابقة، ولكن لا ميتري يختلف عنهما براديكاليّة قدريّة. إن وجدت الحتميّة فهي تامّة؛ وإن كانت تامّة، فلا يمكن تعديلها؛ عندئذ لا يبقى سوى الانخراط في القدر؛ حيث لا مجال لنظام أشياء غيره. تردّد هلفتيوس ودولباك، وأفرطا في التّحذلق، ولكنّهما لم يكونا مقنّعين إلّا قليلاً؛ أمّا لا ميتري وساد فلا: الواقع هو ما هو، ولا يمكن أن يكون غير ذلك. وهو موقف راديكاليّ تراجيديّ - ونظريّ، لأنّ المرحلة اللاحقة أثبتت أنّ ساد يخلق هو أيضاً إحراجاته...

موقفان أونطولوجيّان قويّان ومعارضان للسائد يميّزان الصّديقين: اللاأخلاقيّة والأحادية المطلقة⁽¹⁸⁸⁾ - المصطلح المولّد الوحيد الذي نحتة ساد. لا ميتري يستخلص من ذلك فنّ الشّبّق المرح، والخلاعة الباسمة، والمتعيّة المنشرحة، أو بعبارته هو: فنّ الانتشاء؛ أمّا ساد فقد اختار بدل الميتافيزيقا التّراجيديّة إباحيّة قاسية، وميتافيزيقا صقيعيّة. نزعة الحياة ضدّ نزعة الموت، تعقيد سعيد لدى الطّبيب، طبيعة مكفهرّة لدى الماركيز... وجه نهاريّ وقفًا ليليّ لنفس العملة.

11

منطق القدريّة. إلحاد ساد ومادّيته أخذهما دون إضافة من أساتذته الذين يعترف بهم: الرّب؟ مروية متخيّلة. الدّين؟ بدعة لإخضاع الشّعب. الأخلاق المسيحيّة؟ بنية مضادّة للطّبيعة. المادّة؟ الواقع الوحيد، أبدية في كينونتها، فانية في تنسيقاتها. الرّوح؟ امتداد فإنّ مكوّن من ذرّات. الخير والشرّ؟ خرافات. الحّيّر والشرّير؟ يتحدّدان حسب المصلحة. المعرفة؟ تتمّ بالحواسّ. الموت؟ لا خوف منه، فالعدم يعقب الوفاة. الجسد؟ ماكنة تعبرها الطّاقة. كتاب ملازم⁽¹⁸⁹⁾ حسب التّقليد الفلسفيّ الرّاديكاليّ.

من جهة أخرى، يتوقّف ساد عند مقترح لا ميتري: بما أنّ الطّبيعة تنسّق وترأس وتقرّر وتريد، فإنّ كلّ شخص يلبّي التّعليمات التي لم

(188) Solipsisme: نظرية تقول أن ليس للذات المفكّرة من واقع آخر غير ذاتها.

(189) Vade-mecum: كتاب يضعه المرء تحت تصرّفه، ويعود إليه عند الحاجة، لاحتوائه على شئى القواعد والمعلومات.

يخترها. الدّمِيم والجميل، الرّشيق والمصطنع، الغبيّ والعبقريّ، الجلّاد والضّحيّة، السيّد والعبد، القويّ والضعيف، الطّويل والقصير، الشّدِيد والنّحيف، المنشرح والكئيب، لم يُخَيَّرْ منهم أحد. فلماذا إذن ندين ونقاضي ونمنح الجوائز أو نوزّع اللّوم؟ علينا ألاّ نحكم، بل نواسي ضحيّة الطّبيعة...

لنستكمل المسألة من الخارج: الشّبَق الألميّ للماركيّز متأتّ إذن من مسار داخل الرّحم يعرّض مجرى السّوائل، ويحرّك «الألياف»، ويحوّر «الحمازة في الدّم»، ويؤثّر في «الأرواح الحيوانيّة»، ويرتب بشكل مخصوص «الذّرات الكهربائيّة»، ولكنّ ذلك لا يتمّ قطعاً نتيجة إرادة حرّة أو اختيار مدروس يفترضان ملكة تحديد الذّات دون أسباب مسبّقة، فلنتعاطف إذن مع البريء الذي يحتاج إلى الألم لإشباع رغبته، ولكن ينبغي ألاّ ندينه.

أي أنّ النّدَم في الواقع لا يفيد في شيء: لا جدوى من منع ما سوف يحدث على أيّ حال، وحتىّ من العمل على ألاّ يحدث ما حدث، فذلك لا يمثّل أيّ مصلحة، ويضيف السّلبية إلى السّلبية، والشرّ إلى الشرّ. القسوة موجودة في الطّبيعة، تُرى باستمرار لمن يحسن ملاحظتها: جرائم، اغتيلات، قتل. لا أحد يستطيع أيّ شيء.

12

العزليّة ليست أنسيّة. ساد لا يفرط في استعمال اللّغة الفلسفيّة – خلافاً للسّجلّ البورنوغرافي. ومن ثمّ، فالمصطلح الوحيد الذي ابتدعه يستحقّ الدّرس، لا سيّما أنّه يلخّص خصوصيّة الفكر

السَّادَوِيّ أو السَّادِيّ. وأقصد به العزليّة. لقد ظهر المصطلح في أعماله ثلاث مرّات: تعاسة الفضيلة (1787)، ألين وفالكور (1795)، جوستين الجديدة (1797)، وهو يسمح بالقيم بتنوعات حول الأحاديّة المطلقة.

العزليّة تفترض أنّ مادّيّة الكائن المحدود في جسديّته تعرّفه بكونه جزءاً أعمى عن كلّ شيء، يجد نفسه عاجزاً عن التّواصل مع غيره، والاتّصال به عمليّاً. كلّ واحد يعيش قدره في شكل جوهر فرد منعزل وأعمى.

توسّع قوّته وشدّته وقسوته، تلك حقيقة كلّ كائن. الجميع يخضعون إلى ذلك القانون. ومن ثمّ، تميّز حالة الطّبيعة بحالة حرب الجميع على الجميع. في ما وراء الخير والشرّ، تسود القسوة. العالم أمملكه، والآخر ملكي، وبأسي يجهل الحدود: أستوجب ما أستطيع، وأفعل ما أريد، ولكن أريد أن تفرضني الطّبيعة. تلك الحلقة الجهنميّة تحدّد العزليّة، منظومة هذه الرّؤية التّراجيديّة للعالم.

العزليّة تقطع العالم إلى هيئتين: أقوياء وضعاف، أسياد وعبيد، فاسقون وعاطفيّون، كواسر وفرائس، ذئاب وكلاب، أرستقراطيّون ودهماء، مجرمون وضحايا، مغتصبون ومغتصّبون، قتلة وقتلى، أغنياء وفقراء، أي ساد وبقية العالم. جانب من البشريّة وُجد للخضوع لحكم الآخر، وهذا الوضع ملائم ولا يمكن أن يكون غير ذلك.

في جوستين الجديدة، يبرّر ساد دكتاتوريّة الأرستقراطيّة على الدّهماء، ويمدح مزايا النّصرانيّة والملكيّة اللتين ندين لهما في رأيه

بعظمة فرنسا وازدهارها. ولكونه يتبنّى «الاستبداد الأكثر جوراً»، فهو يقدّم وصفته: إرغام الفقراء على قتل أبنائهم؛ ممارسة تحسين النسل ممارسة عنيفة على أوسع نطاق؛ قتل «الكائنات الثّانويّة»؛ إلغاء الرّعاية العامّة؛ غلق ملاجئ الفقراء؛ حظر التّسوّل، إلغاء الشّفقة؛ إدانة الصّدقة؛ فرض ضرائب ثقيلة على المزارعين؛ تسريع الإفقار؛ منع الزّواج غير المتكافئ؛ تحويل عمليّات الإعدام إلى عروض فرجويّة عامّة؛ تنظيم مجاعات ضخمة بفضل الاختلاسات التجاريّة؛ شق الفقراء وقطع رؤوسهم؛ التّصرّف تصرّف طاغية. التّعليميّة؟ «لنكن لإنسانيّين وهمجاً». شعار ساد ليس حرّيّة، مساواة، أخوّة بل قدريّة، لامساواة، قسوة. نقيض الجمهوريّ...

القراءة البنيويّة، بإنكارها التّاريخ، تعتبر النّصّ كلامًا موحى وتشغل التّأويل على المنوال الاستمنائيّ، حيث تعتبر كلّ تلك المقولات عن سمو الطّغيان الإقطاعيّ المسلّط على الشعب نوعًا من التّبئير الأدبيّ، وتجليّة نصّيّة، وبناء لغويّ. ويستعرضون أيّها الفرنسيّون، مزيدًا من الجهد إن أردتم أن تكونوا جمهوريّين، والدّليلة، في رأي السّدّج، أنّه يدين هنا عقوبة الإعدام...

ولكنّهم ينسون أنّ مع هذا النّصّ الظّرقيّ (المعدّل بعد تيرميدور⁽¹⁹⁰⁾) - على غرار ألين وفالكور، الذي أضفى عليه سمات الدّيمقراطيّة والثّوريّة... كان ساد يحاول أن يتملّق الثّوار بالمزايدة

(190) Thermidor: المقصود هنا هو التّاسع من الشّهر الحادي عشر من السّنة الثّانية بتقويم الجمهوريّة الفرنسيّة بعد الثّورة، ويوافق سقوط روبسبير ونجاة ساد من الإعدام.

في العيد الشعبي، والفضيلة الجمهورية، والديانة المدنية، وأهلقراطية⁽¹⁹¹⁾ المواهب، والغيرية القضائية - كما جهر بمعتقداته الثورية في مراسلاته، لأنه كان يعلم أنها ستُفتح وتقرأ، حسب اعترافاته هو نفسه...

ولكن ذلك النص، مثل كثير من مواقفه التي أعرب عنها تحت غطاء فرقة البيك، المنضوية في الظرف التاريخي، لم يكن لها سوى غاية وحيدة: إنقاذ حياة الماركيز المهتد بالمقصلة، لأن عمق تفكير ساد هو الدفاع المحموم والشرس عن المثال الإقطاعي، تشهد على ذلك حياته كلها، من بدايتها إلى نهايتها، وأعماله العنيفة، الراديكالية، المطلقة، فضلاً عن أفقه الانتهازي. وكتاب 120 يوماً في سدوم يقدم صورة عن تلك الراديكالية حتى أننا، بصرف النظر عن المفارقة التاريخية، يمكن أن نصف ذلك الكتاب برواية فاشية عظيمة...

13

120 يوماً فاشياً. أعد هذا الكتاب قمة النذالة السياسية. ذلك النص الذي لم يكتمل يحتوي على كل العناصر التي تشكل النظام الشمولي، الذي سوف نقول لاحقاً إنه يؤسس الفاشية. صحيح أن هذا المصطلح يوافق وجوداً تاريخياً يقبل تحديد تاريخ معين: بعد الحرب العالمية الأولى، قامت الكلمة في إيطاليا على فاشو⁽¹⁹²⁾ حملة القضبان في الجيش الموسوليني؛ ولكننا يمكن أن نستعين بتعبير من

(191) Méritocratie: إسناد المناصب حسب جدارة كل فرد.

(192) بالإيطالية في الأصل fascio: حزمة. في العهد الروماني القديم، كان الحرس يحملون فؤوساً داخل حزمة من القضبان، ويتقدمون موكب كبار القضاة.

الخارج، ونستعمله بطريقة جوهرية⁽¹⁹³⁾ لنعت كلّ تنسيق بين ذاتين يسيطر فيه العنف الأشدّ شراسة - وتعقبه كلّ تهئية جماعية تتماهى مع نفس هذا النظام القابل لاستعمال القوة. بهذا المعنى، يجوهر كتاب 120 يوماً في سدوم تلك اليوتوبيا السياسية.

في تلك الرواية الفلسفية البغيضة، يضع ساد سينوغرافيا لكلّ ما يعرف الفاشية: مراقبة بوليسية لأرض محدّدة، معزولة ومحمية من الخارج؛ وجود الأفراد المحتجزين خارج دائرة القضاء؛ خضوع للنزوة والتعسف؛ سنّ القانون بكلام السيّد؛ سيادة العنف الخالص؛ هيمنة طبقة تعلن تفوقها؛ تكوين مترابط لفئة تابعة لما دون الإنسانية؛ كره النساء؛ وسم الأجساد؛ إغاطة معممة؛ عقوبات جنسية؛ حيونة البشر؛ حصر الكائن في العري الوجودي؛ مشاركة دائمة على الموت.

14

معسكر الموت. المداهمة: ميليشيات مأجورة بمقابل كبير تمسّط الجهات الدّاخلية بحثاً عن ضحايا يتم اختيارهنّ حسب خصاهنّ الجنسية وكرم محتدهنّ. الاعتقال: الضّحايا يُحتطّفن بعنف، وأحياناً يُقتل من يتصدّى لحماية أطفاله. المعسكر: قصر في ما وراء نهر الراين في الغابة السوداء، في قمة جبل، بعيد عن كلّ شيء، منيع، تحفّ به هوى وأجراف، كأسلاك شائكة طبيعية. الشرطة: ميليشيا مكوّنة من مجرمي الحقّ العام - لصوص ومهرّبين. السّجن: جسر متحرّك مرفوع، غلق، سياج، انقطاع تامّ للعلاقات الخارجيّة. ما دون

(193) Essentialisme: الجوهرية في الفلسفة نظرية ترى أنّ الجوهر يسبق الوجود

الإنسانية: النساء، لا يصلحن إلا لتوفير المتعة للرجال، كلبات ينبغي معاملتهن كحيوانات - فهنّ من جنس آخر، ولا يمكن أن يكنّ أشباهنا. عرق الأسياد: دوق، أسقف، رئيس، فاسق، وكلّ دواليب الإقطاعيّة وسيرورة تلك الأيام المائة والعشرين. الانتقاء: بعد التّفقّد، فصل بين «المقبولات» و«المرفوضات». العلامات: كلّ واحدة تعلّق شريطاً ذا لون يعني ملكيّة الثّقوب لهذا أو ذاك - ورديّ، أخضر، أسود، أصفر، ليلكيّ، بنفسجيّ. الوشم: طبع رقم بالنّار الحمراء على الجسد. الزّي: لكلّ واحدة ثوب ذو قماش ولون دالّين، تسمح حياكته بجماع مباغت وفوريّ وعنيف. النظام: مدقّ، متشدّد، متمسّك بالتّفاصيل، لا يترك شيئاً للصّدف: جدول أوقات، المواقيت، أوقات الأكل، وصفات الأطباق، تواريخ الأعياد، الاستراحات، الطّقوس، عددها وأشكالها، ترتيب الأمتعة، التّنقّلات، مجموعة الألعاب، سير القصوف والعريضة، ضبط التّوقيت بالدّقائِق، سينوغرافيا. قصّ الشّعري: يجد مكانه وسط الإغاطة وشتّى العقوبات المسلّطة عند خرق القانون الذي يمنع الضّحك وممارسة الجنس بحرّيّة وإظهار الورع والتّديّن. السّلطة كلّها لنزوات الأسياد، أمّا حياة العبيد فلا تساوي شيئاً. في نهاية تلك الأيام المائة والعشرين: دفتر حساب الموتى. «كلّ ذلك بدم بارد»، كتب الماركيز يقول. «مبدأ رقة» علّق رولان بارط...

المتعيّة الإقطاعيّة. الماغن دورسيه (وتعني بلغة الفرلان⁽¹⁹⁴⁾) إنه شديد، بالمعنى الأخلاقيّ والجسديّ... يلخص قانون المعسكر: «أن نشبع رغباتنا، ولا يهمّ على حساب من». وفي مكان آخر يقول: «يتتابني الانتصاب حين أؤذي غيري». وأيضًا: «ماذا يهمّني من الجريمة، المهمّ أن أتلذذ». تلك صيغ المتعيّة الإقطاعيّة، الليليّة، المرتبطة بنزعة الموت، كطريقة أخرى لتسمية العزليّة لدى الماركيز. متعتي مهما كان الثمن، ولتُنْهَرُ بقيّة العالم. أنا أتمتّع، إذن أنا موجود؛ وإذا كنت موجودًا، فبقيّة العالم يمكن أن تكفّ عن الوجود.

ما يريده بطل ساد؟ استثارة «الذّرات الكهربائيّة»، الإحساس بـ «الدّغدغة التي تُكهرب»، التّوصّل إلى «الاهتزاز»، نزع الحمولة، تفرّغ الذات. لم يقع قطّ حصر الإنسان الآلة إلى هذا الحدّ في طاقته المجرّدة. لا ميتري، وقد تمّ تجاوز راديكاليّته، يقدّم التّعلة الفلسفيّة لتراجيديا الجنس المحض. كلّ ما يسمح بالقذف، ذلك هو النّافع والخير والحسن والحقيقيّ.

ومن ثمّ، كان ساد محتفيّ، دون تمييز، بفرص نشر سائله المنويّ: البصبصة، الاستمناء، لثم الأماكن الحساسّة، الغلmaniّة، التّلويط، إتيان الأنثى من دبر، الكتابة البرازيّة، مصّ الذّكر، قتل الأطفال، الولع بالعجائز، التّعريّ جهراً، زنى المحارم، الجنس في ثلاثة، الرّغبة في لمس البراز وشمّه، لمس العضو التّناسليّ، المضايقة حدّ الإغاظه،

(194) لغة دارجة في الأوساط الشّعبيّة الفرنسيّة وتقوم على قلب مقاطع الكلمات. Durcet هي C'est dur مقلوبة.

السَّحاق، أكل البراز، الجلد، الاستثارة بلمس الماء أو البول، التولّ
الجنسيّ بجزء من البدن، التعذيب، السكر، التّجديف، الولع
بالحيوانات، وطء الموتى، أكل الجيف، أكل لحم الإنسان، إعدام،
اغتيالات، إلخ.

جمع تلك الصّيع الأساسيّة تسمح بتعدّد التشكيلات. تعرض
الرّواية تراكمًا من المشاهد المضجرة، تروى بدقّة دقائق محضر جلسة
في الإدارة السّجنيّة. كتالوغ لوحات خليعة وحتّى تنويعات حول
ثيمة موسوعة تراكم وتلتقط وتحوصل وتقترح جملة سريريّة حول ما
يستطيعه الجنس الخارج عن القانون. ببرود، ودون مزاج، وعدم
اكتراث عامل في مشرحة. أو مدير أو مسير معتقل.

16

ما يقدر عليه الجنس. نظرة سريعة على ما تحتوي عليه رواية 120
يومًا في سدوم كي نعطي فكرة عامّة عن الإحساس بالضّجر
والتّكرار والمزحة المشؤومة التي صاغها الماركيز: القذف على وجه
فتاة؛ التّبوّل على عضو راهب؛ ابتلاع رعام امرأة عجوز؛ الاستمناء
على الشّعر أو على المؤخّرة أو أيّ عضو آخر؛ تمزيق دبر، فرج؛ إخفاء
جسد، باستثناء جزء منه؛ الانتشاء بالروائح الكريهة - ضراط، براز،
عرق؛ تجرّع طبّاحة أدران، وأوساخ، وبراز بشريّ مغلى في الشّمبانيا؛
أكل الإفرازات المتخمّرة بين أصابع القدم؛ ازدرداد جشاء امرأة لا
توقّف عن التّجشّؤ؛ الشّيء نفسه مع الضّرطات؛ شرب قيء امرأة
مختنقة بالمقيّئات؛ أكل أطعمة منقوعة في فرج امرأة ثنائيّة؛ لحس

إست متقيح لعجوز لم يغتسل قط في حياته؛ شرب الحيض؛ أكل المضغة المجهضة والأجنة؛ التلذذ بشتى أنواع الفضلات البشرية، ساخنة، باردة، فاترة، جافة، مبللة بالبول، متخمرة، متعفنة؛ شرب غسل الشرج ممزوجاً بالحليب؛ تقليد أصوات الأطفال؛ فض البكارة باستعمال البراز؛ الجلد بشتى الموجودات: قضيب مضمخ بمادة برازية أو خل، سياط بسيور من الفولاذ، مقارع برؤوس معوجة؛ حك الجروح بالبول؛ «الضراط في كوب من نبيذ شمبانيا»⁽¹⁹⁵⁾، ربط الشخص إلى سلم، ثم ثقب خصيتيه بإبر؛ الأمر نفسه مع الحشفة، والألتين؛ الحرق بكلاية، والوخز بمخرز إسكافي؛ إيلاج عود بأشواك في إحليل رجل؛ حرق العضو بالشمع المذوّب؛ توثيق المفاصل وضغط العنق؛ «التعرّض لخياطة الإست»؛ تضميخ الشعيرات بسائل قابل للاحتراق وإضرار النار فيها؛ حرق الإست بشمعة؛ التّباري في لعبة الشّقلبة؛ التجديف؛ الاستحمام بالماء المغلي؛ جلد الجسد بحصى مشتعل؛ الاستمناء على تابوت؛ تدنيس المقابر والجثث؛ مواجهة امرأة شابة من دبر مباشرة بعد قتلها؛ الاستمناء مع مشاهدة تنفيذ حكم بالإعدام؛ التّظاهر بارتكاب جريمة قتل - حبس الشخص في كيس، خياطته، رميه في الماء، ثم استعادته؛ حرق جسد امرأة حيّة؛ حبس امرئ في قفص من حديد دون إمكانية للوقوف أو الجلوس؛ نفخ امرأة من إستها باستعمال كير حدّاد إلى أن تنفجر؛ التلويط بديك روميّ، وقطع رقبته لحظة القذف؛ الشّيء نفسه مع الكلاب والقطط واليوس والإوزّ والماعز؛ القبول بأن يطأه

(195) Champagne: أحد أقاليم فرنسا، وعاصمته رانس.

حصان وثور؛ إدخال ثعبان في إسته؛ حبس شخص في تابوت؛
 التظاهر بتنفيذ الإعدام؛ الصلب؛ وضع الشخص في صندوق لتقليل
 الأوكسجين؛ القيام بعملية غسل بالماء المغلي؛ إرغام امرأة على
 الإجهاض؛ استنزافها حتى الإغماء؛ صنع فصيد من دمها وأكله؛ كي
 الجروح بالحديد المحمي؛ قلع الأضراس؛ الضرب بالمطرقة؛ كسر
 أطراف؛ بخص الأجساد، وشرطها، وجرحها، وتقطيعها؛ إيذاء
 رجل إلى حالة جذع والتلويط به كل يوم طيلة سنة كاملة؛ الرمي «في
 تنور لاهب»؛ تنظيم عروض شفق؛ ملء خنادق بالجلث. لنكتف
 بهذا القدر: فساد يملأ قرابة أربعمئة صفحة بتلك الأهتار بالتفصيل
 - عدد منها استعملته ميليشيا حكومة فيشي، وكذلك الغيستابو
 الألماني، والعساكر الألمانية، وشتى الأنظمة الفاشية.

17

ماذا ننقد؟ لقد وصف ساد، رغمًا عنه، الطريق المسدود الذي نوجد
 فيه بتأكيد الإيتيقا المستحيلة، وحتى التي لا تخطر ببال، أو التي لا
 جدوى منها ببساطة. هو أيضًا لا ينجو من تناقضات الماديّ القدريّ
 الذي يؤكّد سيطرة الضرورة ويمتدح في الوقت نفسه أفضال التنظيم
 الإراديّ الدقيق، ويفصل القول في برنامج ناتج عن خطة مدروسة
 ومروية، وميثاق بين المتحررين من الأخلاق السائدة.

قصر سيلينغ ليس نتاج صدفة وضرورة من الطبيعة السيئة
 الشريرة، القاسية والإجرامية، بل هو خلق إراديّ وثقافيّ لدماغ
 مسكون بنزعة الموت. كلّ فاشية تنشأ من خشية عجز - من عجز

حقيقيّ إذن... - يحاول استبعادها بقوة مفتعلة. لو قُدِّر لما دون الإنسان أن يوجد، فلا ريب أنه سيعرّف معنى الفاشي.

وكما توجد فاشيّة تفيض على أصناف التّاريخ، توجد أيضًا إقطاعيّة تسمو باللحظات والمراحل التي تتجسّد فيها. ساد هو فيلسوف الإقطاع، كلّ الإقطاع: الذي سبقه والذي عاشه والذي جاء من بعده. وبالتالي إقطاع اليوم طبعًا. ومن هنا تأتي أهميّة القراءة: لمعرفة آليّات العدو، ينبغي ألا نجهل شيئًا عن طريقة اشتغاله.

ثمّ: قراءة وإعادة قراءة بعض الرّاصدين المناهضين للفاشيّة: في عام 1944، حوّل هوركهايمر وأدورنو في كتابهما جدليّة العقل صاحبَ تعاسة الفضيلة إلى مفكّر نموذجي للبورجوازيّة، ومبشّر بـ«الفاشيّة» و«العصر الشّموليّ»؛ وفي فبراير 1951 لاحظت حنا أرندت في أصول الشّموليّة انبهار المثقّفين قبل الحرب بأعمال الماركيز، وبيّنت أهميّة ذلك المعطى في التّشكّل الفكريّ للفاشيّات الأوروبيّة؛ في العام نفسه، جعل ألبر كامو في الإنسان المتمرّد «الجمهوريّة المطوّقة» للماركيز قرينة لمعتقلات الموت؛ ثمّ، وفي عام 1975، أكّد فوكو الأخير، صاحب المراقبة والمعاقبة، بعد أن غادر مرحلته البنيويّة وأزال الغشاوة عن عينيه، في حديث عنوانه ساد، ضابط جنس، أن ساد «تأديبيّ». أخيرًا...

جِدّة الماركيز الوحيدة؟ إقحام الجنس في الفلسفة بشكل عنيف مباغت. وفي هذا ينتمي إلى غلاة الأنوار - ولكن في هذا فقط. بيد أن آثار الماركيز دو ساد، التي كانت ضحيّة زمنها، ونتاج مرحلتها،

ونتاج قرون من اليهوديّة المسيحيّة، تبين بجلاء عودة المكبوت المسيحيّ.

في الواقع، تلك الإباحيّة الليليّة، وذلك الشبق الرديء، وذلك الجسد المهان، وذلك التمتّع بقيح القروح، وذلك التزاوج بين الجنس والموت، وذلك الكره الدائم للمرأة، وذلك العجز عن متعة بهيجة، مسئيّة، مرحة، مشتركة، كلّ ذلك هو نتاج خالص للنصرانيّة البولسيّة، ومثال عن عقل هيّاه عُصاب بولس الطرسوسيّ.

أيّها الفرنسيّون، مزيداً من الجهد إن أردتم فعلاً التخلّص من النصرانيّة، وإمكانيّة متعيّة تراهن على الحياة وتدير الظّهر للمعارف اللاهوتيّة المسيحيّة. لقد خطت الثورة الفرنسيّة خطوة في هذا الاتجاه، بنفس أسس إقطاع ما قبل الثورة. ثمّ خلق انتصار البورجوازيّة بعد تيرميدور إقطاعيّات جديدة، إقطاعيّاتنا نحن، ومن ثمّ وجب خلق أنوار جديدة – مغالية إن أمكن...

خاتمة

الثورتان الفرنسيّتان

1

«البيضة والدّجاجة» الفلسفيّة. خلافاً للأسطورة التي اختلقها التاريخ الرّسميّ السّائد، لم ينتج الفلاسفة الثّورة الفرنسيّة، بل العكس، فالثّورة الفرنسيّة هي التي أنتجتهم - على الأقلّ أولئك الذين يظهرون في البطاقات البريدية، التي تجمع في العادة روسو وفولتير وموسوعة ديدرو ودالمبير.

كتابة التاريخ تصنع التاريخ: تخلق الحدث الأكبر، ثمّ تعلن في الوقت نفسه عن الطّرفة الصّغرى؛ تروّج للفيلسوف المعتمَد، وتُبعد المفكّر الذي ينعت بأنّه من الدّرجة الثّانية؛ ترمّم فولتير، وتعيد له ألوان البشير الضّروريّ، وتهمل الآخر، تنسى هذا وتلوّث ذاك، وترسل إلى المطهر وحتىّ إلى الجحيم من لا يقرّ بفرضيّة انحيازها الخطّيّ.

الموت للفلاسفة! لا أحد من الفلاسفة الذين أُدرجوا تحت راية الثورة الفرنسيّة شهد الأحداث. كلّ الوجوه الوصيّة على 1789 كانت ترقد تحت الأرض بستّ أقدام. أكثر الجثث حدّاثه دولباك الذي فاضت روحه يوم 21 يناير 1789، أي قبل دعوة الملك إلى مجلس عامّ بثلاثة أيّام.

مصير كوندورسيه، فيلسوف الأنوار الرّمز الذي تحرّك كمعاصر للثورة، ينبئنا بما كان سيشهده الفلاسفة الذين ندّعي اتّباعهم بإنطاق نصوصهم. من الأفضل أن يموت المرء في مثل هذه الحالة! كوندورسيه مثلاً، الذي انتُخب في الكونفَنسيون⁽¹⁹⁶⁾، وتمنّى جمهوريّة مستنيرة بفضل تعليم جديد لأجل تحقيق ديمقراطيّة حقيقيّة وسيادة شعبيّة فعليّة، كان قدره شاهداً على المصير التي كان يُعدّه رجال السّياسة للمفكرين في الأزمنة الثوريّة.

كان الفيلسوف يشتغل على تخطيط اللوحة تاريخيّة في تطوّرات العقل الإنسانيّ حين قرّرت لجنة الإنقاذ العامّ، وكان من بينها روبسبير وسان جوست، إصدار حكمها ضده. تحبّأ هرباً من المقصلة. وكان يصرّ على الاعتقاد بضرورة «جعل العقل شعبيّاً» في مثل تلك الظروف. ولكونه متفائلاً بالمصير النهائيّ للإنسانيّة، وفيّاً لدين التّقَدّم، نصيراً للإنسان اللّذين يؤمن بهما، اختار الحلّ الرومانيّ.

(196) Convention: مجلس تأسيسيّ تمّ انتخابه في سبتمبر 1792 أثناء الثورة الفرنسيّة، بعد سقوط لويس السّادس عشر يوم 10 أغسطس من نفس العام، وفشل المُلْكِيّة الدّستوريّة.

عندما اكتُشف وأوقف وسُجن، انتحر لتجنب المقصلة يوم 29 مارس 1794.

حكاية تمثال هلفتيوس النّصفي الذي حطّمه روبسيير في جلسة نادي اليعاقبة يوم الأربعاء 5 ديسمبر 1793 شاهدة في نفس السّياق. ذلك التّزيه المزعوم (هو في الواقع أكبر ديهاغوجي صلف انتهازيّ شعبيّ) اتّهم هلفتيوس بالتّعاطف مع أعداء الثّورة (وهو الذي قضى نحبه عام 1771!) مظهرًا تصوّره المخصوص للفضيلة...

ودولباك كان يمكن أن يكون ضمن العربة الماضية إلى المقصلة، وهو الفيلسوف الملحد، المادّي، المعادي لكلّ الدّيانات. ذلك أنّ روبسيير يمقت الملحدين، والدّلّيل خطاب حول حرّية الدّيانات كان ألقاه في الفاتح من فيرمير⁽¹⁹⁷⁾ من العام الثّاني، وأعلن فيه: «الإلحاد أرسقراطيّ؛ أمّا فكرة كائن عظيم يحرس البراءة المضطّهدة ويعاقب الجريمة المنتصرة فهي شعبيّة». كان مهتاجًا ضدّ «التّفلسف»، ويمقت الملحدين مرتكبي كلّ الشرور، فهم في رأيه: باعوا ضمائرهم للغريب، لا خلق ولا دين ولا شرف. وقد كتب دون مراوغة: «إن لم يكن الرّبّ موجودًا، فلا بدّ من ابتداعه». نجد هنا مقولة مأخوذة من قصيد شعريّ إلى مؤلّف كتاب رسالة في الدّجالين الثّلاثة بتاريخ 1768.

(197) من أشهر التّقويم الجمهوري، وهي على التّوالي: فنديمير، برومير، فيرمير/ نيفوز، بلوفيز، فنتوز/ جرمينال، فلوريال، برييال/ ميسيدور، تيرميدور، فروكتيدور.

ذلك الخطاب الذي ألقاه أمام اليعاقبة في أواخر نوفمبر 1793 يسجل نهاية كل إمكانية لثورة شعبية حقيقية، وروبسيير يذكرنا به: لقد صدر إعلان حقوق الإنسان، ألواح قانون الليبراليين الدائمين، في أغسطس 1789 «بحضور الكائن الأسمى وتحت رعايته».

هذا دون ذكر ميليه الذي كان روبسيير وأتباعه سيدّونه ويشتمونه ويلوثونه ويحطّمونه ويدمّرونه ويقطّعونه ويلطّخونه بالبراز (وهو ما فعله فولتير باغتياله ورقياً حين بتر فكره وآثاره)، لأنّ إلحاده ومادّيته وكرهه لكلّ الديانات وإدانته للملكية وابتكاره شيوعية متحرّرة كان سيصدم روبسيير، ذلك البورجوازي التّأليهيّ، الليبراليّ، الذي وضع الإرهاب في خدمة تلك الأيديولوجيا، أي الليبرالية، إذ إنّ المفصلة لم تشتغل قطّ لصالح الإلحاد أو باسمه، بل كانت تقطع رأس أكثر من مواطن يؤكّد أنّه بلا ربّ أو يفترض أنّه كذلك...

3

ديونيسيّة الثّورة. التّأليف (أو إعادة التّأليف) التّاريخيّ يذهب مباشرة إلى لبّ الثّورة الفرنسيّة لينتج شكلاً أبولينيّاً يتّسم بالتّأنيّ والنّظام والمسبّيات الظّاهرة، والتّوازنات، والتّناسق، وتنافس القوى، كمنطق تاريخيّ. من السّهل، إذا عرفنا تيرميدور وتبعاته، أن نختلق أسطورة الثّورة الفرنسيّة! فمعرفة النّهاية تسمح بكتابة رواية بأكثر يسر. ولكن بتجنّب كلّ ما لا يدخل في ذلك الرّسم التّخطيطيّ الملزم.

منذ الدّعوة إلى الجلسة العامّة في 18 برومير، ليس للتّاريخ صوت واحد وخطّي سوى لدى التّاريخ الرّسميّ، الذي أُدرج فيه التّاريخ الرّسميّ المُهيمن للمُهيمن عليهم، ومن بينها التّواريخ الاجتماعيّة لجان جوريس، أو الشّيعيّة لماتيز⁽¹⁹⁸⁾، وسوبول⁽¹⁹⁹⁾، إلخ. في التّاريخ أو سواه، تنتصر الأبوليّنيّة⁽²⁰⁰⁾ على الدّيونيسيّة⁽²⁰¹⁾...

معتدلة ومغالية، فلسفيّة واقتصاديّة، محافظة وراديكاليّة، تأليهيّة وملحدة، يمينيّة ويساريّة، يعقوبيّة وفيدراليّة، ليبراليّة وشيعيّة، بورجوازيّة وشعبيّة، براغماتيّة وأيديولوجيّة، عبقريّة وغبيّة، نسائيّة وعدوّة للمرأة، محرّرة ومستعبدة، حضريّة وريفيّة، فكريّة وجبائيّة، كلّ شيء في هذه الثّورة يتلاعب، يتعارض، يتصارع، يتمازج.

4

الثّورتان. في الخليط الدّيونيسيّ نشدّب لإبراز أبوليّنيّة جديدة، فماذا نرى؟ قراءة تضع وجهًا لوجه ثورة الفائزين وثورة الخاسرين. منطق المنتصرين ضدّ منطق المنهزمين. البورجوازيّة عوّضت النّباله، ضدّ الشّعب، المسلوب الأبديّ في الثّورات عبر التّاريخ. خطّ ليبراليّ، ليبراليّ مشطّ.

(198) Albert Mathiez (1874-1932): مؤرّخ "الدّيانة المدنيّة" الفرنسيّة، ذو ميول شيوعيّة واشتراكيّة.

(199) Albert Soboul (1914-1982): مؤرّخ فرنسيّ متخصص في الثّورة الفرنسيّة ونابليون.

(200) Appollinisme: مفهوم جماليّ استعمله نيتشه في "ميلاد التّراجيديا" للدّلالة على جمال الشّكل.

(201) Dionysisme: حسب نيتشه، مفهوم يتعارض مع الأبوليّنيّة، ويتميّز بالاعتراف بطابع الحياة الرّآخر الوافر.

انتصر خطّ القوّة الليبراليّة بأفكار فولتير ويد روبسبير، وكانا رجلين من عامّة الشعب تحرّكهما الضّعيفة. كلاهما يتوق إلى تغيير قوّة النبلاء الإقطاعيّة بقوّة تجاريّة، قوّة الباعة والمقاولين وأصحاب البنوك والمُلاك. وقد تمّ ابتكار البورجوازيّة الحديثة في تلك الفترة، وعيّنت نهاية اللعبة الخاسرين: أي المواطنين الذين يُنعتون بالسّلبية – بمعنى غير مالكين، ولا يدفعون الضّرائب، ويعجزون عن تأمين عيشهم بوسائلهم الخاصّة.

في ذلك المعسكر الليبراليّ، للثّورة الفرنسيّة أسطورتها: دعوة الملك إلى جلسة عامّة؛ رغبته، على الأقلّ حتّى فارين، في المحافظة على النظام الملكيّ وتعديل سلطة القصر المطلقة بدستور؛ إعلان حقوق الإنسان والمواطن في صيغة 1789، في فصله الثّاني، يكرّس المِلكيّة والأمن «حقّين طبيعيّين غير قابلين للتّقدّم»، وفي فصله السّادس عشر، يجعله «حقّاً مقدّساً لا يُنقض»⁽²⁰²⁾ أكثر من العدالة أو المساواة؛ وهو أيضاً الحرّيّة المطلقة للتّجارة والصّناعة وانتقال الثّروات والممتلكات؛ قانون لو شابوليه الذي يمنع النّقابيّة؛ الفصل العاشر يقرّ حرّيّة المعتقدات والعبادات الموكولة للدين، وهي طريقة عمليّة لتشريع روحانيّ للأشكال الدّنيويّة الجديدة.

الرّب، المِلكيّة، التّجارة، الصّناعة، الحرّيّة، تلك توصية النّخبة الجديدة التي استولت، مع الثّورة، على الأُمّة. يمكن للثّورة الفرنسيّة بتقنية سينها سكوب أن تبدأ: لويس السّادس عشر منهمك في آليّات

(202) بل هو الفصل السّابع عشر والأخير.

أقفاله؛ ماري أنطوانيت وفطائرها؛ الاستيلاء على حصن الباستيل الذي يكاد يكون خاليًا في ذلك اليوم؛ مزحة حراب قَسَمِ الـ«جودو بوم»⁽²⁰³⁾؛ فولتير وروسو في مقام رفيع؛ روبسبير وسان جوست مبشّران بالفضيلة الجمهوريّة؛ دانتون⁽²⁰⁴⁾، غول مضادّ لروبسبير الملقّب بالنّزيه؛ مارا الطيّب في حمّامه تغتاله المختلّة عقليًا شارلوت كورداي؛ تيرميدور الذي يوقف هذيان الأرملة⁽²⁰⁵⁾؛ وعمّا قريب الصّغير بونابرت وهو يلتقط ويلصق القطع أمام فرحة المالكين العارمة، من بينهم أثرياء الثّورة الفرنسيّة الجدد، الذين حصلوا على ممتلكات الكنيسة بحفنة من أوراق مالّيّة لا قيمة لها تقريبًا...

5

الرّاديكاليّة الثّوريّة. في المعسكر المقابل، معسكر الغلاة، تُظهر الثّورة الفرنسيّة وجهًا مغايرًا: إلغاء الامتيازات؛ قطع رقبة لويس السّادس عشر؛ الصّرائب والقانون حول الحدّ الأدنى؛ الإلحاد المضادّ للتّصراية للعام الثّاني من التّقويم الجمهوريّ؛ وتخصّ «الأيدي العارية» لميشليه⁽²⁰⁶⁾، اللّامتسرولين الذين يطالبون بـ«المساواة في المتع»، المسعورين وعريضتهم المؤرّخة في 25 يونيو 1793، الرّهبان

(203) Serment du Jeu de Paume: لحظة مؤسسة للديمقراطيّة الفرنسيّة حيث تمّ الإعلان عن فصل السّلطات، والسّيادة الوطنيّة يوم 20 يونيو 1789 في قاعة "جودو بوم" في فرساي، باسم لعبة تشبه التّنس كانت تمارس هناك.

(204) Georges Jacques Danton (1759-1794) محامٍ وسياسيّ فرنسيّ قاده روبسبير إلى المقصلة.

(205) Lucile Desmoulins (1770-1794): كانت تسخر من روبسبير الذي رمى بها في السّجن ثمّ أعدمها بعد إعدام زوجها بثمانية أيّام.

(206) Jules Michelet (1798-1874): من كبار المؤرّخين الفرنسيّين، ليبراليّ ومعاذٍ للإكليروس.

الحر، جاك رو - «مسعور المساعير» بعبارة ميشليه...-، وبير دوليفيه، وسيلفان ماريشال بكتابه معجم الملحدین وعريضة المتساوين؛ عصابة الجمهوريات الثوريّات التي أسستها بولين ليون وكليز لاکومب؛ غراکوس بابوف⁽²⁰⁷⁾ وبابوفيّ جمعيتّه؛ وغيرهم من النّاشطين الذين وضعوا في درج الدّرجة الثّانية لأنّهم يحدّدون ثورة المهزومين الفرنسيّة، أي المنادين بالمساواة، ومحبّي العدالة الاجتماعيّة، والنّسويّات المناضلات مع المسعورين، المتمسّكين ببرنامج اقتصادي اجتماعي حقيقي، لكونه اشتراكياً أو شيوعياً.

تلك الحركة تقترح أفكار وصيّة جان ميلييه، حتّى وإن كان أغلب النّاشطين يجهلون أعماله الكاملة: إلحاد، تشاركيّة، نسويّة، مساواة، عدالة اجتماعيّة، الكلّ في أفق راديكاليّ، أي مطّبق على جذور الأشياء.

بيد أن الجذر هو تواطؤ بين السّلطة الرّوحانيّة الكاثوليكيّة الرّومانيّة والسّلطة الدّنيويّة للملكيّة الفرنسيّة. تغيير الأشياء تغييراً حقيقياً معناه تفويض الأسس المسيحيّة للمملكة الكابيتيّة⁽²⁰⁸⁾ بهدف عالم ما بعد إقطاعيّ، ما بعد مسيحيّ.

العام الثّاني حاول تلك الرّاديكاليّة. مرحلة جديدة، أعمال جديدة، أفكار جديدة، كلمات جديدة. وقد ولّدت لغة تلك الفترة كلمات

(207) Gracchus Babeuf (1760-1797): كاتب ومفكر ثوريّ أسّس جمعيّة "مؤامرة المتساوين" ضدّ حكومة المديرين، فتمّ إعدامه.

(208) Capétiens: الأسرة الملكيّة الحاكمة في فرنسا من 987 إلى 1792، ثمّ من 1814 إلى 1848.

«إزالة الملكية»، «إزالة الرّهبة»، «إزالة الإقطاعيّة»، «إزالة التعصّب»⁽²⁰⁹⁾. والقواميس المعاصرة ما زالت تحتفظ بـ «إزالة النصرانيّة»... هذه العبارة التي تحوي العبارات الأخرى: وضع حدّ للملك، الرّهبان، الإقطاع، التعصّب، المجتمع في النصرانيّة...

حركة الخروج من النصرانيّة تريد دستوراً مدنيّاً للإكليروس، إبعاد الكهنة الممتنعين، إلغاء العبادة، زوال الأعياد الدّينيّة، تحطيم الرّموز الكاثوليكيّة، تأميم ممتلكات الإكليروس، جعل الحالة المدنيّة علمانيّة، وضع تشريع غير دينيّ للتّعميد، وتقويم غير مسيحيّ، وأسماء أعلام ما بعد مسيحيّة، والنّظر إلى الموت خارج الخرافات كراحة لا كتهديد.

في حصيلة الأمر، تلك الرّاديكاليّة الثّوريّة الحقيقيّة دامت من 5 أكتوبر 1793 إلى 21 نوفمبر من العام نفسه، تاريخ خطاب روبسيير الذي خنق الحركة، حيث أرسل جناحها الأيسر من الهيرتيين والمسعورين إلى المقصلة، ثمّ وضع في صدارة المشهد الثّوريّ معابد العقل وأعياد الكائن الأسمى التي كان يُحرق خلالها «وحش الإلحاد» في الحديقة الوطنيّة (تويلري). أقلّ من شهرين، وقت وجيز كي تأمل نتيجة حقيقيّة.

ورغم ذلك، فبعض ما كان ضدّ النصرانيّة، على قلّته، سرّ بلا شكّ أرواح ميلييه وهلفتيوس ودولباك، ولكنّه لم يسرّ بالتّأكيد فولتير

(209) هي في الأصل أفعال مسبوقة ببادنة dé تعكس الجذر، كقولنا Faire (فعل) défaire (نقض، فكّ، فسخ)

وروسو، ولا روبسيير بطبيعة الحال وهو الذي سعى بكلّ جهده لإيقاف تلك الثورة بإعادة حرّية العبادة خلال تلك الحصّة الشهيرة في الفاتح من شهر فريمير من العام II. في ذلك اليوم، قُضي على الغلاة، وفاز الليبراليون بحقّ إنهاء انقلابهم الذي حمل البورجوازية إلى سدّة حكم الآلة الجمهوريّة. وكان روبسيير تيرميدور يسير على أيّ حال في ذلك الاتجاه، ومخطوطات الأيام التي سبقت إيقافه شاهدة على ذلك...

6

فلسفة الأساتذة (البورجوازية). ما لبث المنتصرون والليبراليون والبورجوازيون أن حيّوا أرواح المفكرين الذين أتاحوا ذلك الانقلاب. نفهم كيف أنّ فولتير، الفيلسوف الرّمز لذلك الخطّ من القوة التّأليهية، الليبرالية والمالكة، والبورجوازية باختصار، دخل البانتيون⁽²¹⁰⁾ عام 1791 في أوج الثورة... فولتير الذي شوّه ميليه ليزيل روحه، وكان يكره لا ميتري، ويكتب ضدّ هلفتيوس، ويسخر من موبرتوي، ويتهمّ على دولباك، ويحتقر الشعب، ويمتدح الأقوياء، لم يسرق مكانه في ضريح المهمّين ذاك.

لكتابة التّاريخ (الفلسفيّ) من وجهة نظر المنتصرين، يملك البورجوازيون سلاحًا قديمًا، جدّده بونابرت الذي أصبح نابليون: الجامعة. تلك المؤسّسة التي طالما كانت تحت إمرة المثالية المسيحيّة وضعت نفسها في خدمة الممّولين الذين صاروا يدفعون أجرها:

(210) Panthéon : معلم باريسيّ بني ما بين 1757 و1790، ليكون مقام ضريح القديسة جنيفيف، فصار بعد الثورة مقام جثامين كلّ من شرف في حياته فرنسا.

الليبراليون، البورجوازيون وروحانيّتهم، في صيغة مستحدثة للمسيحيّة.

ريح قذيفة الثّورة الفرنسيّة مرّت قريباً جدّاً، والبورجوازيون يتذكّرون بشكل مشوّش، ولكن أكيد، أنّ الفلاسفة جعلوا تلك الكارثة ممكنة. خطورة القرن الثّامن عشر فضحتّها المادّيّة والحسويّة والتّجربيّة والتّأليهيّة دون ذكر الإلحاد.

في فرنسا، يمرّ استعمال الفلسفة لغايات مضادّة للثّورة عبر جامعة القرن العشرين. لمعارضة روح 89 - لا نتحدّث عن «فكر 89»، وكان يمكن ذلك... -، وجد فيه أستاذ مغمور فرصة ممتازة كي يصبح موظّفاً سامياً يمرّ عبره كلّ شيء. اسمه؟ فيكتور كوزان.

هذا الرّجل، هو فيلسوف في غاية التّفاهة، وبالتّالي منذور للتمييز في الإدارة الوطنيّة للفلسفة، كاتب رديء دخل تاريخ الأفكار باسم النّخبويّة، واستأثر بنفوذ هامّ في الوسط السّياسيّ الفلسفيّ، عن طريق التّدخل في البرامج، ومحتوى البكالوريا، ومناظرات التّدريس، وهيئة التّفتيش، والمآكنة الإداريّة، وابتدع فلسفة الأساتذة الرّائج رواجاً واسعاً منذ قرنين. العلامة الخاصّة: كراهيّة الحياة اليوميّة، احتقار للجسد والجنس والانفعالات والأحاسيس والإدراك، رفض الملموس واللّواذ بالمثاليّة، عبادة الرّوحانيّة، فصل ظاهريّ بين الفلسفة والدين، في الواقع جعل المسيحيّة دنيويّة لائكيّة، كلّ ذلك في إهاب ساحر من المثاليّة الألمانية. استهلّ كوزان التّقليد الفرنسيّ الكبير في عشق الفلسفة الجرمانيّة...

فلسفة الأساتذة تنمو مثل آباءية⁽²¹¹⁾ ليبرالية. في تلك الفترة، بدأت كتابة تواريخ عن الفلسفة، لأنهم يستشعرون، أو يفهمون، أهمية التاريخ في كتابة التاريخ. هذا في ما يتعلق بإعادة كتابته...

كانت دروس تاريخ الفلسفة، التي تقدّم في مظهر يدّعي الحياد والموضوعية، يسمح لموظفي الدولة في هذه المادة، أن يتخيروا، ويحتفظوا، ويحتفوا بفلاسفة، أسماء وأعمالاً، ويقصوا ويتردوا آخرين. ديكارت ضدّ لوك، لايبنتس ضدّ غاسندي، كانط ضدّ هلفتيوس، هيغل ضدّ دولباك. يتدعون أساطير، ويلقون باللّعنات. في درس في الفلسفة، الجزء الأوّل، يقول كوزان عن لا ميري ودولباك: «إنّهما مجنونان!» نسجّل الأصدقاء في قائمة رسمية، ومنهج دراسي، وفي الوقت نفسه نفرض الصّمت على الأعداء.

7

صفاء إنجليزيّ ضدّ ضباب ألمانيّ. لا تنحصر الفلسفة كلّها في الاحتفاء بالروح المطلقة، والنّصرانية التي غير المصطلح وجهها، أو في ديانة الدولة كما يعلمها هيغل في فينومينولوجيا الرّوح وأصول فلسفة الحقّ. إنّ الولوج بالألفاظ المولّدة، والجدلية الغامضة، والميل إلى بلاغة وسكولائية العصر الوسيط الذي أعادت جامعة بينا النّظر فيه لا تشكّل أفقا فلسفيّاً لا يمكن تجاوزه (وهو ما يعتقده التاريخ الرّسميّ المهيمن المضجر)، فالخلاص موجود خارج المثالية الألمانية...

(211) Patristique: دراسة علم آباء الكنيسة.

الجامعة لا تمثل الأفق الذي لا يقبل تجاوز الفكر بعد الثورة الفرنسية. صحيح أنّ ثمة برلين وتوبينغن وبيننا وهایدلبرغ وفريبورغ؛ وعلم المنطق والوعي بالذات وروح العالم والمعرفة المطلقة بطبيعة الحال؛ وكانط وهيغل وفيشته وشيلينغ، وهذا حسن. ولكن في الأماكن الأخرى؟ لا شيء؟ ألا يوجد شيء ذو فائدة؟ شيء ذو أهميّة؟

بلى طبعًا، فالقرن التاسع عشر، حين لا يكون شريكًا للمثاليّة المصوغة باللّغة الألمانية، هو أيضًا قرن أتباع النّفعيّة الفرنسيّة الإنجليز: وليم غودوين المتفرد، والذي لا يقلّ عنه مبالغة جيريمي بنتام، وفائق الموهبة جون ستيوارت ميل، والمريد هنري سيدغويك، ولكن ثمة أيضًا في ما وراء المحيط الأطلسيّ فكر أمريكيّ يتجسّد في صورة العجيب هنري ديفيد ثورو أو أستاذه المتسامي الأبيقوريّ رالف والدو إمرسون. وكلّها فرص نظهر خلالها أنّ الفلسفة تتكلّم لغة غير يونانيّة أفلاطون أو ألمانيّة كانط، فلئن تكلمت بفرنسيّة هلفتيوس أو دولباك، فإنّها يمكن أيضًا أن تتكلّم بلغة لوك...

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكوكبة المثالية	الكوكبة المتعينة
1694: مولد فولتير. 1710: لايبنتس، الربوبية. 1710: بركلي، مبادئ المعرفة الإنسانية. 1712: مولد روسو. 1713: فينيلون، برهان على وجود الرب. 1714: لايبنتس، المونادولوجيا. 1715: وفاة مالبرانش.	1698 (7 يوليو): مولد موبرتوي. 1709 (19 ديسمبر): مولد لاميتري. 1713: مولد ديدرو. 1715: (يناير) مولد هلفتيوس.

1715: وفاة لويس الرابع عشر. الوصاية على العرش.

1716: مولد دوم ديشان. 1717: وفاة لايبنتس.	1716-1719: كتابة مذكرات الأب ميليه. 1723: (8 ديسمبر) مولد دولباك.
--	--

1723: لويس الخامس عشر على العرش.

1724: مولد كانط. 1734: رسائل فلسفية لفولتير. 1750: خطاب في العلوم والفنون، روسو. 1751: مهاترة الدكتور أكاكيا (ضد موبرتوي)، فولتير. 1751: في الموسوعة (مقال «الإلحاد»، الأب إيفون يطالب بإعدام الملحدين. 1754: خطاب في أصل التفاوت بين البشر، روسو. 1756: قصيد عن كارثة لشبونة.	1729: (28 أو 29 يونيو) وفاة جان ميليه. 1740: ولادة ساد. 1745: تاريخ طبيعى للزوج، لاميتري. 1748: الإنسان الآلة، الإنسان التبتة وخطاب في السعادة أو المضاد لسينيكا، لاميتري. 1748: مولد بنثام. 1749: في برلين، مقالة في الفلسفة الأخلاقية، موبرتوي. 1750: الحيوانات أكثر من كونها آلات، لاميتري. 1751: وفاة لاميتري. 1755: موريلي، قانون الطبيعة. 1756: مولد غودوين.
--	---

1757: إعلان ملكي يعاقب بالإعدام مؤلفي الكتابات المعادية للدين وناسريها ومروجيها.

1758: عن الرّوح، هلفتيوس.	1759: كانديد، فولتير.
1759: (27 يوليو) وفاة موبرتوي.	

1759: الحكم بحرق «عن الرّوح» لهلفتيوس.

النّصرانيّة مكشوفة، دولباك.	
1762: كالاس ضُرب حتّى الموت.	

1762: فولتير يطبع وينشر «وصيّة» ميلييه مشوّهة.	1764: بيكّاريا، رسالة في الجرائم والعقوبات.
1762: العقد الاجتماعيّ، إميل، جهر القسن السّافوّائيّ بعقيدته، روسو.	1766: رسائل تراسوبولوس إلى لوكتيوس، فريري.
1764: رسائل من الجبل، روسو.	1768: قضيّة روز كيلر / ساد.
1764: المعجم الفلسفيّ (ضدّ الإلحاد)، فولتير.	1769: مقالة في الأفكار المسبّقة، دومارسيه.
1770: مولد هيغل.	1769-1770: تاريخ نقدّي للمسيح، روح اليهوديّة، دراسة نقديّة لحياة بولس وكتابات، لوح القديسين، دولباك.
1770: فولتير يكتب ضدّ دولباك: الرّب، إجابة على نظام الطّبيعة.	1770: نظام الطّبيعة، دولباك.
	1770: إعادة تأهيل يوردانوس برونوس (مخطوط سرّي)
	1771: (26 ديسمبر) وفاة هلفتيوس.
	1772: (نشر بعد الوفاة) عن الإنسان، هلفتيوس.
	1772: الرّأي السّليم، هلفتيوس.
	1772: مولد شارل فوربيه.
	1772: قضيّة مارسيليا / ساد.
	1773: ملحق رحلة بوغانفيل، ديدرو.

1774: وصول لويس السّادس عشر إلى السّلطة.

1774: وفاة دوم ديشان.	1778: وفاة روسو وفولتير.
1775: (نشر بعد الوفاة) الحقيقة أو النّظام الحقيقيّ، دوم ديشان.	1781: (بعد الوفاة)، الاعترافات، روسو.
1775: دحض، عقبه كتاب	1781: نقد العقل الخالص، كانط.

1782: (بعد الوفاة) أحلام يقظة جَوَّال منفرد، روسو.	هلفتيوس: الإنسان.
1784: ما الأنوار؟ وفكرة تاريخ كوني من وجهة نظر كوسموبوليتية، كانط.	1782: حوار بين كاهن ومُحتَضَر، ساد.
1785: أسس ميتافيزيقا الأخلاق، كانط.	1784: وفاة ديدرو.
1788: نقد العقل العملي، كانط.	1787: بؤس الفضيلة، ساد
	1789: (21 يناير) وفاة دولباك.
	1789: ألين وفالكور، ساد.

1789: الثورة الفرنسية

1790: نقد ملكة الحكم، كانط.	1789: مدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع، بنثام.
1792: عن الشر المتجذر في طبيعة الإنسان، كانط.	1791: جوستين أو بؤس الفضيلة، ساد.
1793: الدين في حدود مجرد العقل، كانط.	

21 يناير 1793: إعدام لويس السادس عشر

	1793: بحث في العدالة السياسية، غودوين.
20 بربريال، العام الثاني (8 يوليو 1794): عيد الكائن الأسى.	

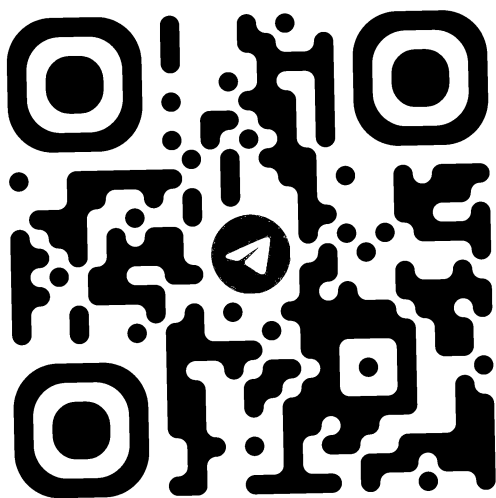
1798: الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براعماتية، كانط.	1794: تخطيط للوحة تاريخية في تطورات العقل الإنساني، كوندورسيه.
1798: نظام الإيثيقا، فيشته.	1795: الفلسفة في المخدع، وجوستين الجديدة تلتها جوليت، ساد.
18 برومير العام السابع (10 نوفمبر 1799): انقلاب بونابرت.	

1800: نظام المثالية المتسامية، فيشته.	
1802: الإيمان والمعرفة، هيغل.	
1804: هيغل.	

1804: نابليون إمبراطورًا.

1804: الفلسفة والدين، شيلينغ.	1806: مولد جون ستيوارت ميل.
1807: فينومينولوجيا الروح، هيغل.	1808: نظرية الحركات الأربع، فوربيه.
1812: علم المنطق، هيغل.	

1831: وفاة هيغل.	1814: وفاة ساد. 1820: العالم الصناعي والمجتمعي الجديد، فورييه. 1832: وفاة بنثام. 1836: وفاة غودوين. 1837: وفاة شارل فورييه.
------------------	--



سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

ميشال أونفراي

غُلاة
الأنوار

مكتبة

t.me/soramnqraa

حفل عصر الأنوار بمفكرين حملوا مشاعل التنوير ضد الظلامية اللاهوتية والليل الكاثوليكي البابوي الروماني، مثلما حفل بدجالي فكر وفلسفة، ولكن التاريخ الرسمي شوّه حقائق كثيرة، فالأنوار الذين احتفظ بهم لم يساهموا في الثورة الفرنسية، وسيرتهم ليست فوق الشبهة كما رسخ في الأذهان؛ وغفل عن ذكر فلاسفة راديكاليين عُرفوا بالغُلاة، كانوا سباقين إلى طرح تصوّر فلسفي متكامل عن المادية والمتعة والتفعية، وحتى الشيوعية، أمثال لا ميتري وميلييه وموبرتوي وهلفيتوس ودولباك، ولم يعانون من تشدد السلطين السياسية والدينية فحسب، بل عانوا أيضًا من خذلان زملائهم (فولتير، روسو، ديدرو، دالمير...) .

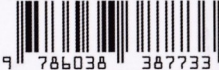
غلاة الأنوار حفر جينيالوجي في الحقائق المخفية والأسماء المنسية لعصر مفصلي، بأسلوب بعيد عن التعقيد الفلسفي، كعادة المفكر الفرنسي ميشال أونفري في شتى محاضراته.

المترجم

telegram @soramnqraa

WWW.PAGE-7.COM

ISBN: 978-603-8387-73-3



9 786038 387733

Designed by Tawfiq Omrane

صفحة

